خزعل الماجدي

ميثولوجيا الخلود

دراسة في أسطورة الخلود قبل الموت وبعده في الحضارات القديمة



ميثولوجيا الخلود

دراسة في أسطورة الخلود قبل الموت وبعده
في الحضارات القديمة



الأهليّة للنشر والتوزيع

المملكة الأردنيّة الهاشميّة ، عمّان
وسط البلد ، خلف مطعم القدس
هاتف ٤٦٣٨٦٨٨ ، فاكس ٤٦٥٧٤٤٥
ص. ب : ٧٧٧٢ عمّان / الأردن

ميثولوجيا الخلود
دراسة في أسطورة الخلود قبل الموت وبعده
في الحضارات القديمة
خزعل الماجدي / العراق

الطبعة العربيّة الأولى ، ٢٠٠٢

تصميم الغلاف : **زهير أبو شايب / الأردن**

صورة الغلاف :
تمثال امرأة - تلّ أسمر ، العراق / من كتاب « الفنّ في العراق القديم » أنطون مورتكات
الصفّ الضوئي : **أزمنة للنشر والتوزيع ، عمّان ، هاتف : ٥٥٢٢٥٤٤**

خزعل الماجدي

ميثولوجيا الخلود

دراسة في أسطورة الخلود قبل الموت وبعده في الحضارات القديمة



المقدّمة

لماذا بحث الإنسان عن الخلود؟

ولماذا عندما لم يجده اقترح له صيغاً بديلةً؟

كيف تطلع الإنسان إلى حياة ما بعد الموت ورأى نفسه خالداً فيها بجسده وروحه أو بأحدهما؟

كيف صنع الإنسان من كل هذا الدأب الأساطير وخطط السيناريوهات الإسكاتولوجية؟

هذا الكتاب يحاول الإجابة عن كل هذه الأسئلة ويحاول معالجة الخلود مثولوجياً ويبحث في الإغواءات الكبرى للخلود قبل وبعد الموت ، وفي الإغواءات الصغرى البديلة والكامنة في البطولة والحكمة والجنس والتكاثر والطب والشفاء والكلمة والمعرفة.

لا شك أن كلّ الديانات أعطت للإنسان نوعاً من الخلدو قبل أو بعد الموت، وقد اختلفت درجات هذا الخلود وطرائقه ونسجت حوله الكثير من الأساطير التي صوّرت عوالمه وصاغت أشكاله.

هذا الكتاب ينقسم إلى بابين أساسيين: الأول يعالج موضوع الخلود قبل الموت والبحث عنه في تراث وادي الرافدين، وبعد الموت والاستسلام له في حياة الآخرة في تراث وادي النيل. فالخلود قبل الموت كان هاجساً مُلِّحاً عند العراقيين القدماء ولكنهم اعترفوا بعجزهم شبه الكامل عن الحصول عليه ولذلك اخترعوا

بدائل جزئية عنه كالمعرفة والتكاثر والإسم والشفاء... الخ. أما المصريون القدماء فلم يبحثوا عن الخلود في الحياة لأنهم كانوا يؤمنون أن الإنسان خالدٌ أصلاً وأن وهلة الموت ما هي إلاّ حاجز شفاف للإنتقال من الحياة الأولى إلى الحياة الأبدية ولذلك حنّطوا أجسادهم واخترعوا السيناريوهات التي تؤدي بالصالح إلى جنّات أوزيريس وبالطالح إلى نيران وأفاعي الدوات.

والحقيقة أن طريقة النظر إلى الحياة والموت والخلود مختلفة تماماً في الحضارتين الرافدية والنيلية.

أما الباب الثاني من الكتاب فيناقش بالتفصيل تلك الحلول التي أعطاها التراث الرافدي بديلاً عن الخلود الشامل ، فقد تطرّق الفصل الأول من هذا الباب لمناقشة مثولوجيا البطولة والحكمة ومدى تلازمهما أو افتراقهما عند الآلهة والشخصيات الأسطورية في العراق القديم مثل (آدابا وأوتونابشتم وإتانا وجلجامش.. الخ). أما الفصل الثاني فيحلل مثولوجيا الجنس والتكاثر من خلال وحدة الإخصاب الكوني ومرايا إنانا الخصيبة ومراياها المضادة الكارثية. ومتلازمات الخصب والجدب، وفي الفصل الثالث نتطرّق إلى مثولوجيا الطب والشفاء باعتبارهما نوعاً من البقاء الجزئي ومحاولةً لانتشال الإنسان من الموت والمرض، وقد دفعنا هذا إلى الحفر في الأساطير السومرية والبابلية القصص والملاحم ونصوص التعاويذ والأحلام التي تناولت الطب والأمراض.

وفي الفصل الرابع ذهبنا إلى قوة الكلمة والمعرفة باعتبارها محاولة من محاولات الخلود ، لكننا حصرنا قوة الكلمة والمعرفة في نمطين من الممارسات الخارقية وهما العرافة والسحر ، وزدنا ذلك خصوصية عندما تناولنا العرافة والسحر في جانبهما الطبي والشفائي لكي نربط الفصول السابقة بهذا الفصل ربطاً محكماً، ففي قوى العرافة الطبيّة تناولنا مراقبات العرّافين للأحشاء والحيوانات والطبيعة والنجوم... الخ وربطها بالصحة والمرض، وفي قوى السحر

تناولنا علاقته بالطب والجراثيم السحرية (الشياطين) والسحر الوقائي (الرقى والتعاويذ والتمائم) والسحر الأسود والطب العقلي والنفسي.

وإذا كنا قد استجبنا للإغواءات الكبرى والصغرى للخلود في الحضارات القديمة وتناولنا أساطيرها وآلهتها ومغامراتها فهذا يعني أننا حاولنا تحليلها علمياً وتوضيح عناصرها الدينية بشكل خاص .

والخلود لله وحده.

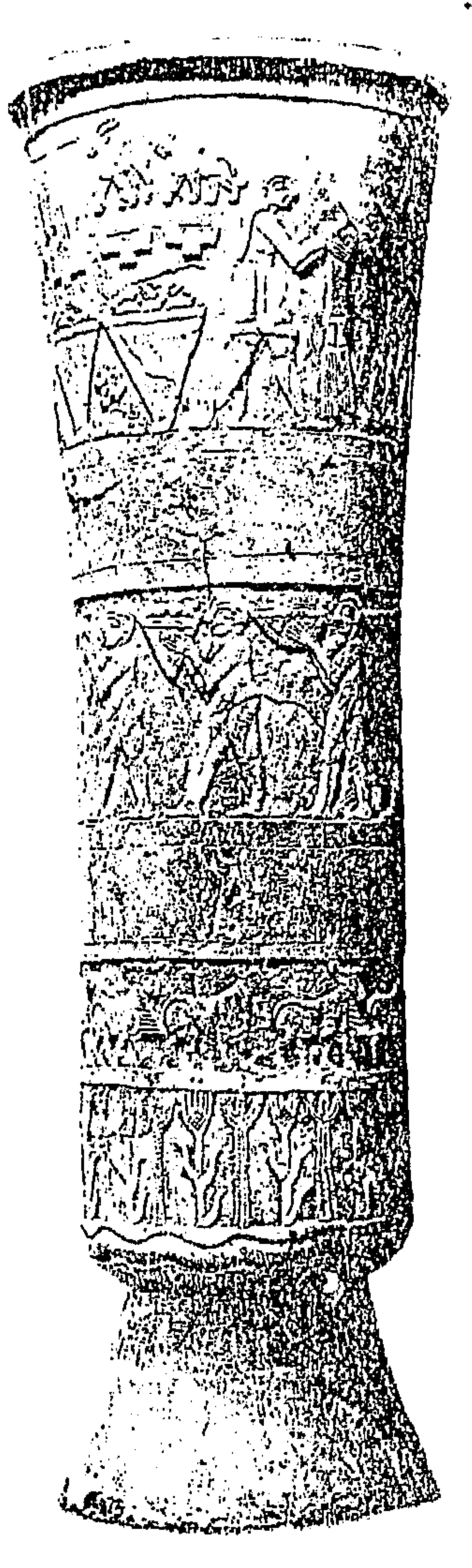
د. خزعل الماجدي
٢٠٠١/٩/١١ عمّان

الباب الأول

الإغواءات الكبرى للخلود

الفصل الأول

مثولوجيا الخلود في الحياة (قبل الموت) في حضارة وادي الرافدين



الكأس النذري السومري/ الوركاء

يقول الكاتب الإسباني ميجيل دي أونامونو : كنتُ أتحدثُ إلى فلاح، ذات يوم، و اقترحت عليه فرض وجوه إله يحكم في الأرض وفي السماء، كما أقترحت عليه أيضاً عدم خلود الأرواح وأنه لن يكون بعثٌ ولا نشورٌ بالمعنى التقليدي المعروف. فأجابني الفلاح قائلاً : وما فائدة وجود الله إذن ؟ (١)

يبدو لنا ظهور الدين ورسوخه قائم، أساساً، على فكرة الخلود، خلود الله من ناحية وخلود الأرواح وعلاقتها بالله في العالم الآخر من ناحية أخرى. وتختلفُ زوايا نظر الأديان في معالجة فكرة خلود الله والأرواح، حسب طبيعة ديانتها ومجتمعها وبيئتها، لكن الأديان جميعاً تتفق بهذا القدر أو ذاك على فكرة الخلود.

الديانات البدائية الأرواحية ، مثلاً، كانت وما زالت تعتقدُ بوجود أرواح أبدية تجوب العالم وتحلّ في الأشياء، حيث تروي أساطير الدوغون الأفريقية «أنه لم يكن أحد يموت في الماضي، فعندما يشيخ الناس يتحوّلون إلى أفاع ثم إلى ييبان Yeba (شعب من الكائنات الصغيرة غير المرئية) أو إلى نومّو، وينجّم عن ذلك أن بعض النومّو هم من الأجداد. وليس في ذلك استثناء، إذ أن الكثير من الجن هم من الأجداد لأنهم ارتفعوا إلى مرتبة أعلى في عالم ما وراء المنظور. (٢)

أما الديانات القديمة متعددة الآلهة فقد أجمعت على خلود الآلهة واختلفت في خلود الإنسان، فبعضها ،كالمصرية، أعطت الخلود للإنسان بعد الموت وخصّت به أولاً الملوك ثم البشر الصالحين، أما الديانات العراقية القديمة فلم تعط الخلود للإنسان بل جعلته يسعى إليه دون جدوى ثم قد يحصل عليه بصيغ أخرَى غير الخلود الأبدي، لكنها أعطت البقاء لروح الإنسان حبيسةً في العالم الأسفل.

أما الديانات التوحيدية فقد كرّست الخلود لله وحده ونفته كلياً عن البشر، أما الروح البشرية فباقية بعد الموت أما في الجنة أو في النار. لكن الأديان في غالبيتها

تجمع على خلود الروح الإنساني بعد الموت وهو ما لاحظه وليم جيمس حين قال: «إن الدين في الواقع، عند الأغلبية من الناس، يعني خلود الروح ليس إلاّ، وأن الله هو موجد هذا الخلود» [٣]

علينا، أول الأمر، التمييز بين عقيدتين يبدو عليهما التداخل والاشتباك: أولهما عقيدة الخلود وهي العقيدة التي تخصّ الآلهة في تراث وادي الرافدين مع استثناءات بشرية قليلة، وثانيهما عقيدة الحياة بعد الموت وهي العقيدة التي تخص البشر في تراث وادي الرافدين مع استثناءات إلهية قليلة. ورغم أن العقيدتين تلتقيان في منطقة مشتركة إلاّ أن عقيدة الحياة بعد الموت عقيدة مبكرة سابقة على عقيدة الخلود، فقد اعتقد بها الإنسان القديم في العصور الحجرية القديمة ويدل على ذلك طريقة دفنه لموتاه. أما عقيدة الخلود فهي نتاج ظهور الآلهة في حياة البشر وتأكد عجزه أمام قوى الطبيعة الهائلة، وهي عقيدة أشد رقيّاً من عقيدة الحياة بعد الموت، لأن زيادة الفصل بين الإله والإنسان عن طريق عقيدة الخلود كان باعثاً أساسياً للتطوّر الفكري والعقائدي، ومن هذه النقطة نهض الدور الأخلاقي للديانات التوحيدية بل وقد أتاح هذا الفصل طريقاً معبّداً لفهم الحياة ورؤيتها بشكل أفضل.

إن هذا البحث يستبعدُ حقل عقيدة الحياة بعد الموت المرتبط غالباً بالبشر ويحاول رصد عقيدة الخلود هي تتردد بين الآلهة والبشر في تراث وادي الرافدين، ذلك التردد الذي سنراه واضحاً في خوض الآلهة في الموت ومشابهتهم للبشر وخوض البشر في الخلود ومشابهتهم للآلهة.

لعلّ أول ما يلفت الانتباه، في تراث وادي الرافدين، ذلك الفرق الجوهري بين خلود الآلهة وخلود البشر، فخلود الآلهة خلود ساكن لا يحمل تصاعداً دراميًا في طيّاته.. بينما خلود الإنسان ومحاولته لنيله خلود متحرّك تشوبه قوى الصراع التي تجعل منه نشطاً وحيوياً، ولذلك فقط يتحوّل خلود الآلهة إلى دراما عندما يتعرّض إلى عصف الموت عن طريق نزول الآلهة إلى العالم الأسفل أو صعود قوى العالم الأسفل إلى الأعلى مثل زو، أساج، لابو، إيرا... الخ.

كذلك يتعرّض خلود الإنسان إلى خلود ساكن سلبي عندما يناله الإنسان تماماً، وقد ناله في كل تراث وادي الرافدين، بشكل مؤكد، إنسان واحد هو أتونابشتم

البابلي، أو زيوسدرا السومري ومعه زوجته وقائد مركبه، وبشكل مشكوك فيه الملك (دموزي) والملك (إنميدر ـ أنّا)، لكن أوتونابشتم ملك شروباك وحكيمها ينال الخلود ويُقصى إلى جنّة الآلهة على الأرض. . إلى (دلمون) البعيدة، هذا الإنسان الذي سيقطع إتصاله تماماً بحياة البشر على الأرض.

إن تعرّض الآلهة إلى حالات الموت أمورٌ أُريد بها التعبير عن واحد من شيئين أما إيقاع الطبيعة الذي يقضي بظهور وغياب رموزها كالقمر والشمس والفصول والأمطار والرياح. . . الخ أو إلى كوارث الطبيعة المفاجئة كالطوفان والزلازل والحروب والأمراض حيث يفلت زمام قوانين الطبيعة التي تمسك بها الآلهة، وفي الحالين نلمح الخروج من المركز الإلهي الساكن إلى المحيط البشري الضاج بالمتحولات. إن خروج الآلهة، من هذا المركز الصارم في سكونه برهةً، سيُنشط حركتهم وسيُضفي الحيوية عليهم، حتى أن عودتهم إلى المركز الإلهي ستكون بمثابة تنشيط المطلق الإلهي ذات الطابع الهيولي الأزلي.

أما نزوع الإنسان نحو الخلود فمتأت من الإشارة إلى عظمته وقوته ورقيّه وقيامه ببطولات كثيرة، لكن البطولات، مهما عظمت، لا يمكن أن تمنح هذا الإنسان خلوداً كخلود الآلهة إلاّ إذا قام بعمل يشبه ما تقوم به من خوارق مثل إنقاذ الجنس البشري على يديّ أتونابشتم كما تقول أسطورة الطوفان. أما الأعمال الأخرى الأقل من هذا المستوى فجدير بها صيغُ أخرى بديلة عن خلود الحياة مثل خلود الذكر والتكاثر والمعرفة وغيرها. وفي جميع الأحوال تتلامس أصابع الآلهة مع أصابع الإنسان في منطقة الخلود حيث تُسلِّمُ أصابع الآلهة نواميس الطبيعة، لبرهة، للإنسان فيخلد، في حين تتعرّض هي إلى مصير يكاد يشبه مصير الإنسان. إن دورَة المصير، بين الآلهة والإنسان، هي في حقيقتها دورةٌ بين الله والنوع البشري ككل لأن ظهور باحثين عن الخلود، في كل العصور، أمرٌ لا بد منه والدافع الفطري إلى الخلود الشخصي أو الرغبة العامة في هذا الخلود يوحيان بأن الغريزة، غريزة ما، ولتكن ما تسمى بغريزة حفظ النوع لها داخلٌ كبير ذلك لأن تحقيق الخلود الشخصي يشبعها، ،(٤)

خلود الآلهة

«إلى أين تسعى يا جلجامش

إن الحياة التي تبغي لن تجد

حينما خلقت الآلهة العظام البشرَ

قدرت الموت على البشرية

واستأثرت هي بالحياة» (٥)

هذه هي النصيحة الموجهة من (سدوري) إلى (جلجامش) وهو في طريق بحثه عن الخلود، وتكاد هذه الحقيقة تكون مطلقة لا يتناقضُ بها التراث الديني والمثولوجي الرافدي، فالآلهة خالدة والإنسان ميتٌ، فقد وجدت الآلهة لتعيش إلى الأبد وتضبطُ مصائر الوجود والعالم والإنسان، وهي الموجود الرئيسي في الكون والحالّة في كل زاوية فيه، أما الإنسان ثانوي على سطح الأرض كجسد وروح مندمجين وكروح محّبوسة تحت الأرض بعد الموت. فمكان الإنسان، في الكون، محدود للغاية أما الآلهة فلها كل أمكنة الكون حتى الأرض وما تحتها، فقد قسّم سكان وادي الرافدين الكون إلى ثلاثة أقسام هي «السماء التي اعتبرت مقر الآلهة والثاني الأرض أما القسم الثالث فهو المابين وهو الذي يفصل السماء والأرض الذي جُسّد بالإله إنليل سيد الهواء. لقد ورد في النصوص المسمارية بأن الأرض تقسم إلى ثلاثة أقسام: الأرض العليا التي يسكن عليها البشر والأرض الوسطى التي اعتبرت مقام الإله (إنكي/ إيا) والأرض السفلى وهي العالم الأسفل أو عالم الأموات» (٦)

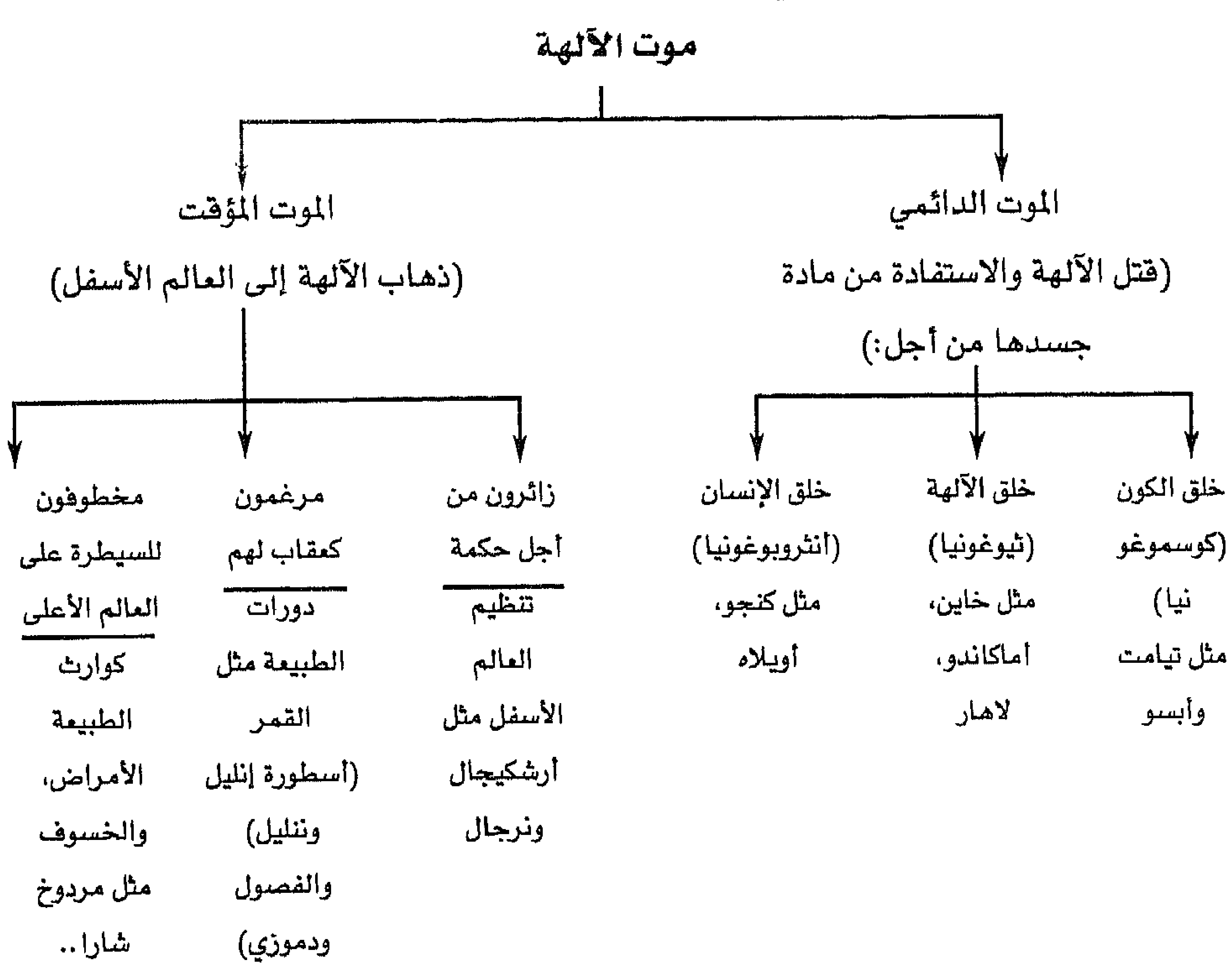
إن الآلهة موجودةٌ بشكل رئيسي في السماء بزعامة آنو (إله السماء) الذي يترأس آلهة المجتمع الإلهي ويتجاوز عددهم بضعة آلاف ويسمون (الإيجيجي)، وله

سلطة رئيسية على مجتمع (الأنوناكي) وهم خمسون إلهاً يقررون المصائر ومقرهم على الأرض يسيطرون على الظواهر الكبرى منهم سبعة آلهة عظيمة تجوب الأرض بهيبة وعظمة لكنّ لها مقرات أرضيّة هي المعابد ومقرات سماوية هي الكواكب. لكن ألمثير حقاً أن الأساطير الرافدية لا تشير إلى وجود فردوس سماوي بل تؤكد على وجود سبع سماوات، ولعلها بذلك تشير إلى أماكن الكواكب السبعة التي يوجد كل واحد منها في سماء. أما الفراديس الإلهية على الأرض فهما فردوسان: الأول هو (دلمون) تلك الأرض التي تقع بعيدة قصية إلى الجنوب الشرقي من أرض الرافدين في الخليج العربي وهي البحرين، وقد ذكرتها الأساطير كأنها راسبٌ ميثولوجي قديم يذكّر بفردوس مفقود وبعصر ذهبي عاشه الإنسان ولذلك قَصَره على الآلهة، فقد عاش فيه الإله إنكي وزوجته ننخرساج وهما خالقا الإنسان ونظيراه من الآلهة وصفاتهما وأسطورتهما تذكّر بما حصل لآدم وحواء. أما الفردوس الثاني على الأرض (فهو (عدن) الذين جاء مطابقاً لما كانت عليه دلمون «ومن المحتمل أن التسمية جاءت من الكلمة السومرية Edin بمعنى السهل أو الأراضي الزراعية السهلة، فبالإضافة إلى هذا المدلول العام يظهر من النصوص السومرية من عصر فجر السلالات الثالث في حدود ٢٤٥٠ ق. م. إن Edin كانت تطلق على المنطقة السهلية الواقعة جنوب مدينة أوما (جوخة) وغربي مدينة لجش وهي المنطقة التي كانت سبب صراع طويل بين هاتين المدينتين كما هو واضح في الوثيقة السومرية التي جاءتنا من إنتمينا أحد أمراء لجش» (٧)

أما العالم الأسفل الذي يناظر الجحيم فتنتشر فيه بعض الآلهة حاكمةً له ومسؤولة عن أرواح الموتى وعن جيش من المردة والعفاريت والشياطين التي تستخدمها في إحكام سيطرتها على العالم الأسفل أو إحداث الأمراض والخراب في العالم الأعلى عندما تريد ذلك، وهكذا فللآلهة كل شيء.. الخلود والكون والمصائر، أما الإنسان فله الموت وسطح الأرض بشروط وما عليه إلاّ طاعة الآلهة. إن هذا الفصل الحاد بين الآلهة والإنسان هو الذي مهّد لتعميق فكرة التوحيد التي تقضي بوجود إله واحد قوي بينه وبين البشر هوّة لامتناهية رغم أنه خالق البشر والمتحكّم في مصير الكون والإنسان.

الآلهة بين الموت والخلود

إذا كنا قد عرفنا طبيعة خلود الآلهة، بصورة عامة، في التراث المثولوجي لوادي الرافدين فإن بإمكاننا التعرّف على العلاقة بين الآلهة والموت أو بالأحرى الحالات التي ماتت فيه الآلهة من خلال قراءتنا للمثولوجيا العراقية القديمة والتي يمكن أن نجملها في المخطط البسيط التالي:



وعلى أساس ذلك يكون موت الآلهة، في بداية الأمر، إما دائمياً أو مؤقتاً وعن هذين تتفرّع أنواع هذا الموت.

الموت الدائمي للآلهة

كان قتل الآلهة أمراً نادر الحصول في الأساطير العراقية القديمة، وقد تبيّن لنا أن قتل هذه الآلهة يحصل بمرافقة شرطين أساسين: أولهما أن هذا القتل يحصل من أجل خلق جديد للكون أو للآلهة أو للإنسان وثانيهما أن مادة أجساد هذه الآلهة لا

تفنى وتنتهي بل تكون مادة أولية للكون أو الآلهة الجديدة أو الإنسان وهذا يعني موت روحها وبقاء جسدها في كيان جديد.

توضح لنا أسطورة الخليقة البابلية الغاية الكوسموغونية (خلق الكون) مما قتل الآلهة الهيولية القديمة حيث يقتل الإله (إيا) أباه الإله (أبسو) ويبني بيته فوق جسده حيث يصبح إيا إله المياه وأبسو إله المياه العميقة، ويسكن إيا مع زوجته (دام كينا) في هذا البيت وينجبا إبنهما البكر الإله (مردوخ) الذي يكبر ويتوّج ملكاً على الآلهة ثم يقوم بقتل الإلهة الأم (تيامت) ويصنع من جسدها السماء والأرض والتضاريس والأنهار وغيرها.

وهكذا يتضح لنا أن أجساد الآلهة المقتولة صارت مادة لصنع الكون الجديد.. أي تحول فيها العماء إلى كون مميّز.

أما خلق الآلهة الجديدة (ثيوغونيا) من آلهة قديمة فيظهر ذلك بوضوح في أسطورة خليقة أخرى هي أسطورة (دنّو) الخاصة بأصل الآلهة وهي واحدة من أهم الأساطير التي أثرت على أساطير أصل الآلهة الإغريقية ويظهر في هذه الأسطورة أن الآلهة والعالم وجدا أولاً مع ظهور الإله (خاين) والإلهة الأرض اللذين أنجبا الإله (أماكندو) وهو إله الحيوانات المتوحشة وإلهة البحر. ويقوم (أماكاندو) بقتل أبيه (خاين) ويتزوج من أمه الإلهة الأرض، ومن زواجهما ينتج زوج جديد من الآلهة هما لاخار إله المواشي وإلهة النهر. ويقوم لاخار بقتل أبيه أماكندو والتزوّج من أمه إلهة البحر وهكذا.(8)

وهكذا وجدنا أن هذه الآلهة تقتل لتترك مكانها لآلهة جديدة وبذلك يكون موتها ضرورياً لاستمرار نسل الآلهة الجديدة.

أما الغاية الأنثربوغونية (خلق الإنسان) فتحيلنا أسطورة الخليقة البابلية إلى عملية خلق الإنسان من دم (كنجو) الإله المعاقب ممزوجاً بالطين، وهناك أسطورة أخرى تذكر أن الإله إنليل اختار مع الإله إنكي والإلهة (ماما) أحد الآلهة الصغار المحتجين أو المعارضين الذي كان اسمه (وي) أو (وي-إيلا) ليذبح ويخلط لحمه ودمه بالتراث، وهناك أسطورة أخرى تقرر أن الإله إنليل يقوم بأمر من آلهة الأنوناكي

الموكلة بالسماء والأرض بذبح عدد من الآلهة المسماة (لامكا) وهي آلهة البناء والعمل في منطقة (أوزموا) في مدينة (نيبور) ليخلقوا البشر.[٩]

وبشكل عام نرى أن الآلهة تموت أو تقتل ولكنها لا تزول نهائياً بل تبقى في عناصر الطبيعة (الكون، الآلهة، الإنسان) مستمرةً، فالغاية من موتها هي ظهور نسل جديد نشط من الآلهة يحكم سيطرته على الطبيعة أو يخلق من بقايا الآلهة القديمة أو خلق الإنسان الذي سيقوم بدوره بخدمة الآلهة ويساعدها على أعمالها، أي أن التضحية بالآلهة كان يجري لخدمة الكون والطبيعة والخلود ولا يجري تعسفاً أو خطأ حيث تتحوّل الآلهة القتيلة إلى شيء أو هيئةٍ أخرى في الطبيعة وهذا لا يعني زوالاً أبدياً لها.

الموت المؤقت للآلهة

رغم أن العالم الأسفل هو عالم الموت إلاّ أنه جزءٌ من الكون الذي خلقته الآلهة والذي يجب أن تفرض عليه حكمها وسيطرتها، وهناك آراء تقول أن العالم الأسفل ما هو إلاّ الشكل اللاحق لعالم الآلهة الميّتة المقتولة القديمة(مثل تيامت وأبسو) والتي تحولت بفعل الزمن إلى عوامل شريرة ظهرت منها الأمراض والكوارث بل والموت، لكنّ الآلهة الجديدة لا بد أن تحكم هذا العالم وإلاّ انفجر عليها بالموت في أي وقت.

كان الآلهة يذهبون إلى العالم الأسفل لأسباب مختلفة ولفترات مختلفة. ولذلك انقسمت أنواع الموت المؤقت للآلهة حسب هذه الأسباب والفترات في الأسطورة السومرية القديمة للإله (كور) واختطافه للإلهة أريشكيجال يقوم هذا الإله (الذي يعني اسمه الجبل أو الشرق أو العدو) باختطاف الإلهة الصغيرة السن أريشكيجال أخت الإلهة إنانا من العالم العلوي إلى العالم السفلي وتبقى هذه الإلهة هناك ثم تتحوّل إلى حاكمة إلهية عليه ثم تقوم هي باختيار زوج لها من العالم العلوي هو الإله (نرجال) في أسطورة طريفة وتُنزله إلى العالم الأسفل ليقاسمها مُلك هذا العالم، وهذان هما الإلهان الوحيدان اللذان يقضيان كلّ حياتهما في

العالم الأسفل كملكين مع نسل متصل من أبنائهما وأحفادهما من آلهة الطب والشفاء وبرفقة شياطين العالمِ الأسفل الذين يسببون ، الأمراض والأوبئة . . وبذلك يصبح نسل آلهة العالم الأسفل ضد المرض وتلتئم معادلة العلاقة بالإنسان ، فالآلهة العليا تمنحه الحياة والقوة ، والعمل والآلهة السفلى تمنحه الشفاء الذي هو نوع من أنواع الحياة والبقاء .

الموت المؤقت للإلهين نرجال وأرشكيجال هو موت كاذب فهما يذهبان إلى هناك مخطوفين في بداية الأمر ثم يتوليان حكم العالم الأسفل وإدارته . أما الموت المؤقت الفعلي للآلهة فإنه يفسّر لنا مثولوجيا دورات الطبيعة الشهرية والفصلية والسنوية وبعضها الآخر يفسّر كوارث الطبيعة . وتتميّز أساطير الموت المؤقت للآلهة بحيويتها ودراميتها بل أن هذه الأساطير كانت المادة الأولى لظهور فن الدراما الجماعية أو المسرح القديم لما تتضمنه من عناصر صراع واضحة ومميزة .

إن أساطير الدورات الطبيعية الشهرية تتمثل في واحدة من أعرق وأقدم الأساطير السومرية وهي أسطورة (إنليل وننليل) التي تفسّر ولادة القمر الشهرية حيث ينزل إنليل وتنزل بعده ننليل وتحمل في بطنها جنين القمر (الإله نانا) ثم تحمل بعده بإلهين آخرين، وبعدها يتم تحرير إنليل وننليل والقمر من العالم الأسفل بينما يبقى الإلهين الآخرين في العالم الأسفل شرط أن يتردد القمر في نهاية كل شهر على العالم الأسفل ليتم تحريره بعد ثلاثة أيام من نزوله هناك . أما الأسطورة التي تفسّر الدورة السنوية للطبيعة وحلول الفصول الأربعة فهي أسطورة نزول إنانا أو عشتار إلى العالم الأسفل يتبعها نزول دموزي أو تموز إلى هناك .

كذلك يفسّر لنا الموت المؤقت بعض كوارث الطبيعة مثل أسطورة (إيرا ومردوخ) التي تشير إلى اختطاف مردوخ العجوز إلى العالم الأسفل واضطراب نواميس الطبيعة ، وهذه الأسطورة تنقل محتواها إلى عيد رأس السنة البابلي (أكيتو) حيث تُمثل فيه لتوحي بالاضطراب الحاصل في نهاية سنة وتمثل عودة مردوخ بدايةً جديد تعود فيها الحياة إلى ما كانت عليه متنشّطة قوية جديدة . ويفسّر هذا الاختطاف حصول الكوارث والأوبئة وتفسّر عودته عودة الحياة الطبيعية .

وهناك مجموعة أخرى من الأساطير التي لا تتضمن نزول آلهة إلى العالم

الأسفل بل خروج كائنات سفلية واشتباكها مع آلهة علوية، هذه الأساطير هي (ننورتا وآساج، تشباك واللابو، شارا وزو) وتتضمن جميع هذه الأساطير مادة درامية خصبة تشير إلى انخطاف سريع للآلهة وانشغالها بمحاربة كائنات سفلى.

إن موت الآلهة الدائمي أو المؤقت أو اختطافها أو نزولها إلى عالم الموت أو اشتباكها مع الموت لا يشير إلى صفة دائمة للآلهة بل ليفسّر ظاهرةً كونية، وبذلك تنسجم أساطير موت الآلهة مع أساطير خلودها إنسجاماً يدعو إلى الدهشة ويشير إلى بنية عقلية محكمة كان يتمثلها الإنسان العراقي القديم في نظرته إلى الآلهة والإنسان في موضوعي الموت والخلود. ويختلف التراث الرافدي عن التراث المصري في هذه المسألة في عدم جعله البشر يتشابهون مع الآلهة في مسألة الخلود، ويختلف عن التراث الإغريقي في عدم جعله الآلهة يتشبّهون بالبشر في الموت وجوانب الحياة الأخرى، وتبقى خصوصية هذا التراث في انسجامه مع الجوهر الذي انطلق منه.. ذلك الجوهر الواقعي المصطرع الذي يعيش فيه بيئياً واجتماعياً، وقد أكسبت القوى الدرامية الكثيرة هذا التراث خصوبة وحيوية ونضارة يندر وجودها بالإضافة إلى أصالته وبكارته فهو التراث الأسبق في طرح مشكلات الموت والخلود والمعرفة وغيرها..

إن موت الآلهة الدائمي والمؤقت لا يشبه مطلقاً موت الإنسان أو نزوله إلى العالم الأسفل في المثولوجيا العراقية القديمة فهو موتٌ متحرّك يشبهُ محاولات الإنسان لنيل الخلود، في حين يشبه خلود الآلهة موت الإنسان الأبدي.

خلود الإنسان

ظهر في العصرشبه الأسطوري قبل الطوفان والعصر البطولي بعد الطوفان، في التراث السومري، مجموعة من الملوك والحكماء والأبطال الذين سعوا إلى الخلود وحاولوا نيله. ففي العصر شبه الأسطوي قبل الطوفان نلمح ثلاث شخصيات شبه أسطورية تحاول نيل الخلود وهم على التوالي (آدابا، إنميدر ـ أنّا ، أوتونابشتم) أما شخصية (دموزي) فنرى أنها أسطورية فهو إله الخضار والمراعي وقد تحدّثنا عن موته المؤقت ونزوله أثناء الصيف إلى العالم الأسفل. ولذلك فإننا سنستعيدها عند الحديث عن محاولات نيل الخلود عند البشر قبل الطوفان رغم أنها ذكرت في قوائم الملوك السومريين.

تكاد شخصية (آدابا)تطابق شخصية (آدم)، وتشير قصة آدابا إلى نقاط مشتركة عديدة مع قصة آدام. ولا نريد سرد القصة هنا و لكننا نشير إلى محاولة آدابا، الإنسان الحكيم في أريدو ، الصعود إلى السماء وقيام ثلاثة من الآلهة : (إيا) على الأرض، و (تموز وكزيدا) في السماء بغشه ومنعه من تناول شراب وطعام الخلود. (١٠)

الشخصية الثانية الباحثة عن الخلود هو الملك السومري (إنميدر ـ أنّا) ملك سبار «الذي استُدعي إلى حضرة الآلهة، ولكن هذا لا يعني أنه نال الخلود وإنما كان استدعاؤه لتسليمه أسرار فن كهانة الفأل أو العرافة Baru فقط، حيث أنه كان واحداً بين سبعة ملوك قدامى ذُكر عنهم في أحد النصوص بأنهم تسلّموا (سرّ آنو) لوح الآلهة، لوح الفأل، أسرار الفأل، أسرار السماء والأرض وأنه علّمها إلى إبنه مما يدل بوضوح على أنه نفسه لم يكن يتوقع أن يبقى خالداً في الحياة ولذلك ورّث ما يعرفه إلى إبنه» (١١)

لقد كانت المعرفة بديلاً عن الخلود عن الملك السومري (إنميدر ـ أنّا) وربما كان ذلك يعني أن المعرفة هي مفتاح الخلود أو أحد أوجهه.

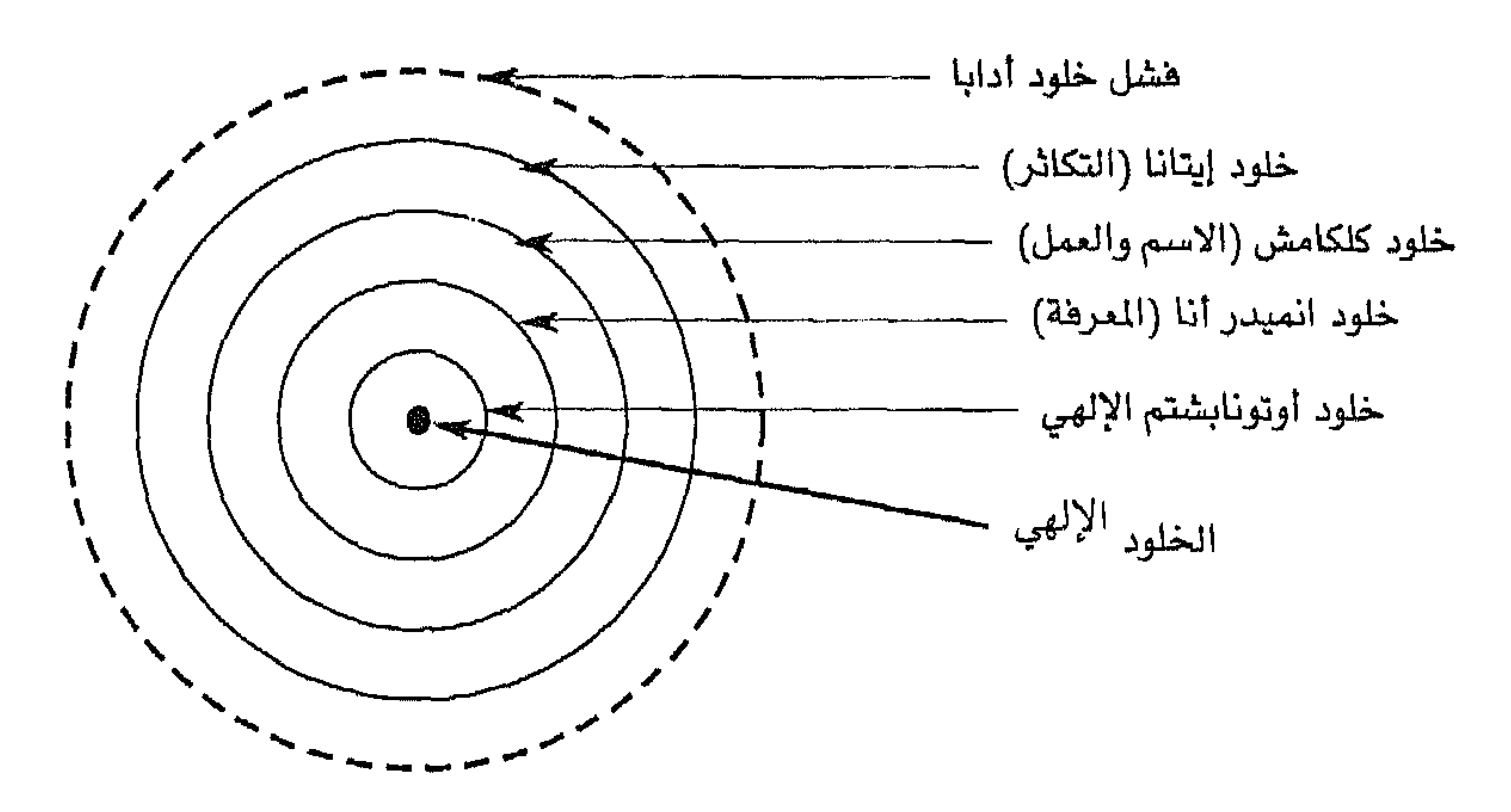
أما الملك الثالث الذي لا يشوبُ خلوده شيء فهو (أوتونابشتم) أو (زيوسدرا) وهو آخر الملوك الأسطوريين قبل الطوفان، حيث توضّح لنا ملحمة جلجامش حصول هذا الملك على الخلود وعيشه بعيداً عن الإنسان عند فم الأنهار في دلمون، وهو الإنسان الوحيد، مع زوجته وقائد مركبه، الذي نال الخلود لكنّ أوتونابشتم عندما حصل على الخلود لم يعد بإمكانه العيش مع الناس أو حكمهم بل أصبح بعيداً عنهم ولكنه قرب مركز الخلود الإلهي في جنة إلهية لا يصل إليها البشر هي (دلمون) الجزيرة الواقعة وسط الخليج. وأصبح أوتونابشتم يعيش وحدة قاسية بعيدة إذ لم يصل إليه مغامرٌ من البشر سوى جلجامش، بعد أهوال ومصاعب كبيرة، ووجده ساكناً لا حول له ولا قوة سوى ذلك الأبد الذي لا يعرف ماذا يفعل به. ثم أن أوتونابشتم كان يجهل سر الخلود الذي منحته له الآلهة فهو لم يعرف كيف يدلّ جلجامش عليه لأنه لا يعرفه، أما عشبة الخلود التي أعطاها لجلجامش فقد كانت هي الأخرى تمويهاً خادعاً لجلجامش لأنها لا تعطي الخلود، بدليل أن الأفعى عندما تناولتها لم تمنحها الخلود أو الشباب لكنها كانت تعطي انطباعاً كاذباً عن تجديد شبابها عند تبديل جلدها الدوري بعد كل سبات، وربما أعطت الأفعى والعشبة معها انطباعاً عن إمكانات الشفاء من الأمراض كالشيخوخة وتجعد الجلد، وربما كان هذا سبب اعتبار الأفعى رمزاً للطب والعشب رمزاً للصيدلة. لقد اختار أوتونابشتم حلّ الخلود الساكن الإلهي لكنه فقد في الوقت نفسه السعي نحو الخلود وعناصره البشرية الدرامية وسلبه هذا الخلود إمكانية معرفته الدقيقة بسرّ الخلود فاختار معرفة كاذبة أو شكلية في عشبة الخلود وفي قشرة الأفعى.

أما في عصر البطولة السومري، بعد الطوفان مباشرة، فنرى في سلالة كيش، وهي الأولى بعد الطوفان، مغامرة البحث عن الخلود عند (إيتانا) ملك كيش فهو يصعد إلى السماء ويجلب نبات الولادة من الإله (آنو) ويتعالج به فينتهي عقمه ويلد ولداً، وهنا يظهر الحلّ العقلاني الثاني البديل عن الخلود، فالخلود يستمر في الأبناء والتكاثر لأنه سيحمل ذريّة الإنسان إلى المستقبل، لكنّ جلجامش يعطي حلاً أرقى

وأشد عقلانية وقوة وهو بقاء الذكر عن طريق العمل الصالح بعد أن يثبت في رحلته للبحث عن خلود الجسد البشري استحالة حصول الإنسان، مهما كان بطلاً أو فيه مسّ إلهي، على الخلود الجسدي وأن الخلود الحقيقي يكمن في العمل الذي يُعلي ذكر الإنسان واسمه بين الناس، ولعلّ جلجامش كان قد أعطى حلاً مشابهاً لخلود الذكر عندما ذهب هو وصديقه أنكيدو إلى غابة الأرز ليضع إسمه في سجل الآلهة. والأبطال الخالدين، وكان الخلود عبر الإسم هو أحد المعتقدات الرافدية الأساسية، فالوليد الحديث يعطى إسماً مباشراً، بعد ولادته، ليبقى إسمه هذا يتردد على الألسن وربما عبر التاريخ حتى إذا مات مبكّراً، وتعتبر عقيدة الخلود عبر الإسم أساسية في واحدة من وجوهها الذي يشبه بقاء الإسم في سجل الآلهة والأبطال الخالدين وهو ما فعلّه جلجامش قبل أن يهتدي إلى الخلود عبر الأعمال الصالحة.

إن جلجامش ينتمي إلى سلسلة من أبطال وملوك أوروك بعد الطوفان وهم (مسكي كاشر، إنمركار، لوجال بندا ثم جلجامش) كلّ هؤلاء كانوا مغامرين وبحثوا عن البطولة والحكمة إلاّ أن جلجامش استطاع التفوق عليهم بعظمته ومغامراته الاستثنائية فقد وصل إلى دلمون ورأى أوتونابشتم ولكنه رغم طبيعته الشبه إلهيه (حيث أن ثلثيه من الآلهة) لكنه لم يستطع الحصول على الخلود. وهكذا تكون ملحمة جلجامش قد توصلت إلى أن الخلود يكمن في أعمال البطولة والحكمة والقدرة على عبور الأهوال، وأخيراً فإن أعماله العظيمة ستبقى مذكرةً به عبر اسمه.

يمكننا بعد بحثنا في أهم الشخصيات الرافدية الباحثة عن الخلود وضع نتائج بحثها في الشكل المرسوم حسب الأهمية والاقتراب من جوهر الخلود، فإذا وضعنا الخلود الإلهي في مركز دائرة البحث عن الخلود باعتباره أبعد وأعمق نقطة في هذا السعي فيمكننا أن نضع دائرة أوتونابشتم حوله باعتبارها متحقّقة فيه تليها دائرة إنميدر ـ أنّا (دائرة المعرفة) تليها دائرة جلجامش (الاسم والعمل) تليها دائرة إيتانا (دائرة ا لتكاثر) ثم دائرة أدابا (فشل الخلود) أو (السعي نحو الخلود دون تحقيق نتيجة) وهي أبعد الدوائر «أنظر المخطط (١)».



مخطط (١)

يوضّح تدرّج أنواع الخلود أثناء الحياة في التراث الرافديني

إن عناصر الخلود الرافدي تنتقل بأكملها إلى التراث التوراتي بطريقة تكاد تكون متشابهة، ففي «الرواية التوراتية عن الفردوس الأول وسقوط الإنسان التي استلهمت روايات دينية أقدم، نجد أن الموت يظهر إلى الوجودفي نفس الوقت الذي يكتشف فيه الإنسان الفعل الجنسي الذي بواسطته يبتكر الحياة. ومع اكتمال هذين الضدّين المتعاونين يدخل الإنسان في الزمن المادي ويهبط إلى الحضارة ليبتدئ الحضارة، لقد جلب آدم وحواء على نفسيهما الموت بعد أكلهما من ثمرة الجنس المحرّمة ولكنهما قد اختارا لذريتهما من الجنس البشري نوعاً آخر من الخلود، هو خلود النوع الناجم عن دينامية ا لمتناقضات لا خلود الفردوس الساكن الذي يشبه العدم» (١٢)

وإذا كان الخلود الإلهي مستحيلاً على البشر فقد أعطى التراث الرافدي حلولاً أخرى للخلود عن طريق المعرفة أو العمل أو التكاثر، وهي الحلول الواقعية التي يعمل بها الإنسان المعاصر لكي يضمن خلوداً ما، فحلُّ التكاثر، وهو حلّ شعبي، يمارسه الناس غريزياً لبقاء الذرية والنسل وحفظ النوع البشري، وكذلك الإسم. أما العمل الصالح فهو حلّ يسعى إليه الناس القادرون على تقديم عمل نافع ومفيد يُذكرون به. وحلّ المعرفة هو حلّ خاص تسعى إليه نخبةٌ من الناس العلماء

والحكماء والمتبصرين لتقدّم إلى الإنسان ما عجز عنه العمل والتكاثر .

وتتضمن جميع هذه الحلول نوعاً من المعاناة والحيوية والنشاط الذي يتحقق بعدها هذا النوع أو ذاك من الخلود . ولو نظرنا بعمق إلى هذه الحلول أو العناصر لوجدنا أنها وجدت في الفردوس متجاورة مع بعضها ، ففي جنة عدن التي ذكرت في التوراة ، والتي كانت تشير إلى مكان ما في جنوب وادي الرافدين ، هناك شجرة الحياة المحرّمة (وهي شجرة الخلود) وهناك (شجرة المعرفة) التي تفتح البصر والبصيرة ، وكان آدم قد سمّى الأشياء كلها حتى يحددها ويعرفها . لقد كانت هذه عناصر الخلود في الجنّة الإلهية الساكنة ، ولكن ما أنّ حلّ العقاب الإلهي بآدم لأنه أراد معرفة سرّ شجرتي الحياة والمعرفة حتى ظهر سعي آخر نحو الخلود عبر (التكاثر والعمل) فقد أصبح التكاثر بديلاً عن شجرة الحياة وأصبح العملُ بديلاً أو طريقاً إلى المعرفة ، وعرف آدم وحواء الجنس وبدأت (بعد طردهما من الفردوس) مرحلة الحمل والنسل رغم تضمنه الألم كنوع من العقاب ، وكذلك كان العمل عقاباً لآدم لكي يستمر في الحياة . وهكذا كان العقاب الإلهي القاضي بمنع منح الخلود الإلهي فاصلاً باتجاه خلود إنساني من نوع آخر عبر العمل و التكاثر ، وبذلك ضمّ التراث الرافدي عناصر الخلود كلّها (الحياة الأبدية ، المعرفة ، الإسم ، العمل ، التكاثر) وستكوّن هذه العناصر فلسفة الخلود الرافدي في العراق القديم ولا يمكن بدونها التعرّف عليه .

في مقارنة سريعة بين التصورات والحلول التي قدّمتها الحضارتان العراقية والمصرية نجد أن الحضارة المصرية قدّمت حلولاً أكثر خيالية وأقل واقعية في حقلي حياة ما بعد الموت والخلود . فقد حفل التراث المصري باهتمام قلّ نظيره لحياة ما بعد الموت للملوك أو لعامة الناس فهي حياة مكملة للحياة الدنيا وليس هناك إلاّ حاجز الموت الرقيق الذي يعني ببساطة تعرض الإنسان لمحاكمة شاملة لأعماله يقوم بها أوزريس وحاشيته فأما أعمال سيئة يعاقب عليها بالتدّمير منّ قبل مردة العالم الأسفل أو أعمال جيدة يكافأُ عليها بالعيش في فردوس العالم الأسفل مع أرواح الخيّرين أما الملوك فلهم فردوس سماوي شمسي يعيشون مع الآلهة مباشرة بعد الموت .

وهكذا يمكننا القول أن التراث المصري لم يناقش الخلود أثناء الحياة ولم يفكّر به، بل اقترح له شكلاً بعد الموت. وهو عكس ما فعله التراث العراقي الذي أهمل الخلود بعد الموت واقترح أشكالاً للخلود أثناء الحياة، وبكلمة أدق قبل الموت.

والحقيقة أن سبب هاتين الطريقتين المتناقضتين في التفكير له علاقة أكيدة بطريقة النظر إلى الملك والملوكية، فالعراقيون القدماء كانوا يرون أنّ الملوكية تنزل من السماء على مدينة أو شخص ليحكم كنائب بشري للإله على الأرض. أما المصريون القدماء فكانوا يرون أنَّ الملك أو الفرعون هو إله هبط من السماء، أو من مجمّع الآلهة، ليحكم على الأرض بين البشر بالعدل والمساواة، وما أن تنتهي مهمته فإنه يعاود الصعود إلى السماء ليلتحق بالآلهة مباشرة، وهو ما دفع المصريون لاختراع سيناريو الخلود للملوك بعد الموت وهو سبب ظهور التحنيط لأجساد الملوك، في بداية الأمر، خوفاً على أجسادهم الإلهية من التلف لكي تلتحق بأرواحها بعد الموت.

أما الفكر العراقي القديم فقد ظلّ متوازناً لأنه كان يرى في الملك شخصاً عادياً آيلاً إلى الفناء والزوال. ولذلك تركّز الجهد الفكري والثقافي والعملي لإيجاد الخلود قبل الموت ولـمّا اصطدموا بقوة بصخرة الموت اقترحوا بدائل للخلود كما عرفنا.

وبذلك تكون الديانة اليهودية، من خلال أسفارها التوراتية، قد جمعت بين النقيضين العراقي والمصري. فهي تذكر في بداية سفر التكوين عناصر الخلود الرافدي بطريقة قصصية جديدة (آدم وحواء). وتحتفظ بقصائد الأسكاتولوجيا البشرية وعقائد ما بعد الموت في رسمها للطريقة التي سيكون عليها المتوفي بعد الموت. فهي تعيد انتاج أساطير الخلود الرافدية في قصة آدم وحواء وتعيد ترتيب سيناريو الاسكاتولوجيا المصرية في عقائد ما بعد الموت.

والحقيقة أننا نلمح الجذرين الرافدي (في موضوع الخلود) والمصري (في موضوع الاسكاتولوجيا) في تراث الأمم القديمة كلّها بطريقة أو بأخرى وربما احتجنا إلى الكثير من البحوث المقارنة الدقيقة لمعرفة الاتصال الحضاري في هذا الموضوع.

مراجع الفصل الأول / من الباب الأول

١. عـــويس، ســـيـــد : الخلود في التراث الثقافي المصري، دار المعارف بمصر، القاهرة ١٩٩٦ ص ٥٤

٢. فـــرويلـيش، ج. س : ديانات الأرواح الوثنية في أفريقيا السوداء. ترجمة يوسف شلب الشام ط١، دار المنارة للدراسات والترجمة والنشر. اللاذقية ١٩٨٨ ص ١١٢.

٣. عـــويس، ســـيـــد : المرجع السابق

٤. نفـــســـه ص ٥٨

٥. بـاقـــــر، طـه ملحمة جلجامش، منشورات وزارة الثقافة والإعلام ـ الجمهورية العراقية، بغداد ١٩٨٠ ص ١٣٥

٦. ســعــيـــد، د. خليل : معـالم من حضارة وادي الرافدين، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالدار البيضاء. ٢. الدار البيضاء ١٩٨٤ ص ١٢٤.

٧. علي، د. فـاضل عـبـد الــواحـــد من ألواح سومر إلى التوراة، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد ١٩٨٩ ص ٢٥٥.

٨. حـــنـــون، نـــائـــل : عقائد ما بعد الموت في حضارة بلاد وادي الرافدين القديمة، دار الشؤون الثقافية العامة، ط٢ ١٩٨٦ ص ٨٥

٩. رشـــيـــد، د. فـــوزي خلق الإنسان في الملاحم السومرية والبابلية مجلة آفاق عربية العدد ٩ السنة ٦ أيار، بغداد ١٩٨١ ص ١٩

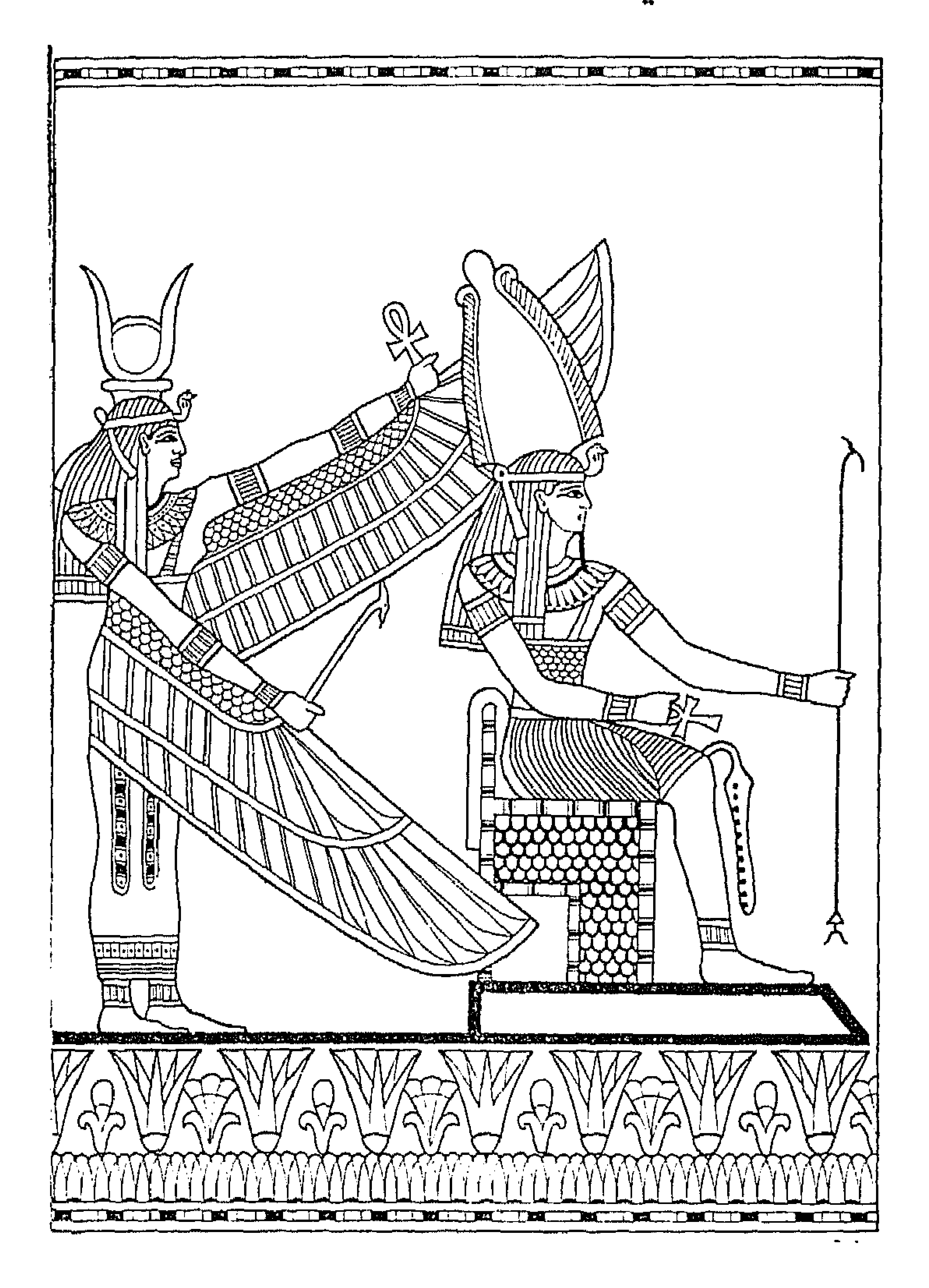
١٠. لابـات، ريـنـيـــه المعتقدات الدينية في بلاد وادي الرافدين (مختارات من النصوص البابلية، ترجمة البير أبونا ود. وليد الجادر، جامعة بغداد، بغداد ١٩٨٨ ص ١٧٤٤

١١. حـــنـــون، نـــائـــل : المرجع السابق، ط٢،

١٢. الســـواح، فـــراس : لغز عشتار، ط٢، دار غربال، ط٢، دمشق ١٩٨٦ ص ٢٠٦.

الفصل الثاني

مثولوجيا الخلود بعد الموت
في حضارة وادي النيل



الملك متوجاً كأوزيريس وتحميه من الخلف الإلهة إيزيس

يقع الباحثون في خطأ فادح عندما يصفون عقائد ما بعد الموت المصرية بـ (عقائد الخلود) فهي في حقيقة أمرها نوع من الإسكاتولوجيا. و الإسكاتولوجيا Eschatolo-gy هي دراسة عقائد الموت، أي ما يعتقده الإنسان عن الموت ويشمل ذلك عقائد وطقوس وأساطير قبل الموت وبعده، وتشكّل الإسكاتولوجيا واحدةً من أسس أي دين سواء كان في فترات ما قبل التاريخ أو الحضارات التاريخية.

تتناول الإسكاتولوجيا موضوع نهاية (موت) الكون والآلهة والناس وهناك من يرى أن نهاية العالم تأتي في العصر الحديدي عندما يحلّ العصر الأسطوري الشتوي (أساطير الشتاء). وهكذا تدخل مثولوجيا الشتاء الكوني لتعبّر عن اسكاتولوجيا العالم. وتختلف شعوب العالم في تصوراتها لنهاية العالم فمنهم من يرى أنه سينتهي بالحريق الشامل مثل الأزتيك (المكسيكيون القدماء) ومنهم من يرى أنه سينتهي بالعاصفة الكبرى مثل الأموريين والآراميين وبعضهم يرى أنه سينتهي بتشقق الأرض وتحطمها، ومنهم من يرى نهايته بالماء (الطوفان) مثل السومريين.

أما نهاية (موت) الإنسان فهناك عدة سيناريوهات اسكاتولوجية وضعتها الأمم القديمة لعل أقدمها وأكثرها عراقة وعمقاً هو التصور المصري القديم الذي يرى في عالم ما بعد الموت عالماً مكمّلاً لعالم الدنيا. ولذلك سنقوم بعرض سريع لمفاهيم الخلود والإسكاتولوجيا المصرية وتكوين عالم ما بعد الموت عند المصريين القدماء.

خلود الآلهة وخلود الفرعون

فسّر بعض العلماء معنى كلمة نتر Neter المصرية الدالة على الإله بأنها تعني التجدد، وأن فكرة بقاء الله حيّاً وخالداً عن طريق التوالد والاستمرار الذاتي كانت ملهمةً في اتخاذهذه الكلمة دالة على الإله وقد ذكرت هذه الكلمة مرتبطة بوجود خالد وشخص يخلق نفسه وينتج نفسه، حيث كان هذا الكائن يخلق نفسه بالفطرة وهي توحي بذاتّية الخلق والقدرات الخاصة بتجديد الحياة للأبد وذاتية الإنتاج وكانت تشير إلى كائن له القدرة على إنتاج الحياة وصيانتها عندما تتوالد. [١]

ورغم تعدد الآلهة المصرية وتدرجها من آلهة كونية كبرى إلى آلهة أقاليم وآلهة شخصية وغيرها إلاّ أن كلمة (نتر) أو (الألوهية) هي الإسم الذي كان يصف أي واحد من تلك الآلهة مهما كان اسمه كما استعملت لتصف كل سمة ربانية. ومن الطبيعي أن تستعمل هذه الكلمة لتصف كلّ إله على حدة دون تكّرار إسّمه، وسرعان ما أدّى هذا الاستخدام إلى فكرة وجود قوة إلهية مستقلة اشترك فيها كلّ إله، ولكها رفعت قدر هذه الأشكال المتعددة لأنه أمكّن استعمالها لكلّ واحد منه بغضِّ النظر عن حدودهم. [٢]

لكن المدهش في الأمر أن الآلهة عند المصريين ليست خالدةً بالضرورة فرغم أن صفة الخلود تبدو طاغية على الآلهة لكن «الإله المصري القديم كان يولد ويعاني ويموت مثل الإنسان وهو هالك وغير متكامل وله عواطف وفضائل وغرائز وبدائل»[٣] وبذلك نستطيع القول أن عوالم الآلهةً والكون والإنسان عوالم مفتوحة على بعضها وهي، جميعاً، معرّضة للخلود والفناء، وفي هذه النقطة يكمن الاختلاف الجوهري بين الفكر المصري القديم والفكر العراقي القديم حول مسألة خلود الآلهة والإنسان.

ولعلّ أسطورة أوزيريس الشهيرة خير مثال على موت الإله وذهابه إلى العالم الأسفل ليحكم مملكة الأموات هناك، فهي توضّح كيفية قتل هذا الإله من قبل أخيه (ست) وذهابه إلى عالم الموت. لكن الحاجز بين عالم الأحياء وعالم الأموات رقيق جداً عند المصريين القدماء.

والحقيقة أن موت الإله لا يعني موت الألهوية (نتر) لأن اختفاء إله معيّن يعوّض عنه بإله آخر ولا ضير في ذلك لأن توازن الحياة والموت يبقى قائماً في هذه الحالة. وهذا ما يفسّر أيضاً ظهور الآلهة بمظهر آلهة أخرى مثل (حورس) بمظهر (أوزيريس) أو (رع) بمظهر (آمون) وغيرها..

ويؤشر هذا أن الألوهية، وليس الإله، هي التي لا تفنى ولذلك كان هناك ميل واضح إلى تجسيد الألوهية أحياناً في إله واحد إذ «لا سبيل لإنكار أن مصر قد عرفت في مختلف عصورها عقائد تدعو لعبادة آلهة متعددة نشأت عن الديانات المختلفة التي احتفظت في حالة التوحيد بالاختلافات الأصلية التي كانت في عبادات ما قبل التاريخ، مع وجود اعتقاد عام لا يتناقض إطلاقاً مع عمومية ووحدة كائن إلهي لا إسم ولا شكل له ولكنه يضمّ كلّ شيء»[٤]

أما الفرعون فلم يكن إنساناً بالمعنى المعروف ولم يكن ملكاً نائباً عن الإله بل هو إله بمعنى الكلمة، لكن هذا الإله صاحب مهمة أرضية تفرض عليه أن يتجسّد على شكل إنسان ليحكم الناس بالعدل ثم، بعد أن تنتهي مهمته، يعود إلى مجمع الآلهة ويعيش معهم.

لقد كان الفرعون إبن الإله (رع) من جهة وهو الإله الملك حور أو حورس الذي هو الإله الشمس الذي يهبُ الحياة والطاقة والنور من جهة أخرى، وكان الفرعون إلهاً في الحياة أي ابن (رع) وإلهاً في الموت حيث يتحول إلى أوزيريس عندما يموت ويبقى في جنة العالم الآخر بصفة الإله الحاكم للموتى (أوزيريس).

وكلمة فرعون تصحيف عبري للكلمة المصرية القديمة (فير ـ أ) أو (بير ـ أ Per - a) التي تعني (البيت العظيم) وهو المكان الذي يعيش فيه الرعية ويلجأون إليه. وكان المعنى العميق لهذه الكلمة هو (الذي يعيش فيه الناس) أي (العالم) أو (الكون)

ويأتي هذا التفسير معززاً لفكرة الألوهية التي ارتبطت بالفرعون.

ويرى والس بدج أن الملك كان منحداً من إله حكم على الأرض فهو إله بالرغم من أن له جسماً من لحم ودم. وكانت أعمال ومشيئة وأفكار الفرعون هي أعمال ومشيئة وأفكار الإله. وكان يحضر مراسيم تقديم القرابين له كإله، بل وأن بعض الفراعنة مثل امنحوتب الثالث بنوا لنفسهم ولزوجاتهم معابد كانوا يتعبدون أنفسهم فيها. (٥)

والفرعون يموت، مثل بقية الآلهة، ولكنه لا يفنى بل يدخل إلى عالم القبر مؤقتاً والذي يكون على شكل مصطبة عظيمة أو هرم عظيم. ولا يمر الملك بمرحلة الحساب بل يلتحق مباشرة بواسطة مركبه الشمسي مع إله الشمس (رع) الذي يدور كل يوم في مثولوجيا اسكاتولوجية في السماء العليا أثناء ساعات النهار وفي السماء السفلى أثناء ساعات الليل وهكذا.

وأحياناً تغالي نصوص التوابيت في أهمية الملك المتوفي ولا تساوية بالآلهة أو تفضله عليها فحسب بل تجعله كصائد يتصيّد النجوم ويلتهم الآلهة المجدين فيعيش على آبائه ويتغذى بأمهاته فيطبخهم في قدور ويأكل في الصباح كبارهم وفي المساء أواسطهم وفي العشاء صغارهم أما الشيوخ والعجائز من الآلهة فيكونون وقود هذه القدور، وهكذا يبتلغ الملك الميت أرواحهم ويأكل قلوبهم وتيجانهم وسحرهم وقوتهم وعقولهم وبذلك يشبع جسمه بالآلهة فيصير أعظم منهم جميعاً، مثل الملك يونس (يؤانس) (٦)

يظهر لنا الفرعون، من خلال المدوّنات المصرية، كإله نشط في الأرض وفي السماء وقد لا يعادله أي إله. وفي نهاية الأسرة الخامسة ضغطت عقائد أوزيريس على عقائد (رع) وأصبح الملك المتوفي أوزيريس نفسه وصار صورة لـ (شمس الليل).

الانثروبو ـ سكاتولوجيا
عقائد ما بعد موت الإنسان

تسمى عقائد ما بعد الموت، إجمالاً، في التراث المصري بـ (العقائد الجنائزية) التي تشكل العمود الفقري لفكرة خلود الإنسان بعد الموت وبقائه حياً بروحه وجسده في عالم الآخرة (الدوات).

نزحت أقدم عقائد ما بعد الموت المصرية من عصور ما قبل التاريخ عندما كان يدفن الميت في قبره في رمال الصحراء أو في صخور الجبل في المناطق التي تحيط بالوادي الأخضر للنيل، وهو المخصص للأحياء، وكانت هذه المناطق تسمى بـ (ما تحت الإله).

وفي مناطق (ما تحت الإله) اعتقد المصريون أنّ الميّت سيزاول حياته داخل قبره بنفس الطريقة التي كان عليها قبل الموت ولذلك كانت تعد له في القبر مؤونة كبيرة في قدور ضخمة لكي يشعر الميّت بعدم تبدّل حياته، ثم أضيف نقش جدران القبور بأنواع النشاط اليومي الأخرى. (٧)

ومع ظهور الدولة القديمة (في العصور التاريخية) استعيض عن قدور المؤونة بصور أنواع الأطعمة ونقوشها على الجدران «وزيادة على ذلك فإن السحر الكائن في النقوش والصور كان يجدد أطعمته متى أراد ويبعث الحياة في مناظر الحصاد وجمع العنب وحلقات صيد الحيوان والأسماك المصوّرة على جدران المقبرة، وعلى ذلك كانت فكرة الحياة في القبر لا تزال باقية ولم تندثر، بل على العكس، نظّم كل شيء بحيث يتمتع الميّت إبان الحياة الثانية بمقدار وفير مما يحتاج إليه» (٨)

وكانوا يرون في هذه الفترة أن روح الميّت تغادر الجسد أولاً ثم تعود إليه بواسطة

طقس (فتح الفم) الذي كان يجري على تمثال الميت ويستدعي ذلك، سحرياً، التأثير على جثة الميت لكي تعود الروح إلى جسد الميّت ويعود إلى حياته بعد الموت.

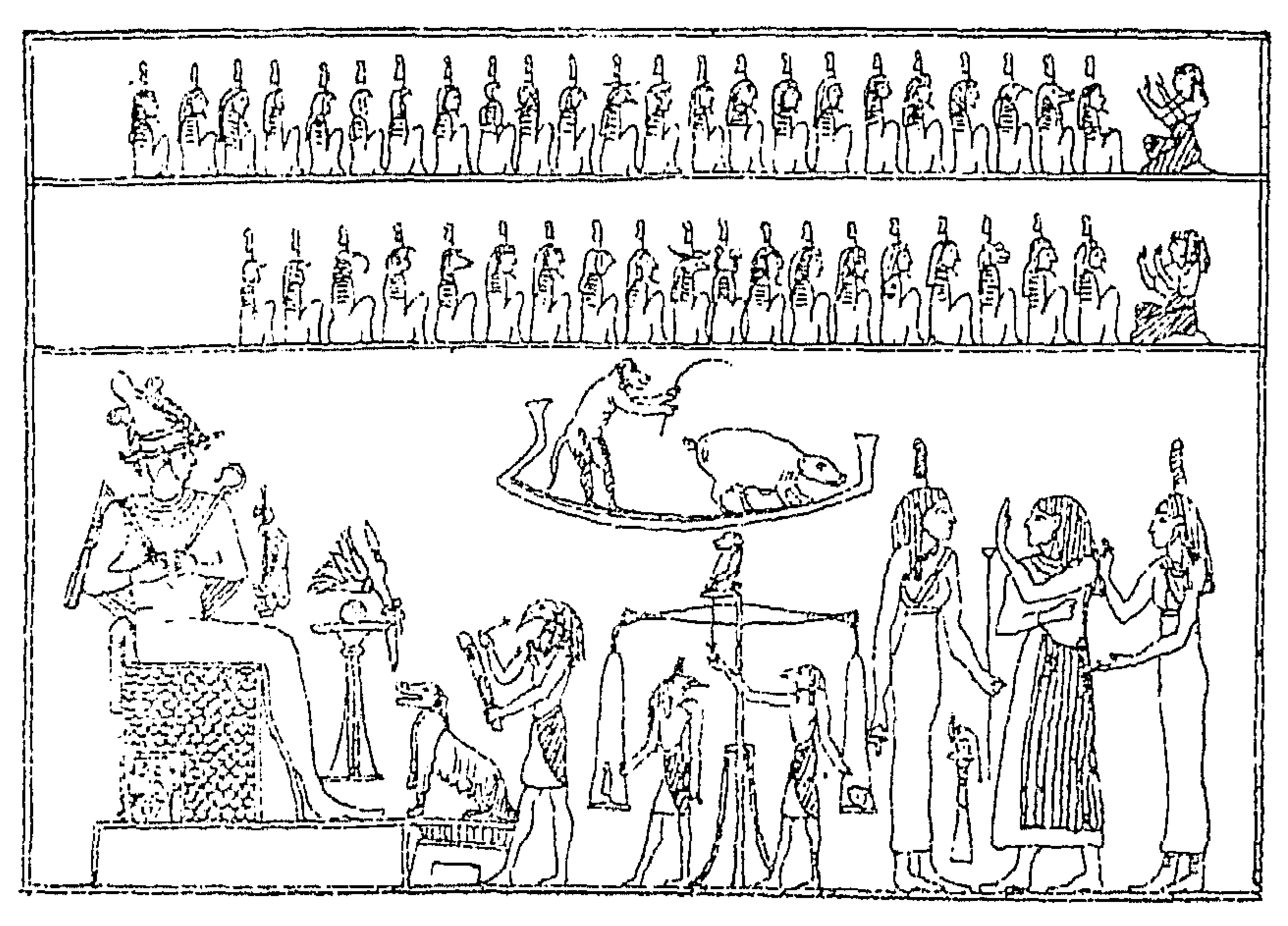
وقد ظهرت ضرورة تحنيط الميّت نتيجة هذه العقيدة التي تقول بتلازم جسد الميّت مع روحه في حياة ما بعد الموت. وكان لا بد من حفظ جسد الميت لكي تعود إليه الروح التي فارقته مؤقتاً لحظة الموت، وهكذا فإنّ المصريين القدماء «لم يعتبروا الموت هو النهاية، وإنما هو رحلة خطرة تتناثر خلالها شتى العناصر المكوّنة للشخص الحيّ، بينما يحتفظ كلّ منها بتكامله الفردي. فإذا أمكن إعادة اتحادها ووضعها في الجسم ثانية، أمكنه أن يحيا حياة جديدة مشابهة جداً للحياة التي قضاها على الأرض. ومع ذلك فلتحقيق هذه النتيجة يجب حفظ الجسم الذي هو أضعف كل هذه العناصر وأكثرها عطباً. فإذا ترك الجسم ليتعفّن، ضاع كل أمل في اتحاد القوى الحيوية وهيكلها الجسدي، في العالم الآخر، فيحكم على الروح بأن تظل تبحث عبثاً إلى الأبد، عن جسم لم يعد له وجود» (٩)

وتظهر لنا، في التراث الروحي المصري، ثلاث عقائد جنائزية أو إسكاتولوجية منفصلة تعالج حياة ما بعد الموت المصرية وهي (النجمية والشمسية والأوزيرية).

العقيدة النجمية أقدم هذه العقائد وهي خاصة بالملوك وقد ظهرت في العصر العتيق وبداية العصر القديم حيث يتحوّل الملك الميّت إلى نجم من النجوم القطبية التي كانت تعتبر رمزاً للديمومة لأنها لا تغيب أبداً. وربما كان تفسير وجود العدد الكبير من نجوم السماء بأنهم ملوك أو أفراد متميّزون خضعوا للاهوت النجمي بعد الموت ورحلوا إلى السماء.

أما العقيدة الشمسية التي ظهرت مع الأسرة الخامسة وخصّت الملك أولاً حيث ينتقل المتوفي إلى (التطهير الصحراوي) عند حافة الصحراء ثم (التطهير الشمسي) داخل الجرّة ثم الالتحاق بالمركب السماوي للشمس حيث يرافق المتوفي الإله (رع في دورته السماوية. أما العقيدة الأوزيرية فهي الأقرب إلى عامة الناس، رغم أنها أصبحت تطبق على الملوك فيما بعد، ومكان العالم الآخر فيها هو العالم الأسفل وليس السماء.

وتسبق حياة ما بعد الموت النهائية مرحلة للحساب تتم فيها محاكمة الميّت يكون فيها أوزيريس قاضي قضاة محكمة الموتى، ويتحوّل الميّت إلى أوزيريس أيضاً، فالقاضي هو الإله الحاكم لمملكة الموتى والميّت هو أوزيريس الميّت قبل بدء المحاكمة. وتبدأ المحاكمة بوزن قلب الميّت حيث يوضع في الكفة اليسرى من ميزان العدالة وريشة ماعت في الكفة اليمنى، ويقوم أنوبيس الذي له رأس ابن آوى بعملية الوزن ويسجل تحوت النتيجة أنظر شكل (١)



شكل (١)

محاكمة الميّت حيث يظهر أوزيريس كقاضي قضاة محكمة الموتى.

وفي حالة كون القلب أثقل من الريشة فإن هذا يعني وجود خطايا كثيرة يخبر الإله تحوت النتيجة للقضاة الإثنين والأربعين (نومNom) ثم يقوم الميّت بمخاطبتهم واحداً واحداً وعليه أن يتعرّف عليهم.

وقد وردت في كتاب الأموات تصورات المصريين مفصلة عن الأرواح السجينة بعد الموت ومحاكمتها وما يهددها من أهوال وعن طرق إجتنابها إياها (وهي تصورات ضبابية ومتناقضة). وتضم هذه المجموعة الواسعة (أكثر من ١٨٠ فصلاً) من صنع الجنّاز السحرية، وتعود أكثر صيغها قدماً إلى نصوص الأهرامات

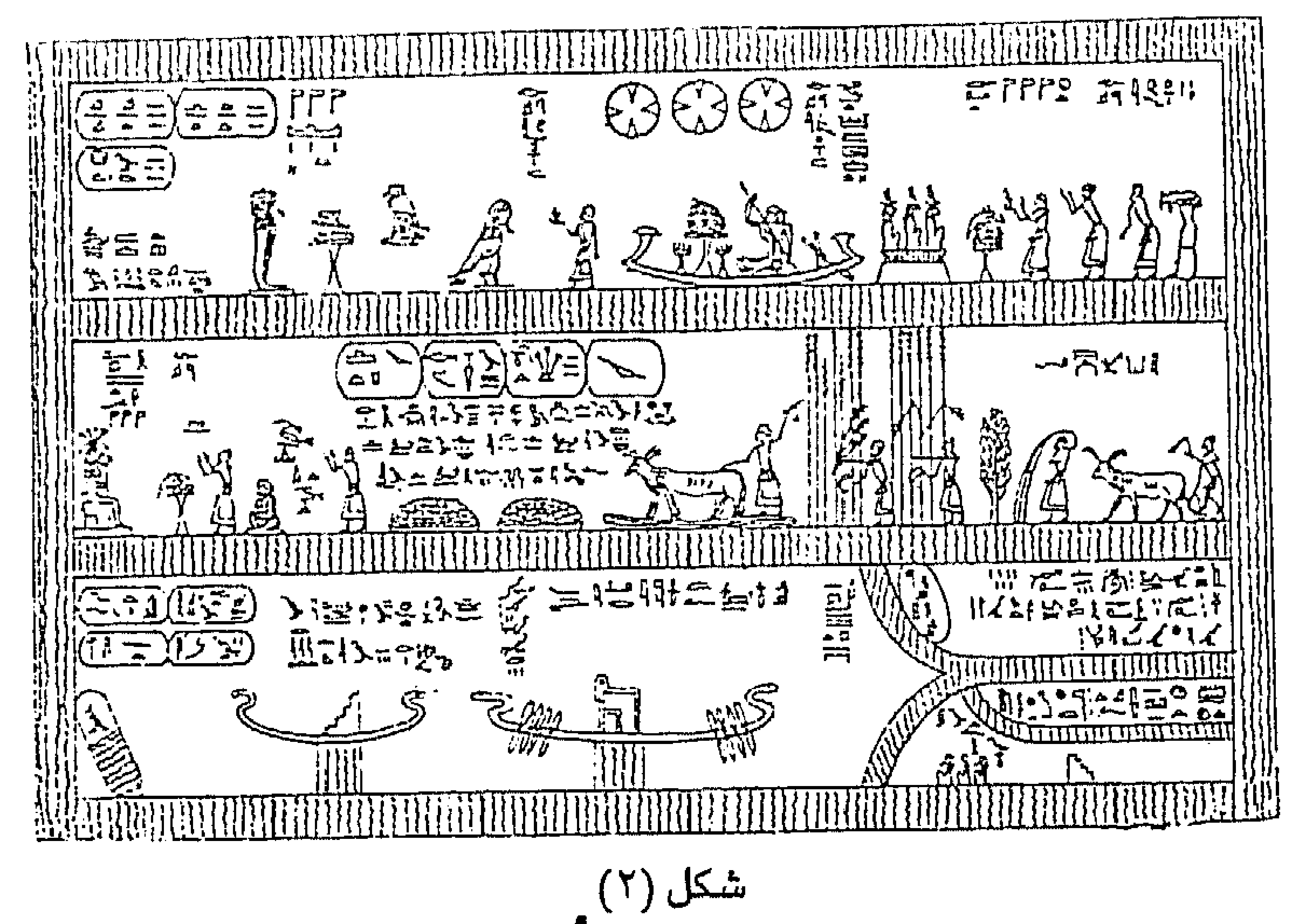
(العائلتان المالكتان الخامسة والسادسة)، حيث جرت كتابتها وقتذاك على جدران قبور الفراعنة، وفي المرحلة الانتقالية، كتبت هذه النصوص على نواميس أصحاب المقامات الرفيعة، ثم أصبحت نصوص الجناز المتزايدة هذه تكتب فيمابعد على ورق البردي وتلصق على صدر مومياء المتوفي. هكذا جرى وضع كتاب الأموات المرموق مع كل محتوياته البالغة التناقض. (١٠)

ثم تعلن براءة الميّت من الكبائر وجرائم العنف المهددة للمجتمع (كالقتل والسرقة والسطو والزنى) ثم البراءة من الأعمال التي تمسّ الضمير (كالكذب والغش والخداع والوشاية) ثم البراءة من الأعمال التي تمسّ الدين والأسرة . . وبعدهها تعاد للميت أعضاءه كالفم والذاكرة والقلب . . . الخ .

المرحلة التالية هي ظهور طريقين للميت فإذا كان بريئاً يذهب إلى طريق الجنّة التي هي (حقول القرابين) و (حقول البوص) وإذا كان مذنباً يذهب إلى طريق النار .

وتصوّر حقول الجنة الرجل الميّت وهو يقوم بعمله ويحرث الأرض ويبذر الحب ويجمع المحصول ويجذّف قاربه في مستنقعات العالم السفلي «ويكتنف الغموض نفسه وصف كيفية تصرّف الأموات بوقتهم، فهم تارة يستسلمون للراحة بفضل خدمة الكفلاء، ويحرثون تارة أخرى، الأرض التي يهبها إياهم أوزيريس، أو يقيمون في قبورهم، أو يعودون، هانئين وغير منظورين، ليتلهّوا بمشهد الأحياء على الأرض» (١١) انظر شكل (٢) .

وفي مرحلة لاحقة اختلطت هذه العقائد الثلاثة مع بعضها وأصبحت كل واحدة تعكس الأخرى وتنهل منها « حتى يستحيل إعطاء صورة منطقية للحياة المصرية بعد الموت، دون الإلتجاء إلى تحليل تاريخي لمختلف العناصر، فإن المتوفي يكون، في وقت واحد، وفي نفس الوقت، في السماء وفي سفينة الإله وتحت الأرض يفلح الحقول الفردوسية، وفي قبره يتمتع بطعامه، ومن آن إلى آخر، يعود إلى الأرض، ليرى ثانيةً الأماكن التي كان يحبها في الزمن العابر، أو ليُحدث بعض الأضراربالأحياء. وهي أمور يصعب على متوفي واحد أداؤها معاً» (١٢)



شكل (٢).

حقول النعيم (القراين، البوص) حيث يمارس الموتى حياتهم اليومية

كذلك اختلطت حياة ما بعد الموت عند الملوك وعند عامة الناس وصارت السيناريوهات الاسكاتولوجية متبادلة عند الإثنين وازدادت مراحل ما بعد الموت تعقيداً«وأخيراً رأى المصريون دمج مختلف مظاهر الحياةوراء القبر هذه معاً، فخصصوا وقت النهار للبقاء في القبرفي هدوء مع رحلات الأرض بين الفينة والفينة، وفي الليل يصاحب الميت الشمس في رحلة تحت الأرض إلى العالم الآخر فيرسي سفينته، ويقف في الطريق في حقول أوزيريس. وعندما تعيد أشعة الفجر الشمس إلى عالمنا، تطير الروح الجائلة مسرعة إلى قبرها لتجد فيه الظل والبرودة. (١٣)

هكذا إذن لم يبحث الملوك أو الناس عن الخلود أثناء الحياة لأنه كان، في الدين المصري، مضموناً بعد الموت. فلا جدوى من البحث عن الخلود وهو قادم لا محالة. ولذلك يمكننا التعرّف على مفهومين متناقضين للخلود في التراث الرافديني والتراث المصري، أولهما يبحث عن الخلود في الحياة أما كاملاً أو جزئياً والآخر ينتظرُ خلوداً وهمياً بعد الموت. الفرق كبير بينهما ولكننا، على العموم، نجد أن «الآلهة والكائنات الإنسانية قد حكم عليهم أن يعيشوا على الأرض فإنهم أيضاً قد

حكم عليهم أن تكون لهم مخاوفهم وأفراحهم وأن يتزوجوا زوجاتهم وأن ينجبوا أطفالهم وأخيراً قد حكم عليهم أن يموتوا وأن تحسب عدد سنين حياتهم على الأرض وتسجل» (١٤)

مراجع الفصل الثاني / من الباب الأول

١. بدج، السير والس : آلهة المصريين، ترجمة محمد حسين يونس، مكتبة مدبولي، القاهرة، ١٩٩٤، ص ١٠٢

٢. بوزنر، جورج وجماعته : معجم الحضارة المصرية القديمة، ترجمة أمين سلامة مراجعة د. سيد توفيق، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٣، ص ٣٢.

٣. بدرج، السير والس : المرجع السابق ص ٩٩

٤. بدج، السير والس : المرجع السابق ص ٣٣

٦. الماجدي، خزعل : الدين المصري، دار الشروق للنشر والتوزيع، عمّان، ١٩٩٩ ص ٢٠٨

٧. بوزنر، جورج وجماعته المرجع السابق ص ٣٢٧

٨. نفسه ص ٢٣٨

٩. نفسه ص ٢٤٨

١٠. توكاريف، سيرغي أ : الأديان في تاريخ شعوب العالم، ترجمة د. أحمد. م. فاضل. دار الأهالي للطباعة والنشر و التوزيع، دمشق ١٩٩٨ ص ٣٢٦.

١١. إيمار، أندريه وجانين : الشرق واليونان القديم، ترجمة فريد. م. داغر وفؤاد. ج. أبو ريحان، ط٢، منشورات عويدات، بيروت ـ باريس، ١٩٨١ ص ١٠٤

١٢. وبوزنر، جورج وجماعته المرجع السابق ص ٢٣٩

١٣. نفسه

١٤. عويس، سيد الخلود في التراث الثقافي المصري، دار المعارف بمصر، القاهرة ١٩٩٦ ص ٦٦

الباب الثاني

الإغواءات الصغرى للخلود

الفصل الأول

مثولوجيا البطولة والحكمة



جلجامش وأنكيدو

يذكر آرثر كورتل في (قاموس أساطير العالم) إن المعنى الحرفي لمردوخ هو ـ عجل الشمس ـ ابن إيا، ويظهر أن مردوخ كان إلهاً للسحر والتعاويذ فمنذ البدء يجسّد برأسين يرمز إلى إحداهما كبعل أو السيد المعرّف بإنليل [1]

وهكذا يكون مردوخ مزيجاً من إلهين هما إيا وإنليل، فهو إبن إله الحكمة إيا وهو سليل إله البطولة إنليل. . وفي شخصية مردوخ اكتملت البطولة والحكمة، لكن النظرة الأولية المجرّدة تظهر لنا أن البطولة تقف على طرف نقيض من الحكمة فالبطولة بما تنطوي عليه من قوة وشجاعة تنزلقُ في مجال التّهور ونزعة السيطرة والبطش في حين تفتح الحكمة مجالاً أوسع باتجاه الرضا والحب والهدوء.

يبدو هذا جلياً واضحاً ونحنُ نتفحّص أسطورة الخلق البابلية (اينوما إيليش) ونرى أن آلهة العالم القديم تيامت وأبسو وممو وكنجو آلهة غنية قوية جبارة تكمن بطولتها في السيطرة على هيولى العالم البدئي وعدم المساس به وهي مستعدة للبطش بكل من يتمرد على هذا القانون وتغيب الحكمة عنه كثيراً بمجرّد أن يبدأ الآلهة الصغار الجدد اللعب والغناء على سطحها. فتشن عليه حرب إبادة نتج عنها ذلك الصراع الطويل بين آلهة العالم القديم وآلهة العالم الجديد.

وتبقى الآلهة القديمة متدرّعة بالقوة البطش دون روية أو حكمة معتمدة على سلطانها القوي وعراقتها الربانية وأسلحتها الفتّاكة في معالجة العلاقة بين الآباء والأبناء. . أما الأبناء فقد اكتسبوا من هذا الصراع حكمةً وبطولة مكنتهم أخيراً من دحر آلهة العالم القديم وقتلهم. . واستطاعوا بحكمتهم بناء العالم الجديد الذي خرجوا به من الماء والظلمات إلى النور والحياة. . استطاعوا بحكمتهم استعمال ما تبقى من جثث الآلهة القديمة لبناء العالم الجديد فمن جسد تيامت تكوّنت السحب والبحار والجبال والتلال والأنهار أي الطبيعة بمظاهرها المختلفة ومن دم كنجو تكوّن

الإنسان. لقد احتاج قتل كل هؤلاء الآلهة الآباء إلى البطولة واحتاج صنع الطبيعة والإنسان إلى الحكمة. . وكانت الطبيعة قبلهم مجرد هيولى غامضة عمياء استطاعت الحكمة تكوينها بهذا الشكل الواضح أما الإنسان فلم يكن مخلوقاً. . وكانت الآلهة تقوم بكل الأعباء.

وهكذا أعطى مجلس الآلهة الجديد إلى مردوخ الذي قام بالدور الكبير في هذا الصراع رئاسة مجلس الآلهة. . أي أن بطلاً إلهياً يقف على رأس مجلس إلهي حكيم.

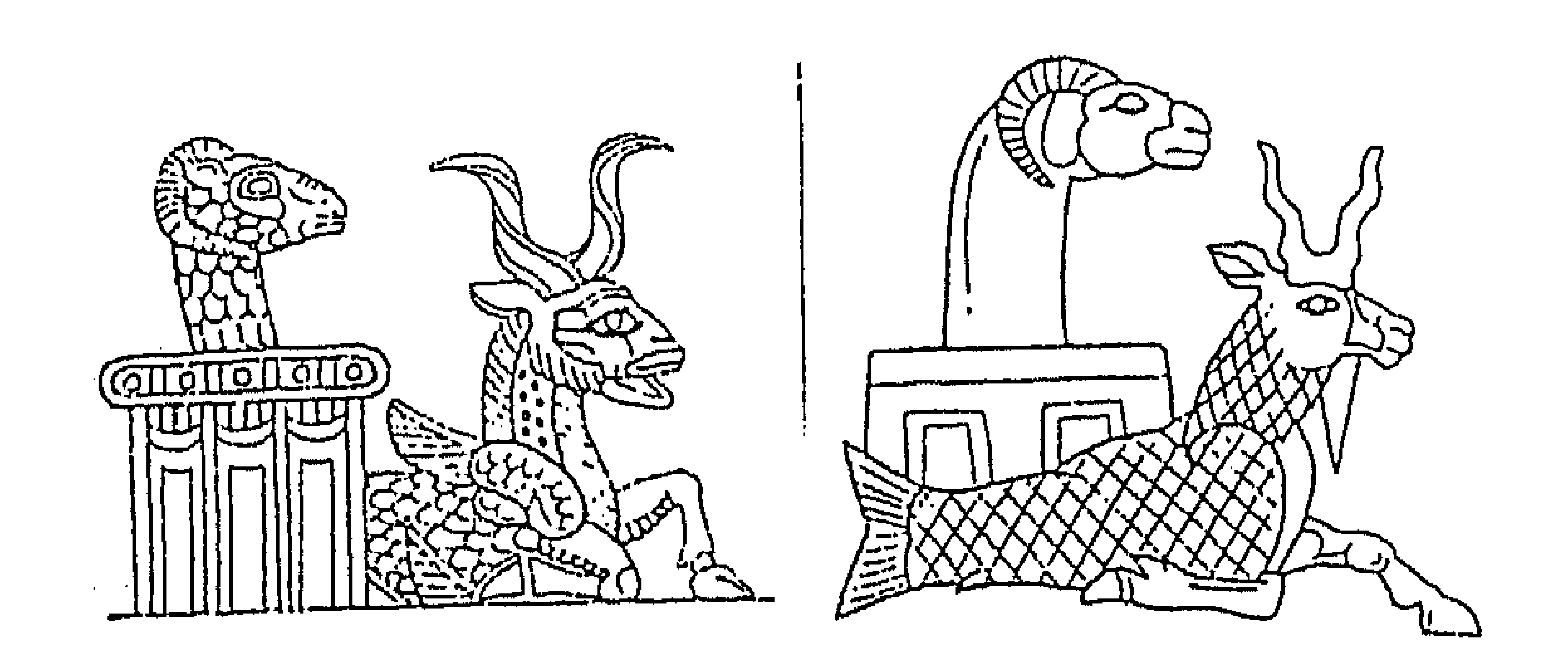
قادت البطولة الحكمة بعد أن كانت البطولة قوة غاشمة عمياء. . وبذلك أصبحت تأخذ منها وتعطي إليها وإتماماً لذلك نرى المجلس الإلهي يتنازلُ للإله مردوخ عن ألواح القدر ويعطيها له فيعلقها تحت أنفه حتى لا يغفل عنها. . وألواح القدر هذه عليها مصائر الكائنات وأقدارها فهي ألواح حكمةٍ وبصيرة وبذلك يكون هذا القرار هو أعلى ترميزٍ لاتحاد البطولة بالحكمة.

إن نظرةً سريعة لخارطة الآلهة السومرية أو البابلية وجداول أنسابها ستعطينا انطباعاً بأن هناك من الآلهة من اختصّ بالبطولة لوحدها وهناك من اختص بالحكمة لوحدها ويندر أن اجتمعت الصفتان في إله واحد.

توازن البطولة والحكمة عند الآلهة الكبار

إن الآلهة القديمة المتهورة لم يقف أمامها سوى (أيا) وهو (إنكي) السومري فهو إله الماء الذي اشتقت الحكمة من حركته المتعرّجة في النهر واستطاعته الالتواء أمام ما يعيقه وهكذا اجتمعت فيه صفة الماء (الخلق) وصفة الحكمة (العقل) ومعروف ما هو دور الماء في حضارة وادي الرافدين فهو الغاضب القوي الكاسح المدمّر الذي يشكل الطوفان أرعب أشكاله في الراسب المثيولوجي والنفسي في تراث هذه المنطقة والعالم عموماً كما أنّ سرّ تشكّل حضارة وادي الرافدين كانت في كيفية السيطرة على الماء الغاضب عن طريق هندسة الري (حيث اجتماع القوة مع الحكمة) وهكذا تجتمع في صفات الإله (إيا) الحكمة مع البطولة رغم أن رموز الإله (إيا) على امتداد

الحضارة العراقية القديمة كانت تستدعي الأشكال الحيوانية الأليفة مثل الجدي والخروف والسمكة والسلحفاة (انظر الشكل ٣)



شكل (٣)
رمز الإله (إيا)، الأول في القرن ١٢ ق.م. والثاني نهاية الألف الثاني ق.م
رسم : علي محمد آل تاجر

وتشير هذه الرموز إلى الألفة والخير العطاء والخصب. وكان الإله إيا يحتفظ بنواميس الحضارة المسماة في اللغة السومرية الـ (مي) وهي تدل على مظاهر حضارية كثيرة. وكان الإله (إيا) في ملحمة الخليقة البابلية هو الذ يتصدّى لـ (آبسو) زوج تيامت الأول إله المياه العذبة العميقة وقتله، وتعهد بخلق الإنسان من الدم والصلصال، وبحركة ذكية وحكيمة كان الإله (إيا) السبب في إنقاذ الإنسان من الطوفان الذي قرره مجمع الآلهة بقيادة آنو وإنليل. ومن صفاته الإيجابية الأخرى أنه إله الخصب والسحر والطب والموسيقى . وبذلك تجتمع في هذا الإله قوة الطبيعة الداخلية التي تميل إلى الخلق والإبداع والتكاثر.

« إيا، إله الحكمة، إله السحر والرقى،

رسم دائرة سحرية تحيط بالآلهة، تقيها، تحرسها

إيا، ألف رقية سحرية، نوّم بها أبسو

فوقع على أبسو سبات عظيم

ذبحه إيا وهو نائم.

وأسر (ممو) وزيره، ربط أنفه بسلسلة،

سجنه، أخذ عنهما بهاءَ هما وسؤددهما

اتشح بهما، أصبح الإله غير المنازع» (٢)

أما إنليل الذي تجسده الأساطير الرافدينية كإله للريح فهو النمو الأعلى للبطولة بأشكالها المتطرفة أحياناً (البطش والانتقام) الذي قرر الطوفان ونفذه ولولا حكمة (إيا) في إبلاغ الرجل الحكيم (أوتونابشتم) أو (زيوسدرا) لما بقي للإنسان شيء في هذه الأرض وهو الذي دمّر أكّد لأن ملكها نرام سين دنّس معبده في مدينة نفّر فأرسل إليه الكويتين.

وتذكر أقدم الأساطير حول إنليل تهوره واغتصابه ننليل وإجباره على النزول إلى العالم الأسفل وطرده، من العالم الأعلى. . ولكنه بعد أن يقوى على أخطائه يصبح رمزاً للبطولة والسيادة.

(إنليل الذي يحكم إرادات القوة والسيادة والإمارة،

آلهة الأرض تسجد له خشية ورهبة

وتتذلل آلهة السماء أمامه

مدينة (نفّر ذات مظهر يبعث الخوف والرعب

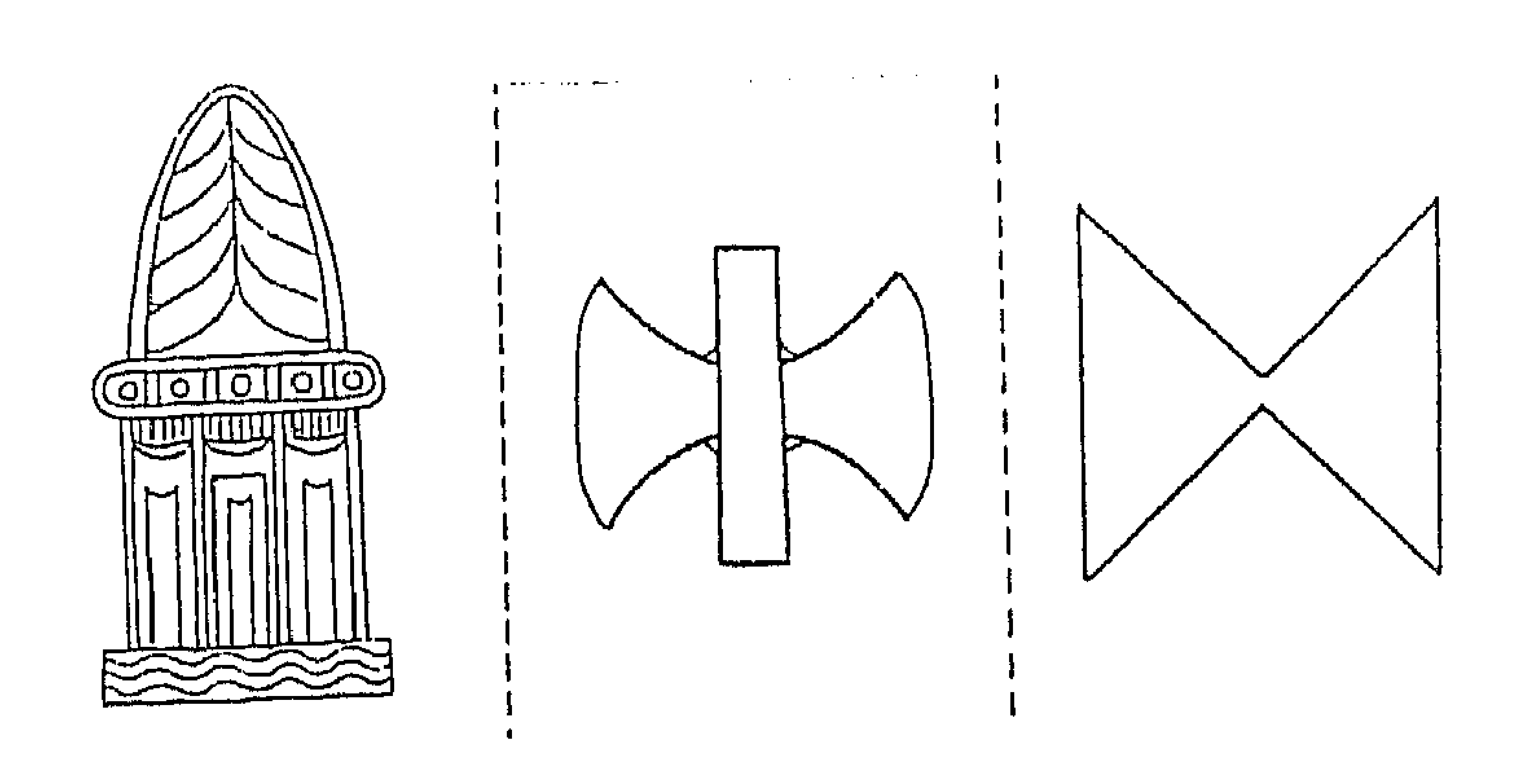
والضالون والأشرار والظالمون. . والنماموون

والمتجبرون والناكثون للعهد، كل أولئك لا يقر شرهم في المدينة

والشبكة العظمى. . لا يدع الأشرار والظالمين يفلتون من شراكها) (٣)

وتشير رموزه الخالية من الحياة الحيوانية أو النباتية أو ا المائية إلى البطش والقوة فهي تتمثّل بالبلطة المزدوجة أو المثلثين المزدوجين أو التاج المقرّن الذي يستند على واجهة معبد (شكل ٤).

كل هذه الرموز تشير إلى السلطة والقوة والجبروت وهي الصفات التي امتاز بها إنليل دائماً .



شكل (٤)

رموز الإله إنليل : ١. المثلث المزدوج

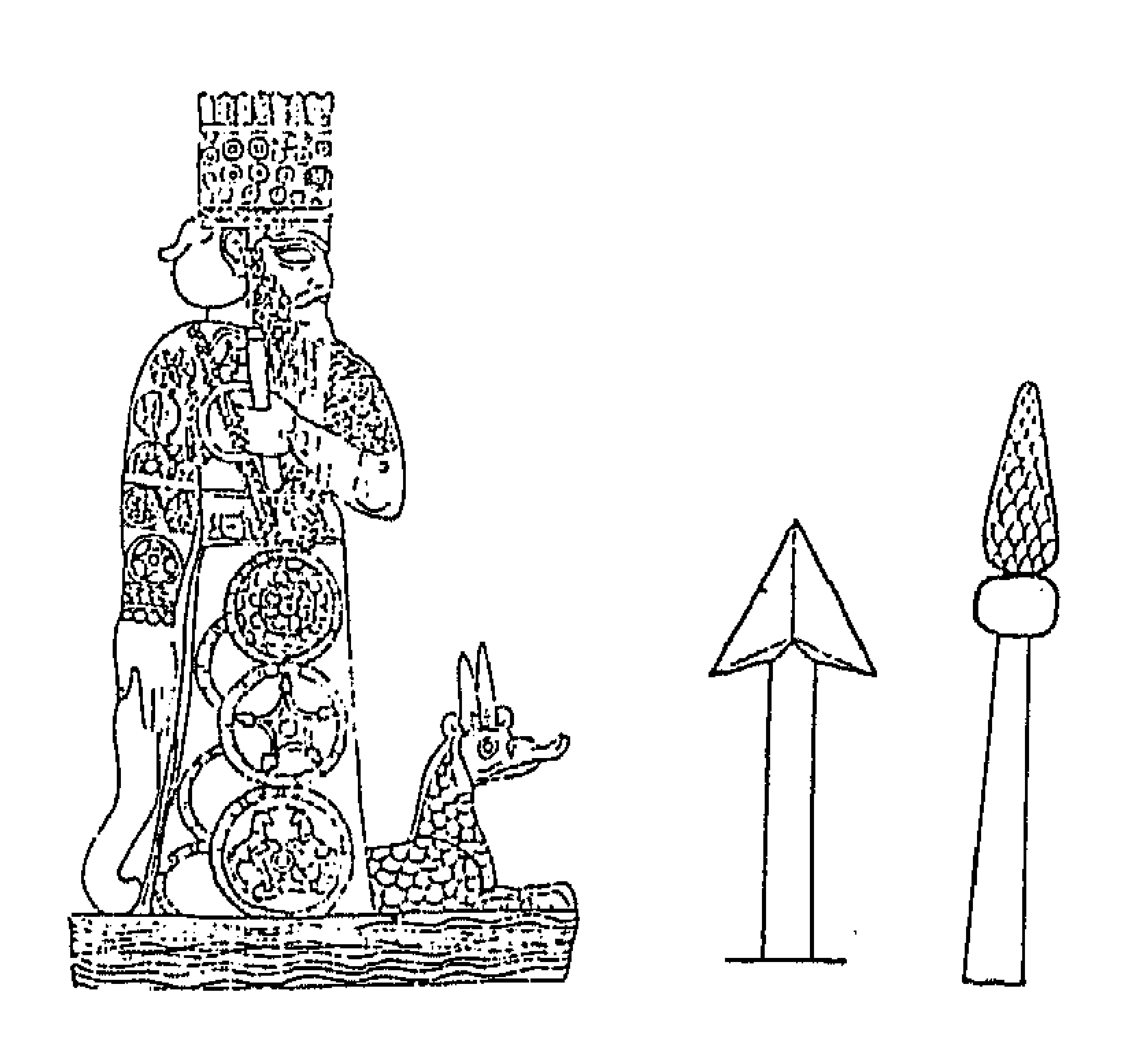
٢. البلطة المزدوجة (في نهاية الألف الخامس ق.م)

٣. التاج على دكة المعبد (في نهاية الألف الثاني ق.م)

أما الإله (مردوخ) فإنه يجمع في بذرته الإلهين (إيا) و (إنليل) فهو يشبّ على مآثر أبيه في البطولة وتصل بطولته ذروتها ندما يعصف مردوخ بتيامت وأتباعها في ملحمة الخليقة البابلية ، ولكن الحكمة لا تفارقه أبداً فنجده يتمثلها تماماً في تكوينه الرصين للكون والعالم وتقسيمه للأرض والفضاء وتوزيع المهمات على الآلهة . ويجمع رمز مردوخ القوة والبطش (من خلال التاج وعصا السلطة والحيوان الخرافي (موشى خوش) الذي يشبه التنين والذي يحمل مردوخ على ظهره ويسير به فالتنين أو الأفعى رمزٌ للخصب والعطاء ورموز السلطة رمزٌ للقوة والبطش (الشكل ٥) .

تتجلّى حكمة مردوخ في ولده (نبو) الذي صار إله الحكمة والكشف والكهانة وصعد مجد (نبو) إلى ذروته بعد أن ورث عن أبيه وجدّه صفات الشفاء والسحر والمعرفة . ويشير نسل نبو إلى أن الحكمة (إيا) تلد البطولة (مردوخ) وهذه تلد الحكمة ثانية (نبو) ويعبّر هذا التلازم القوي بين الحكمة والبطولة عن ثبات وقوة المثل والسلوك في الحضارة العراقية القديمة . ويمثل هذا النسب المتوازن عند الآلهة المركزية

في سومر وبابل جوهر تلازم الحكمة والبطولة. ولكن الأمر لا يكون كذلك مع آلهة أخرى مثل عشتار التي تمثّل الشكل المتطرّف في البطولة والحكمة معاً وبطريقة مدهشة.



شكل (٥)
الإله مردوخ يمتطي حيوانه (موش خوش)، ورموزه من العصرين الأكدي والبابلي القديم اللذين يشيران للسلطة

تطرف البطولة والحكمة في عشتار

يتجلى أقصى أشكال البطولة كما قلنا في التهور وقد مثلت (تيامت) ومن معها هذا التهور غير المنضبط وهو تجل للطبيعة غير المنضبطة المدمّرة الكاسحة.. لكن واحداً من أقصى أشكال البطولة يكمن في الحرب حيث يندمج المعنى السلبي والإيجابي للبطولة في شكل الحرب.

وتتجلّى أقصى أشكال الحكمة في النبوة كما قلنا ولكن الشكل الشعبي الشامل للحكمة والنبوة معاً يكمن في الحب.. الذي يمثّل أقصى أشكال الحكمة تحققاً وتمثلاً.

وفي التراث الرافديني تجمع (إنانا) السومرية و (عشتار) البابلية بين أقصى البطولة (الحرب) وأقصى الحكمة (الحب) في شخصية غريبة ومحببة ودائمة الذكر ففي وجهها المضيء الجميل الأول يظهر الحب والجنس الخصب والجمال وفي وجهها المكفهر الغاضب الثاني تظهر القوة والأسلحة والتحدي.

وأساطير عشتار دائماً تدور حول مركزين أولهما الحب(أساطيرها مع تموز وإنكي والفلاح أنكمدو وأخيها أوتّو) وثانيهما الحرب (أساطير نزولها إلى العالم الأسفل) والأسطورة التي جمعت بين الإغواء والانتقام أو الحب والحرب وهي أسطورتها مع الفلاح شوكليتيدا.

وتشكّل عشتار شكلاً مردوخياً متطرفاً مغالياً في الحب ومغالياً في الانتقام والحرب.. فهي لا تمثّل توازناً رفيعاً بين الحب والحرب بل تهوراً في كليهما، فهي متهورة في الحب تماماً والدليل على ذلك ما يسوقه جلجامش من شتائم لها:

أنت! ما أنت إلاّ الموقد الذي تخمد ناره في البرد

أنتِ كالباب الخلفي لا يصد ريحاً ولا عاصفة

أنتِ قصر يتحطّم في داخله الأبطال

أنتِ فيلٌ يمزّق رحله

أنتِ قير يلوث من يحمله

أنتِ قربة تبلل حاملها

ثم يقول لها بوضوح:

«تعالي اقص عليك مآسي عشاقكِ

من أجل تموز حبيب صباكِ

قضيت بالبكاء والنواح عليه سنة بعد سنة

لقد رُمت طير الشقراق المرقش

ولكنكِ ضربته وكسرت جناحيه

وها هو الآن حاط في البستان يصرخ نادباً: جناحي . . جناحي

ورُمْت بحبك الأسد الكامل القوة

ولكنك حفرت للإيقاع به سبعَ وسبعَ وجرات

ورمت الحصان المجلّى في البراز والسباق

ولكنك سلّطت عليه السوط والمهماز والسير

وحكمت عليه بالعدو شوط سبع ساعات مضاعفة

وقضيت عليه أن لا يرد الماء إلاّ بعد أن يعكره

وقضيت على أمه (سليلي) أن تواصل البكاء والندب عليه .

وأحببت راعي القطيع الذي لم ينقطع يقدّم إليك أكداس الخبز

وينحر الجداء ويطبخها لك كل يوم ولكنك ضربته وحوّلته ذئباً

وصار يطارد، الآن ألفه من حماة القطيع وكلابه تعض ساقيه

وأحببت (ايشولّنو) بساقي أبيك الذي حمل إليك سلال التمر بلا انقطاع

وجعك مائدتك عامرة، بالوفير من الزاد كل يوم

ولكنك رفعت إليه عينيك فراودته وقلت له: تعال يا حبيبي.

إيشولنو ودعني أتمتع برجولتك،

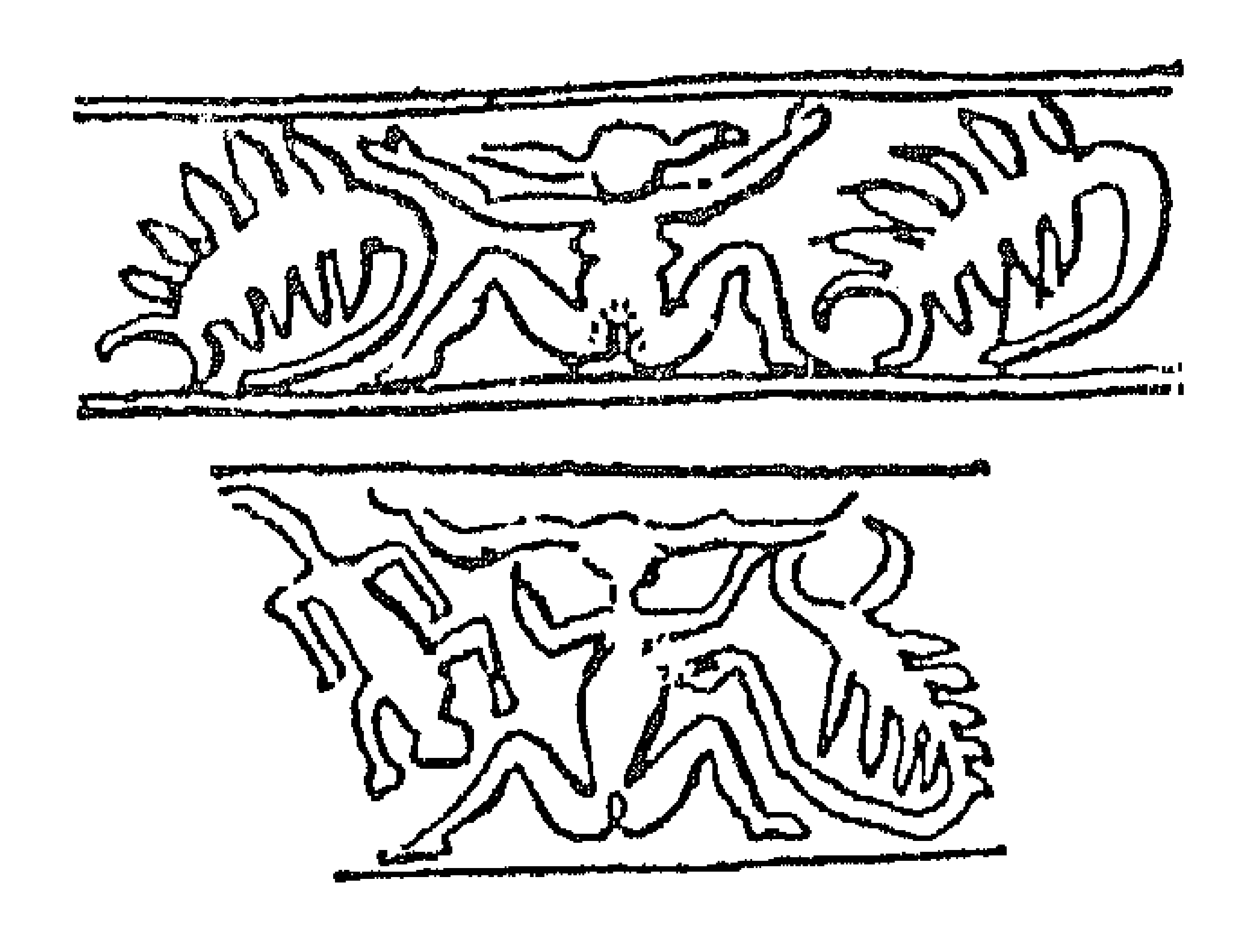
مدّ يدك المس مفاتن جسمي

فقال لك ايشولنو : ماذا ترومين مني؟ ألم تخبز أمي فآكل من خبزها

حتى آكل خبز الخنا والعار؟ وهل يدرأ كوخ القصب الزمهرير

وأنت لما سمعت قوله هذا ضربته بعصاك ومسخته ضفدعاً ووضعته وسط البساتين فلا يستطيع أن يعلو مرتفعاً

ولا ينزل منحدراً فإذا أحببتني فستجعلين مصيري مثل هؤلاء) (٤)



شكل (٦)

إنانا إلهة الجنس ، ختم أسطواني من أور

أما الوجه الآخر لعشتار (إنانا) فهو الوجه العنيف فنراها متهورة في البطش ومتهورة في الحرب عندما حاربت كور وعندما نزلت إلى العالم الأسفل لتقلب موازينه وتثير غباره فتوقظ الموتى ويقضي على آلهة العالم الأسفل . . وقد جرّت مغامرتها هذه زوجها وحبيبها إلى العالم الأسفل وانقسام السنة إلى صيف وشتاء وربيع وخريف فقد جعلت الطبيعة تجدب بسبب غياب تموز في العالم الأسفل لنصف عام . . فهي تظهر بكل أسباب الحروب في الكثير من الرقم (شكل ٧)



شكل (٧)

عشتار كآلهة للحرب/ الإلهة المميتة أ. وهي تمسك بيدها اليسرى رمز السلطة (العصا والحلقة) وقدمها لايمنى فوق الأسد الذي يرمز لقوتها ب. وهي تمسك بيدها اليمنى عدة الحرب (القوس والسهام وتقف على الأسد رمزها). المكان والزمان : أ. مدينة ماري (تل الحريري) القرن ١٨ق.م، ب. آشور : العصر الاشوري الحديث أو المتأخر

إن عشتار بقدر ما تغبطُ وتثير وتغوي بعنفٍ في الحب فإنها تنقمُ وتثور وتدمر في الحرب . .

إن هذه الشخصية تستحقُ دراسة عميقة وكبيرة في هذا المجال وقد سقناها مثلاً على ترابط البطولة والحكمة بطريقة متطرفة يكاد يمثل صورة الشخصية الرافدينية بصورة عامة ويكاد التوازن الذي تحمله شّخصية (مردوخ) تشكل وهلة أو يقظة توازن سريع وقلق أو عابر لا يدوم أما شخصية عشتار فهي الشخصية الغالبة .

غنوص البطولة والحكمة في تموز

يشكل تمحور المقابل الذكوري لعشتار ولكنه يختلف عنها في أنه يشكل عمقها المقابل ايضاً وصورتها الأرضية الراحلة إلى الاعماق .

يقول الاله (ايا) بتسليم تموز مسؤولية المراعي وخصوبة السهول ويتشكل الاسم الكامل لتموز وهو (دموزي أسبو) أي (الابن الحقيقي للمياه العذبة المجتمعة) وتظل علاقة تموز بابا اله الماء والحكمة وابسو اله المياه العميقة العذبة ويكاد يشكل ورثيهما الباطني . . وتظل علاقة دموزي بالنهر والعالم الاسفل والنسغ الصاعد في الأشجار، ونرى في صلاة أكدية لتموز ما يلي :

(يا دموزي أيها السيد، راعي آتو ، ، أيها البهيّ

يا قرين عشتار، الملكة ، الابن البكر لنوديمود (إيا) .

. . . .

(من النهر، من النهر، انهض ولتبتهج

يا دامو من النهر إنهض ولتبتهج) (٥)

ويتشكل المظهر الغنوصي للحكمة في تموز في قدرته الجنسية وتلازم حضوره مع إخصاب الحضائر وسقوط الامطار ونمو الزرع ووضعه البذور في الأرض والأرحام، فهو المسؤول عن الخصب والنسل في النبات والحيوان والإنسان وهكذا تتشرب الحكمة الكون وتتحول إلى إخصاب ونموٍّ وتفتح الأشياء، كل هذه المظاهر

يبعثها إله باطني عميق يكاد يشكِّل الصورة البدائية لنمو الحياة وتخصبها الدائم . ولذلك يرتبط دموزي أو تموز بالثور دلالة على الإخصاب وتظهر منحوتةً سومرية دموزي بلحيته اللازوردية ووجهه البشري وجسد الثور (شكل ٨)



شكل (٨)
دموزي بصورة الإنسان الثور حيث تظهر لحيتهُ الطويلة

وإزاء هذه الصورة المتشكلة في اعماق الحياة لا نجد فارقاً بين الصورة الباطنية للحكمة في الجنس وبين الصورة الباطنية للبطولة في الجنس أيضاً ممثلة في اله ذكر . . يتشبه بالثور دائماً ومع ذلك فإننا نجد اشارة لصلة دموزي بـ (انليل) في المناظرة التي ستجري بين الراعي والفلاح وهي ما اصطلح عليه في الادب السومري بأدب المناظرة أو (أدمندوكا) على لسان أوتّو إله الشمس إفصاحاً لهوية دموزي حيث خاطب أخته كما يلي :

هو الذي سيفترشه معك ، هو الذي سيفترشه

زوجك الذي سيفترشه معك

إيشومكال - أنّا سيفترشه معك

كولي - إنليل سيفترشه معك .

هذا الذي ولد من رحمٍ خصيب سيفترشه معك

الذي ينحدر من نسل الملوك سيفترشه معك) (٦)

ويعني إيشومكال أنّا (تنين السماء) اما كولي انليل فتعني صديق الاله إنليل وهذان الإسمان من القاب دموزي .

هذه الإشارة السريعة لعلاقة دموزي بأنليل لها ما يبررها ولكن بالمظهر الباطني الذي شرحناه لان دموزي يشكل البطولة السلبية والقوة الكامنة في الجذور والبذور والماء وكل اشكال الخصب في الحياة .

وهكذا يتحول دموزي الى بطولة/ حكمة دفينة في الأرض والارحام تتجلى عند تماسها مع مظاهر الحياة فتتحول مع سيدة الحب (عشّتار) الى حب عنيف وغرام قوي وتتحول مع سيدة الحرب (عشتار) إلى اعانة على الحرب وإسناد قوي للّعنف والشراسة . . . وهذا ما يجعل رمز الثور قريناً بتموز فهو الملاقح المخصب العنيف الثائر ذو القرنين القويين الهيّاج والمزبد . . . وهو حارث الأرض الذي يشقها ليضع البذور .

وفي شخصية تموز لا تعود هناك فواصل أو فروق بين الحكمة والقوة فهما وجهان لشيء واحد ينفذ في جوهر العالم ويجلّيه . وفي شخصية تموز ايضاً الكثير من القوة والترقق، الترف والإشراق الداندية والميل الذكوري الحاد . . وهذا ما يجعل تموز يظهر دائماً بصورة الذكر المدلل الذي يلبس العباءة الحمراء والذي يعزف على الناي والذي تحتفي به أمه (سرتور) واخته (كشتن ـ أنا) وحبيبته (عشتار) في آن واحد يندبنه ويبكين على مآثره الخصيبة . تموز لا يعرف الانتقام ولكنه حين يكف عن ملامسة الأرض العليا تجدب الأرض وحين لا يحضر بين الابقار والحيوانات فإنها لا تتسافد وحين لا يكون بين الناس فأنهم لا يحبون بعضهم .

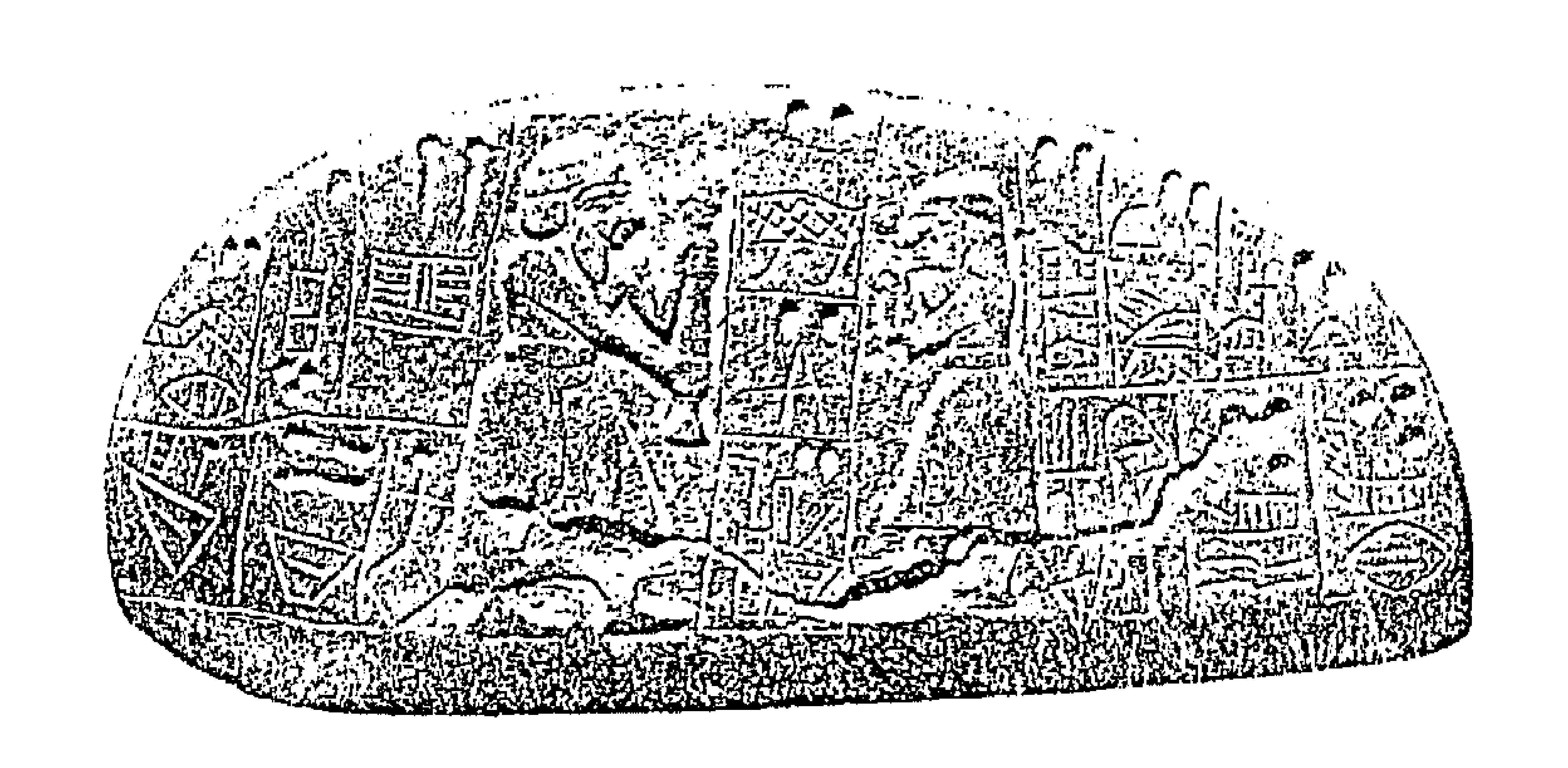
إنه لا ينتقم بشكل مباشر بل يختفي أو يغيب ليظهر للناس أثره وبعدُ بالعودة ليبين الفرق بين غيابه وحضوره .

وغيبة تموز هي أول اشكال الغيبات التي تسربت إلى الأديان السماوية فيما بعد وهو أول اشكال الشخصيات المنتظرة ، إنه اوّل مخلّص وأوّل مسيح وأوّل مهدي سيعود إلى الأرض فيعيد لها الحياة والعدل والخلاص . . هذه البذرة في الغيبة

والظهور تحولت إلى شجرة في الأديان اللاحقة .

وهكذا تتكاثف الصورة الغنوصية لشخصية تموز وتحقق دراستها العميقة مفهوماً عفوياً خصباً للبطل والحكيم الباطني الذي يظهر في كل شيء .

ينغرسُ التراث التموزي ، وهو يجرجر معه القوة البدائية للخصب ، في العقائد والآثار التي سبقت ظهور الحضارة السومرية ثم يتجلى فيها مظهرها جوهرها الخصبي الخالد تواصلاً مع المستوى السومري الذي يُظهر الحكمة والخصب أيضاً في (إيا) والبطولة ممثلة في إنليل . ويظهر شكل اتحادهما العنيف والغنوصي في إنانا ودموزي . وتظهر المنحوتات الطيبنية والحجرية لقاء دموزي وإنانا وهو يقدم لها الهدايا كما في الشكل (٩) .



شكل (٩)
إنانا ودموزي

أما مردوخ فيتجلى في جوهر الحضارة البابلية ويشكل رمزها الذي لا يغيب وفيه يظهر التوازن الدقيق بين الحكمة والبطولة أما انفصال الحكمة لوحدها وظهورها خالصة في شخصية الاله (نبو) الذي يظهر دوره في الحضارة الآشورية والذي يستدعي ظهوره منفصلاً ظهور البطولة منفصلةً متهورة باطشةً في شخصية الاله (آشور) الذي يمثل البطش والقوة التي تميّز الحضارة الآشورية . . ومعروفٌ أن هذا

الفصل بين نبو وآشور أو بين الحكمة والبطولة أدى إلى موت الحكمة والبطولة معاً وإلى انهيار الإمبراطورية الآشورية وهي في عزّ قوتها . .

كان آشور يمثل القوة الصارمة وكانت رموزه تصوره كمحارب مجنّح يرشق السهام محاطاً بقرص الشمس الملتهب (شكل ١٠)



شكل (١٠)
رمز آشور في القرن التاسع ق.م

لقد كان ملوك وادي الرافدين الذين يتمثلون شخصية الاله مردوخ يقيمون طقوس التتويج ورأس السنة على أساس انصهار شخصيتي تموز وعشتار في مردوخ وزوجته وهذا ما يفسر لنا زواج الملك من الكاهنة العليا في اعياد رأس السنة وظهور هذه المترادفات (تموز، مردوخ، نبو، الملك) أو (عشتار، الكاهنة العليا) . . لقد كان التتويج نوعاً من صهر البطولة والحكم في شخصية الملك الذي يتضمن صهر الحب والحرب وتحسس (قوة الإخصاب) العميقة التي كان يمثلها دموزي .

البطلُ حكيماً في العصور الاسطورية (ما قبل عصر البطولة)

ليست هناك عصور أسطورية وعصور غير أسطورية في تراث وادي الرافدين ولكننا أطلقنا هذه التسمية حول شخصيات لا تبدو لنا في حقيقتها واقعية، خصوصاً وأن أغلبها ظهر قبل الطوفان، بل تشوبها مسحة أسطورية شبه إلهية.

ولنا الآن بعد أن ناقشنا تلازم وانفصال البطولة والحكمة عند الآلهة الرافدينية ان نفصّل مناقشة البطولة والحكمة عند شخصيات شبه الهية (اسطورية) ظهرت في ازمان غابرة مثلت البطولة والحكمة والذي سنناقشهُ قبل عصر البطولة السومري المعروف حيث يتكون من ثلاث شخصيات شبه إلهية إثنان منهما عاشا في عصر ما قبل الطوفان وواحد منهما عاش بعده مباشرة.

آدابا

يعني إسم آدابا أو أدبا في المعاجم اللغوية السماوية بالصيغة البابلية (الحكيم، العاقل، العارف) ويكاد يكون آدابا بحسب المصادر المتوفرة أول حكيم في عصر ما قبل الطوفان سكن في اريدو لكننا لا نعثر عليه في ثبت الملوك السومريين قبل الطوفان وهذا يعني انه اقدم من عصر نزول الملكية من السماء أي انه رجل حكيم عارف كان يستمد حكمته من الإله (ايا) إله الحكمة وبذلك يكون هذا الاسم (آدابا) قبل الملوك أي أنه الإنسان المتأدب الحكيم المميز القديم وهذا هو الذي حدى بالعلماء المقارنة بين هذا الحكيم وآدم.

إن المعنى الآخر لاسم آدابا هو (الانسان) وفي قصته ما يشبه قصة آدم فقد أكل آدم من شجرة المعرفة وأراد أن يأكل من شجرة الخلود فطرد من الجنة وكذلك آدابا الذي قال له آنو (لأنك لم تأكل من طعام الحياة ولم تشرب من ماء الحياة لن تنال الحياة الخالدة أيها البشر الناقص المعوّج) (٧) وطرده من السماء ايضاً.

وتتجلى بطولة آدبا في أنه اشتبك في صراع مع الريح الجنوبية وكسر أجنحتها مما أغضب آنو لأنها من صنعه.. أي أنه تحدى الآلهة.. ثم أنه صعد إلى السماء بإرادة آنو ليحاكمه هناك ولكنه رغم حكمته التي يرعاها (إيا) لكنه صدق كلام الإلهين تموز

وگزيدا فلم يأكل طعام الحياة ولم يشرب شراب الحياة . . ترى هل تعمد الإله (إيا) في غشه؟ . . أو أن الإلهين تموز وگزيدا حسداه لأنه سيصبح خالداً مثلهما فغشاه ايضاً . . المهم أن حكمته وقعت ضحية سماعه لكلام الآلهة . . وهكذا سقطت أولى محاولات الانسان للخلود .

ان بطولة آدابا تكمن في كسره لأجنحة الريح الجنوبية التي دمرت رزقه من الأسماك التي كان يصيدها في الخليج وتكمن ايضاً في صعوده للسماء ومثوله امام آنو ولكن حكمته ذات حدين أولهما ايجابي في سماعه لكلام معلمه الالهي (إيا) والثاني سلبي في خسرانه بسبب هذا السماع لطعام وشراب الخلود . . ولنا ان نتخيل كيف كان الانسان الأول يطمح في جميع البطولة والحكمة في صيغة الخلود لكنه كان يفشل احياناً مثل آدابا وينجح نسبياً مثل (إيتانا) وينجح نادراً مثل أاوتونابشتم) .

أوتونابشتم

البطل والحكيم الحقيقي لعصر ما قبل الطوفان هو (زيوسدرا) السومري أو (اوتونابشتم) البابلي وهو نوح العراقي الذي سرقته أساطير العهد القديم . فيه تتجلى الشخصية النموذجية لبطل العالم السحيق الذي تغنت به فيما بعد كل الشعوب القديمة فهو يظهر بوضوح في الأساطير الهندية والصينية والسامية والكنعانية ثم اليونانية والرومانية ثم أنه حلقة الوصل بين عالم ما قبل الطوفان وعالم ما بعد الطوفان وهو السفينة التي عبرت بينهما وكان العالم السحيق الذي أنهاه الطوفان .

إندثر وأصبح العالم القديم المكوّن من الأعراق (السامية والآرية والسوداء) نابتاً من بذرة اوتونابشتم تتقلب في سلالاته السمراء والبيضاء والسوداء أو السامية واليافثية والحامية في الأرض بينما هو هناك في الجنة (دلمون) يراقب مسيرتها . . إذ قد تحتاج ذات يوم إلى سفينة جديدة ينقذها من شرورها

هذا البطل الخالد إذن تمثلت حكمته في أنه استجاب إلى نداء الإله إنكي (إيا البابلي) الذي همس في الحلم لأوتونابشتم :

(يا كوخ . . يا كوخ القصب! يا جدار، يا جدار

إسمع يا كوخ القصب وافهم يا حائط

ايها الرجل الشروباكي يا ابن (أوبار-توتو)

قوِّض البيت وابنِ لكَ سفينةً

تخلّ عن مالك وانشد النجاة

إنبذ الملك وخلّص حياتك

واحمل في السفينة بذرة كل ذي حياة

والسفينة التي ستبني

عليك أن تضبط مقاسها

ليكن عرضها مساوياً لطولها

واختمها جاعلاً إياها مثل مياه الأبسو) (٨)

وبحكمة اوتونابشتم بنيت السفينة واستطاع إقناع قومه في بنائها وسخّر أغلبهم لهذا العمل وبحكمته ايضاً استطاع أن يمخر عباب الطوفان طيلة فترته وبحكمته عرف وقت نهايته عندما أطلق الحمامة ثم السنونو فعادا اليه ولم يعد الغراب لانه أكل وحام وحطّ على بقعة من الأرض . . هذه هي حكمته. أما بطولته فتكمن في أنه تحدى قرار إنليل في إفناء الحياة على الأرض وعمل بما نصحه إياه (إيا) رغم ان انليل هو سيد الآلهة القوي والباطش وهكذا عندما إطّلع إنليل على ما فعله اوتونابشتم اقتنع بفعلته ومنحه هو وزوجته الخلود :

(لم يكن أوتونابشتم قبل الآن سوى بشرٍ

ولكن منذ الآن سيكون أوتونابشتم وزوجته مثلنا

نحن الآلهة وسيعيش أوتونابشتم بعيداً عند فم الأنهار) (٩).

في مأثرة أوتونابشتم نجد أن الإنسان يصل بالبطولة والحكمة إلى اقصاهما من الخلود (خلود الجسد أو خلود الذكر كما سنرى في جلجامش) أي أن تلازم البطولة

والحكمة يؤدي إلى الخلود وهو من صفات الآلهة، وهذا يذكرنا بالمبحث الخاص بتلازم الحكمة والبطولة في الجوهر الإلهي. لقد كان أوتونابشتم ملك شروباك وهو الكاهن الاكبر الورع الراعي لمعبد الآلهة وقد تجلت فيه إضافة إلى البطولة والحكمة صفة المخلّص أو المسيح فقد خلّص البشرية من الطوفان وهذا يعني أنه يمثل بذرة فكرة المخلص أو المنتظر بعد الإله تموز ولنقل بصورة دقيقة أن تموز اله مخلّص وأوتونابشتم بشرٌ مخلّص أي أنه يفتتح عصراً طويلاً في اطار هذه الشخصية التي لعبت دوراً كبيراً في جميع الأديان اللاحقة.

إن التأكيد على شخصية أوتونابشتم باعتبارها (بؤرةً) جمعت في مركزها شخصية (الملك، البطل، الكاهن، الحكيم، المخلص ثم الخالد) أمرٌ في غاية الاهمية فمن هذه الشخصية التي تقف على قمّة عصرين (قبل وبعد الطوفان) تفرقت فيما بعد أشعةٌ كثيرة نلمحها في الكثير من الابطال والحكماء والأنبياء والملوك ومن مختلف الأمم والشعوب.

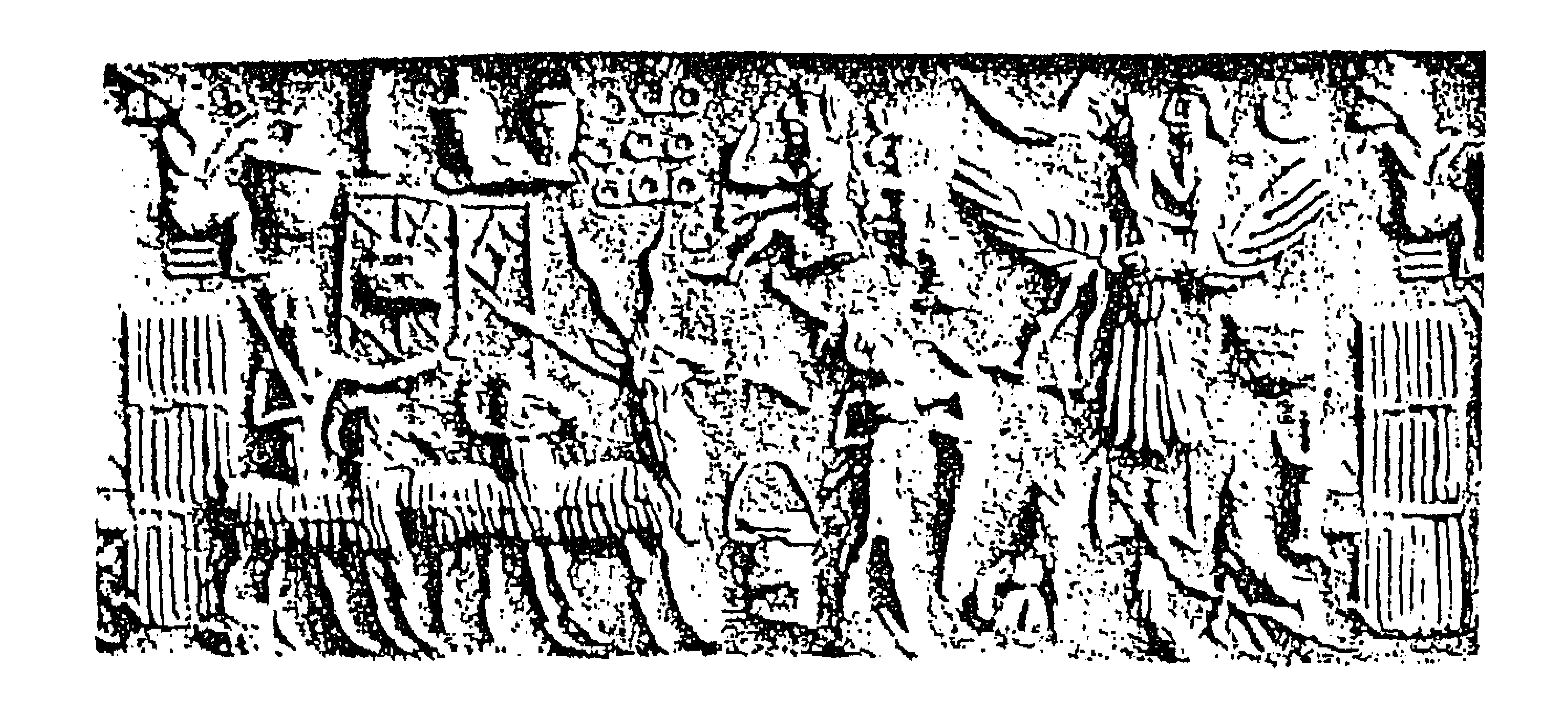
إيتانا

يرد ذكر (إيتانا) في اثبات الملوك السومريين على أنه الملك الثالث عشر من سلالة (كيش) الأولى التي كانت أول سلالة حكمت البلاد بعد الطوفان وترد مقابل اسمه العبارة التالية (إيتانا الراعي) الذي عرج إلى السماء ووطد جميع البلاد) وملخص اسطورته تكمن في بحثه عن علاج أو نبات يعالج عقمه أو عقم زوجته فتدله الآلهة على نسر كان قد اوقعه ثعبان في حفرة سيرفعه إلى السماء ليحصل هناك من (آنو) على النبات الذي يساعد على الإنجاب ويبدو أنه حصل على هذا النبات كما بدل إثبات الملوك السومريين على أن له ولداً إسمه (باليخ) أصبح ملكاً على كيش بعده.

وتقودنا أسطورة (إيتانا) الى أن هذا الملك اهتدى هو أو جعلته الآلهة يهتدي إلى إمكانية الشفاء من العقم عن طريق العلاج بنبات أو عشب الهي وهذه حكمة تدل على تمتع إيتانا بالكثير منها هذا من ناحية أما صعوده إلى السماء الذي سبقه إليه (آدابا) فتكمن البطولة فيه أأه كان على ظهر نسر جريح عالجه هو وجعله مؤهلاً

للتوغل في السماوات السبعة حتى وصوله إلى سماء آنو السابعة وكيف أنه كان ينظر الى حجم الأرض ويشاهدها مرةً كأنها التل وبحارها كالانهار الصغيرة.

هذه المغامرة الأولى من نوعها التي ترمز لرغبة الإنسان في الطيران لوحده أو بواسطة شيء آخر تضع ايتانا مقابلاً للنبي إدريس الذي عرج إلى السماء ولعباس ابن فرناس لاحقاً واسطورة ديداليوس اليونانية وتصوره الرقم الرافدينية صاعداً على ظهر نسر. والناس والحيوانات ينظرون اليه صاعداً بدهشة (شكل ١١)



(شكل (١١)
صعود إيتانا إلى السماء

وقيمة اسطورة إيتانا تكمن في نتيجتها العقلانية وهي حصوله على علاج يشفي العقم ويساهم في نوع من الخلود وهو التكاثر والبقاء عبر الأبناء والأحفاد.

إن النجاح الجزئي في أسطورة إيتانا يسد الفشل الجزئي في أسطورة آدابا ويتراصف مع النجاح الكامل لأوتونابشتم.

وبذلك نرى أن البطولة والحكمة في عصر ما قبل البطولة السومري كان يجتمع في البحث عن الخلود ومحاولة انتزاعه من الآلهة وهو ما سنجد آثاره في عصر البطولة عند جلجامش. فارتباط الحكمة والبطولة ليس في توازيهما كما عند الآلهة

بل في الإندفاع نحو الحصول على شيء إلهي هو الخلود.

نحنُ اذن أمام نوع آخر من البطولة والحكمة في أسطورة إيتانا يكمن في الصعود السماوي الذي استبدل طعام الخلود بنبات الإنجاب وهذا يدعونا لمقارنة الاثنين باوتونابشتم في الجدول الآتي :

العلامات الفارقة	آدابا	ايتانا	اوتونابشتم	جلجامش
الصعود	سماوي	سماوي	مائي	ارضي
النبات	ماء وطعام الخلود	نبات الولادة	(خلود الآلهة)	نبات الخلود
الحيوانات/ الطواطم	الريح كطائر	الافعى/ النسر	الحمامة/ الغراب	الافعى
مصدر البطولة	آنو	شمس	اوتو	اوتو
مصدر الحكمة	إيا	آنو	إيا	اوتونابشتم
النتيجة	الفشل	النجاح الجزئي	النجاح	النجاح ثم الفشل

جدول (٢) : رحلات البحث عن الخلود في تراث وادي الرافدين.

ويوحي لنا تدرج محاولات البحث عن الخلود بمنحنىً يتجه نحو الواقع ويعالج الآمور بالكثير من الرموز والأدوات الحقيقية. . لكن المدهش في جميع المحاولات انها تشترك بامور ورموز ووسائل متقاربة بعض الشيء وهذا ما جعلنا نجمعها في اطار واحد تقريباً.

البطل حكيماً في عصر البطولة السومري

يشرق عصر البطولة السومري وهو عصر البطولة البشري (حيث لم تدون قبله بطولة بشرية) في سومر بعد الطوفان مع سلالة ملوك أوروك وهي السلالة الثانية بعد سلالة كيش (سلالة إيتانا) واتفق الباحثون على تسميته بعصر البطولة لتتالي أربعة أبطال فيه توّجهم كَلكَامش.

إن المدهش في سلالة ملوك أوروك الاولى هو أن أول ملك لهم وهو (مسكي كَاشر) كان قبل تمتعه بالملوكية كاهناً بصفة (إين) وهي سلطة دينية ودنيوية في آن معاً أي انه الكاهن الملك وأنه ابن الاله (اوتو) وهو اله الشمس ورمز البطولة بعد (إنليل) وهكذا يتمتع هذا الملك بثلاث صفات هي (الكاهن الملك البطل) وبه نفتتح عصر البطولة السومري لكننا مضطرون لإهماله لعدم وجود أخباره أو أساطير حوله ولا نعرف عنه سوى انه (ذهب الى البحر وارتقى الجبال).

لكن مثلث البطولة السومري يبدأ بـ (إينمركار) ثم (لوكَال بندا) ويتوج بـ (كَلكَامش) وسنبحث في تلازم الحكمة والبطولة عند هؤلاء الملوك.

تتجلى بطولة إينمركار (وهو جد البطل كَلكَامش) في اخضاع مدينة (أرتّا) التي تقع في بلاد فارس ويفصلها عن أوروك سبع سلاسل من الجبال وتقع على قمة جبل شاهق يصعب إدراكها أو بلوغها من خلال ممارسته الحرب السياسية أو حرب الاعصاب مع ملك (أرتّا) (شاتامو) فقد أدار الملك إينمركار صراعاً حكيماً مع ملكها هذا ثم ملكها اللاحق (أنسوكو شسيرانا) ولم يستعمل فيه حرباً مباشرةً بل استخدم الحكمة في التحدي وإدارة الصراع حتى تمكن من إخضاع الملكين والحصول على الفضة والذهب والإعتراف منها على تبعيتها لاوروك.

وتشكل سابقة إينمركار هذه أول مظاهر الحكمة السياسية في التاريخ ويعتبرها صموئيل نوح كريمر أول حرب اعصاب في التاريخ ونرى الآلهة تقف بمعونة إينمركار وتساعد على غلبته سواء اكانت (إنانا) أم (ساج برو) أم (ندابا).

وتتلخص ملحمته الأولى مع (شاماتو) ملك اراتا بأن يطلب إينمركار من الإلهة إنانا مساعدته في بناء معبد لها في أوروك وأرتّا ونشر ديانتها هناك وأن تخضع هذه المملكة الغنية لاوروك سياسياً واقتصادياً فتوافقهُ الالهة ويرسل لملكها رسولاً يرهبه بالكلام واستعراض القوة فيرفضُ هذا ويهدده اينمركار بطريقةٍ اخرى وهكذا حتى تذعن (أرتّا) وملكها لطلب أوروك واينمركار

(قال الرسول لسيد أرتّا :

- ان اباك ومليكي قد ارسلني اليك

بعث بي اليك سيد (أرك) وسيد (كلاب)

ـ ماذا تكلم ملكك وماذا قال ؟

ـ هذا هو ما تكلم به ملكي وهذا ما قاله

إن ملكي الخليق بالتاج منذ أن ولد

إن سيد (أرك) ثعبان بلاد سومر المقدّم على الجميع الذي يشبه . . .

إنه الكبش المنعّم بقوة الإمارة في البلاد الجبلية المسوّرة

الراعي الذي ولدته البقرة الأمينة في قلب الجبال

إينمركار ابن الإله أوتو قد أرسلني إليك

وهذا ما يقوله لك ملكي :

سأجعل أهل مدينته يفرّون مثل الطير وفي الشجرة

سأجعلهم يفرّون كما يفرّ طير إلى عشه الثاني

سأجعلها خراباً كموضع

سأدعها ركاماً كالمدينة التي حلّ فيها الدمار الشامل

إن أرّتا ذلك الموطن الذي لعنه الإله (إنكي)

لأدمرنّ ذلك الموضع وأجعله خراباً . . . .

لقد شهرت (إنانا) السلاح من ورائه

لقد أنزلت الكلمة وأرجعتها

كأنقاض التراب المتراكم وأظمرتها بالتراب

وبعد أن يضع . . الذهب في خامه

وتطرق الفضة في ترابها وتصاغ الفضة

أحكمت الأقفاص على حمير الجبال

وبيت إنليل، صغير في بلاد سومر

الذي اصطفاه الرب (إنكي) في قلبه المقدس

ليبني أهل الجبال لي البيت ذا النواميس المقدسة

ويجعلوه، مزدهراً لي كشجرة البقس (١٠)

وفي القصة الثانية يثور الملك (انشوكوشسيرانا) ويحاول ان يخضع أوروك فيبعث لها كاهناً ساحراً يشيع الذعر والخوف والقحط في صفوفها فيحاول ذلك ولا يستطيع لأن الإلهة الأم (ساج برو) تقف مع أوروك وتهزمه ثم تهزم مليكه فيخضع الملك لأوروك وإينمركار.

ويتوالى عصر البطولة السومري من إينمركار إلى ولده (لوكَال بندا) الذي يبدي حباً للسفر والرحلات البطولية فيشب على القوة والاختلاط بالحيوانات وترويضها وتروي ثلاث حكايات بطولاته الأولى سفره الى جبال (هرّم) ومرضه هناك ورعاية أوتّو له وهو إله البطولة والحكمة فينصحه بذبح ولائم للآلهة ويرجعه إلى أهله.

أما الثانية فتروي سفره الى أرض (زابو) وعيشه مع الحيوانات ومساعدة طير الصاعقة (امد وجد) له لرعايته أفراخه ثم عودته سالماً إلى أرض بعد اجتيازه الأهوال.

أما الثالثة فتروي سفرته إلى بلاد (ارتّا) وتسليمه رسالة من أبيه الى الإلهة إنانا لمساعدة أوروك على اقوام (ألامارتو) الذين يحاصرونها . . . . . في تنفيذ نصيحة إنانا بجلب السمك العجيب والأواني والمعادن لأوروك فترفع عنها الحصار وتساعده. . وتكاد تشبه هذه الحكايات الثلاث أو الرحلات الثلاث رحلات السندباد وعودته سالماً إلى البصرة ونرى ان في لوگال بندا جذراً سومرياً للسندباد البري.

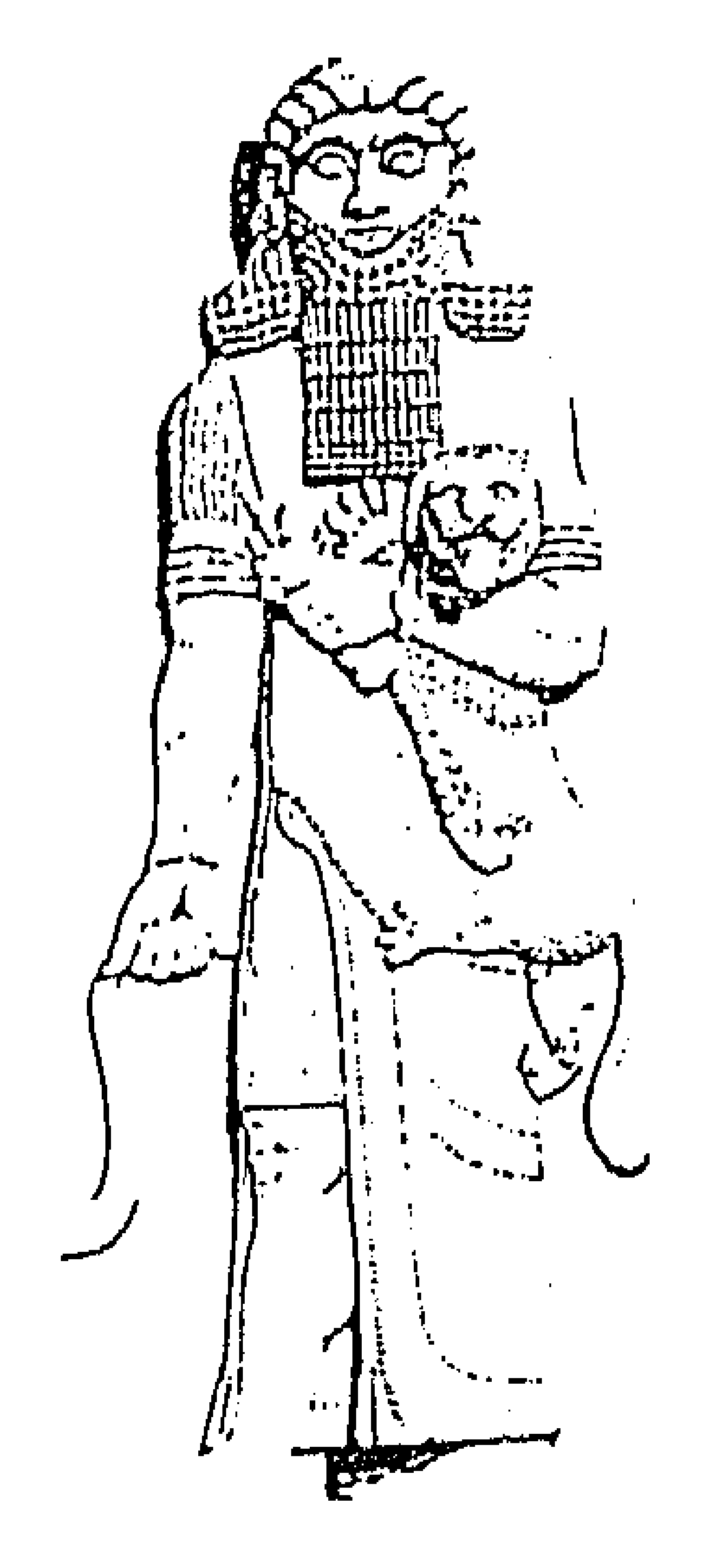
وهكذا تتجسد البطولة والحكمة في سيرة هذا البطل وخصوصاً في حكايته الثالثة

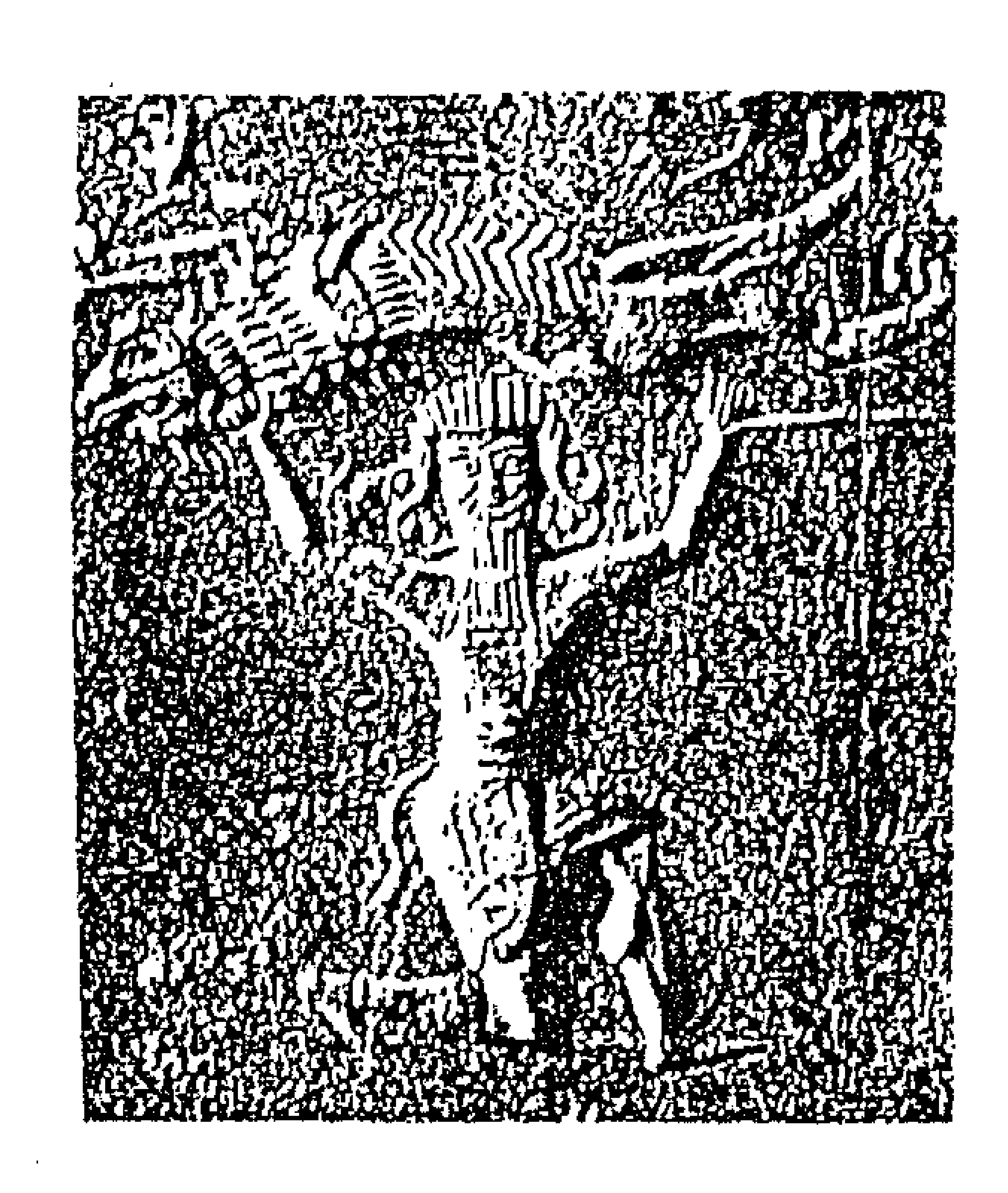
التي أنقذ بها بلاده ويختتم هذا الملك بطولته بالزواج الرمزي من الإلهة (ننسون) التي ستنجبُ منه (دموزي) صائد السمك الذي سينجبُ كَلكَامش، رغم أن الأمر يدعو إلى الشك لأن الالواح تذكر ان (لُلاّ) الكاهن هو والد كَلكَامش وهو كاهن كلاب (احد قسمي مدينة اوروك).

ويمكن أن يكون كَلكَامش بطلاً منقطعاً عن السلالة السابقة وهو بسبب بطولاته أصبح الملك بعد لوكَال بندا وان أباه (لُلاّ) الكاهن تزوج كاهنةً تابعة للالهة (ننسون).

أو يمكننا القول بأن ابن دموزي الاله الذي يتزوج الإلهة (ننسون) وهي إحدى أشكال عشتار فيكون بذلك دموزي وننسون قناعين إلهيين لرجل وامرأة حقيقيين أحدهما لوكَال بندا وهذا هو الاحتمال الاقوى.

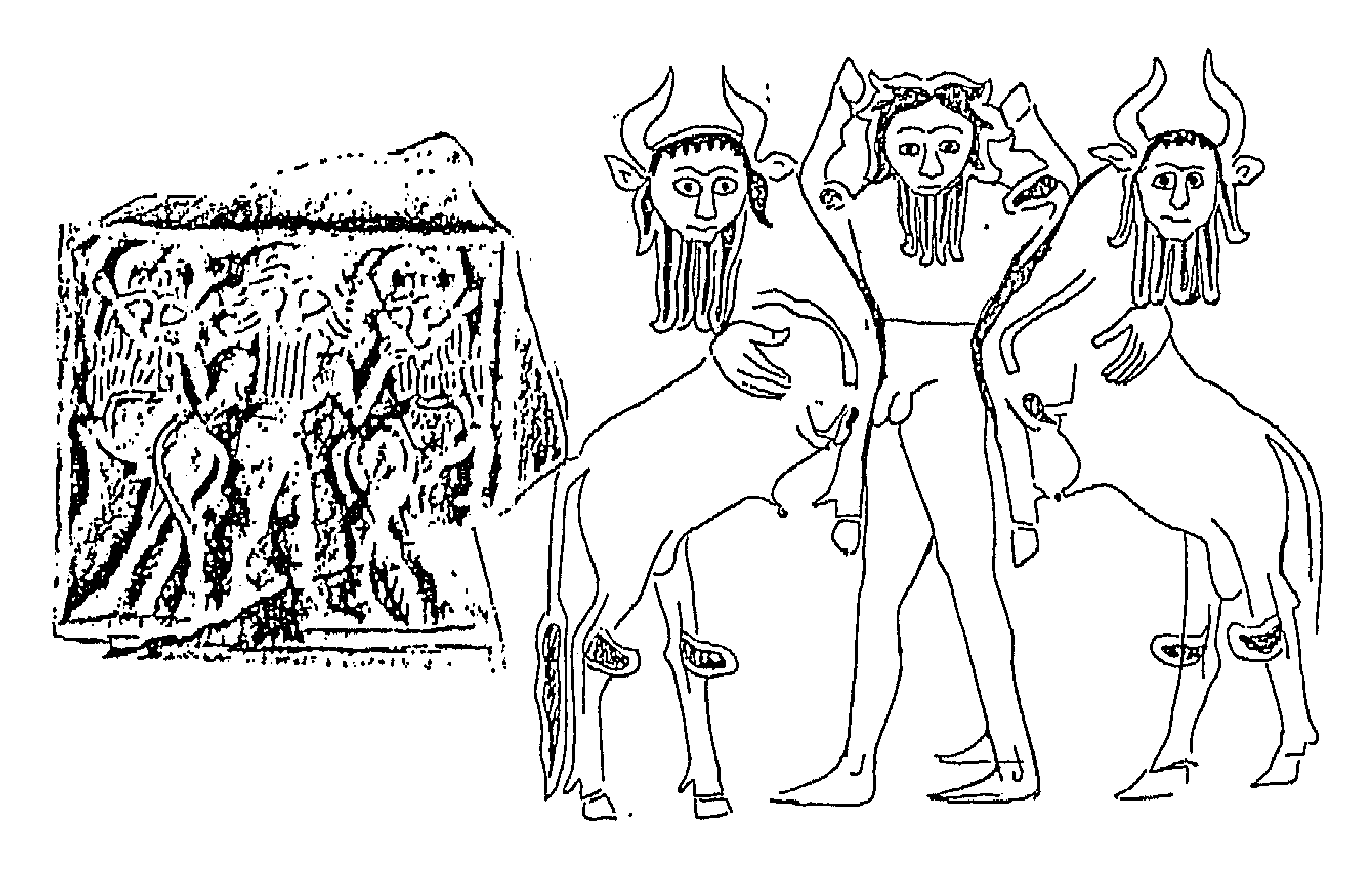
إن كَلكَامش يمثل بحق أروع امتزاج للبطولة مع الحكمة بل ويشكل أدق يمثل أروع نزوحٍ للبطولة نحو الحكمة واتحادهما في رجل واحد إذ يظهر هذا الملك في بداية ملحمته بطلاً قوياً متهوراً ينتهك الأعراض ـ لكن بطولته المتهورة هذه تصقل أولاً مع صداقته لانكيدو (الذي صنعته الآلهة لكي يكسر شوكته) وبهذا يبدأ تهذيب القوة بالألفة الاجتماعية أو بالتهذيب الاجتماعي ثم يبدأ التهذيب الثاني وهو التهذيب الروحي والعقلي عندما يموت إنكيدو فيسأل سؤاله العميق (لماذا نموت؟) ورغم أن الناس يموتون من حول كَلكَامش لكنه يموت اتكيدو يلامس معنى الموت الحقيقي كما لو أن الموت كان موجهاً له فأخطأه الى صديقه فيدفعه كل هذا إلى السؤال الوجداني والعقلي معاً عن سرّ الموت وسرّ الحياة وكيف يمكن للإنسان أن يبقى حياً إلى الأبد. وبهذا التهذيب الروحي والعقلي تتحول بطولته من المغامرات والسيطرة واجتياز الأهوال وقتل الأشرار إلى البحث عمّا يجعل الإنسان خالداً بحق. لقد صورت الآثار السومرية جلجامش وهو يصارع الأسود التي ظهرت له وهو يجتاز طريق الشمس الغاربة (شكل ١٢ أ)





شكل ١٢ أ)
جلجامش يصارع الأسد ويحمله بيد واحدةٍ

كما صورته وهو يصارع الثور السماوي في أكثر من عمل (شكل ١٢ب)



(شكل ١٢ ب)
جلجامش يصارع الثورين (تخطيط ومنحوتة)

أما الوحش الأرزي (خمبابا) فقد صورته منحوتات كثيرة منها تلك التي على ركيزة باب كلسية مزخرفة (شكل ١٣)



شكل (١٣)
خمبابا على ركيزة باب كلعين مزخرفة (القرن التاسع عشر ق.م)

كما هناك منحوتة نادرة صورت جلجامش وهو يقف على جثة خمبابا منتصراً عليه (شكل ١٤).



شكل (١٤)
جلجامش يقف على جثة خمبابا

وهكذا نرى أن جلجامش بعد أن شبع من البطولات والمغامرات إتجه نحو بطولة الحكمة والتي تكمن في قراره البحث عن الخلود فيسير باتجاه أوتونابشتم الساكن في الجنة دلمون وتعترضه سدوري وتحاول ان تفهمه بان لا خلود للانسان وأن هذا من حق الآلهة فقط وأن متعة الإنسان هي الخلود بعينه فلا يقتنع بهذا الحل حتى يجد أوتونابشتم أو (زيوسدرا السومري) وهو نوح الذي ورد في الميثولوجيا العبرية والخضر الذي ورد في المثيولوجيا الاسلامية (الساكن في مجمع البحرين) فيخبره أوتونابشتم كيف أن الآلهة منحته الخلود بعد أن أنقذ الجنس البشري كله. وتحدى قرار آنو وإنليل وهما أكبر الآلهة لكنهما اقتنعا بما فعلاه فمنحاه الخلود له هو وزوجته واسكناه في دلمون.. أي أن على الإنسان أن يقوم بعمل خارق جبار حتى يمنح الخلود.. لكن اوتونابشتم ولكي يقنع كَلكَامش بهذا الأمر تماماً يخترعُ له فكرة نبتة الخلود ويعطيها له ويجعل الأفعى في نفس الوقت تسلبها منه لكي يصاب باليأس تماماً ويعرف أن الخلود في العمل وفي ما يتركه الإنسان من ذكر طيب وهذا هو التهذيب أو الدرس الأخير الذي صقل بطولة كَلكَامش إنه التهذيب الحكمي أو تهذيب الحكمة التي تعلمها كَلكَامش طيلة حياته الطويلة العريضة.

هكذا اذن انطلق سهم كَلكَامش من البطولة الصرفة إلى تعلّم الإلفة إلى إثارة سؤال الموت إلى الحكمة الحقيقية وبذلك تكتمل في سيرة هذا البطل دورة البطولة والحكمة ويصبح كَلكَامش نموذجاً للبطل الحكيم بعد تجربةٍ قاسية.

وهكذا نرى تلازم البطولة والحكمة على المستويين الإلهي والبشري فعلى المستوى الإلهي ارتبطت الحكمة بالاله (إيا) والبطولة بالاله (إنليل) واتحدا في أكمل صورة لهما بالاله (مردوخ) وكان باطن اتحادهما في تموز (قوة الإخصاب) وظاهره في عشتار (الحب والحرب) ولكنهما انفصلا عن بعضهما من جديد في (آشور).

أما على المستوى شبه الإلهي فقد عبّر اتحاد البطولة والحكمة عند الأبطال الأسطوريين في البحث عن الخلود باعتباره نقطةً الهية فسعى آدابا إلى ذلك ولكنه لم يستطع وسعى أوتونابشتم إليه فاستطاع وحقق إيتانا الخلود عبر النسل.

أما على المستوى البشري فيتميز عصر البطولة بالحكمة والسياسة عند انمركار والمغامرات والرحلات عند لوكَال بندا وفي التحام البطولة مع الحكمة عند كَلكَامش

في أروع تلازم وصهر.

ولم يكن بالإمكان في بحث متواضع كهذا البحث عن الحكمة والبطولة عند ملوك سومر وأكد وبابل وآشور لأن ذلك يستلزم الجهد والوقت الذي نراه يتعدى حجم البحث . . ولكننا آثرنا أن نأخذ الجوهر في هذه المسألة على ضوء ما ورد في الأدبيات الأسطورية التي تحتفظُ بقوة روحية أعلى من السرد التاريخي المباشر الذي يلازم أخبار أغلب ملوك الدول السومرية والأكدية والبابلية والآشورية رغم وجود أمثلة باهرة وساطعة في شخصيات مثل (أوركاجينا، أوتوجيكال، كَوديا، سرجون، حمورابي، آشوربانيبال، نبو بلاصر، نبوخذنصّر . . . . الخ) ويمكن لمن يتحرى عن تلازم البطولة والحكمة أن يجد أدلة كثيرة عليها ولكننا كما قلت آثرنا أن نبقى في الجوهر الذي تكونت على أساسه أشكال البطولة والحكمة اللاحقة عسى أن نستطيع إيفاء ذلك حقه في بحوث لاحقة.

مراجع الفصل الأول/ من الباب الثاني

١ - كورتل، آرثر : قاموس أساطير العالم، ترجمة سهى الطريحي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ١٩٩٣، ص.

٢ - فريحة، أنيس : ملاحم وأساطير من الأدب السامي، دار النهار للنشر، بيروت ١٩٧٩، ص.

٣ - كريمر، صموئيل : من ألواح سومر، ترجمة طه باقر تقديم ومراجعة الدكتور أحمد فخري، مكتبة المثنى ببغداد ومؤسسة الخانجي بالقاهرة بالاشتراك مع مؤسسة فرانكليز للطباعة والنشر، ص.

٤ - باقر، طه : ملحمة جلجامش، دار الرشيد للنشر، بغداد ١٩٨٠، ص.

٥ - الحوراني، يوسف : البنية الذهنية الحضارية في الشرق المتوسطي الآسيوي القديم، دار النهار للنشر، بيروت، ١٩٧٨، ص.

٦ - علي، د. فاضل عبد الواحد : عشتار ومأساة تموز، منشورات وزارة الإعلام، بغداد ١٩٧٣، ص.

٧ - باقر، طه : مقدمة في تاريخ الأدب العراقي القديم، جامعة بغداد، بغداد ١٩٨٦، ص.

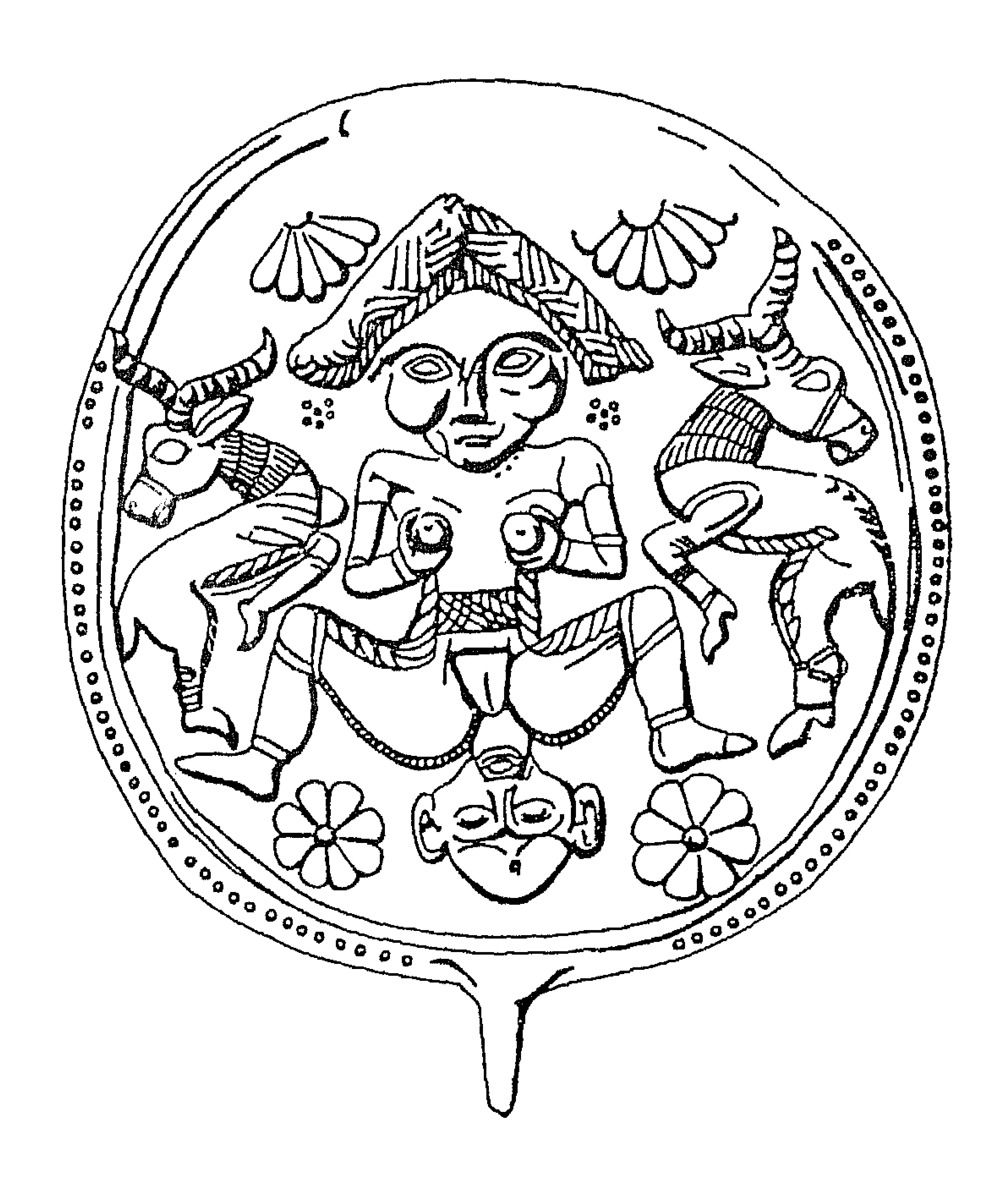
٨ - باقر، طه : ملحمة جلجامش، دار الرشيد للنشر، بغداد ١٩٨٠، ص.

٩ - المرجع نفسه

١٠ - كريم، صموئيل : المرجع السابق ص.

الفصل الثاني

ميثولوجيا الجنس والتكاثر



إمرأة في حالة ولادة ماسكة ثدييها وتحيط بها الحيوانات والنباتات

رأس دبوس برونزي من لورستان في إيران/ ما بين القرنين الثامن والسابع ق. م

يبدو لنا حلّ التكاثر، الذي اقترحته الأساطير العراقية القديمة، بديلاً عن الخلود من أكثر الحلول واقعيةً وشعبيةً، إذ لا خلود للإنسان الفرد بذاته بل أن الخلود هو من حصة النوع البشري بأكمله وهذا ما يحققه التكاثر والنسل.

والتكاثر مرتبطٌ بالجنس والجنس مرتبطٌ، عند الإنسان، بالحب. وهكذا تشكلت مثولوجيا التكاثر والجنس والحب في باقة واحدة واستمرت كذلك عبر العصور.

يمكن أن تكون مثولوجيا التكاثر والجنس قد نزحت منذ أقدم العصور الحجرية لكن العصر الحجري الحديث (النيوليت) قد أحكمها وجعلها شديدة التماسك وارتبط بالتكاثر والجنس البشري مع التكاثر الزراعي والحيواني.

ظهرت الدمى الأنثوية المكتنزة المعبرة عن الإلهة الأم مؤكدة على الأعضاء الجنسية وأعطتها حجماً مبالغاً فيه. وكذلك ظهرت دمى القضيب الذكري في فترة لاحقة ثم دمى الإله الذكر.

في دعاء سومري كتب إلى الإلهة إنانا في حدود ١٨٠٠ ق.م هناك سطورٌ تذكرنا بالدمى التيّ تحدثنا عنها قبل قليل والتي عبر من خلالها إنسان عصور ما قبل التاريخ عن الخصب بالسمنة المفرطة والثديين الكبيرين. فالإلهة إنانا هي ايضاً مصدر الخصب: الماء والنبات والحنطة والخبز... تتدفق كلها من ثدييها:

«أيتها السيدة، إن ثدييك هما حقلك

وحقلك الواسع الممتد الذي يسكب النبات

وحقلك الواسع الممتد الذي يسكب الحنطة

والماء متدفقاً من العلى للمولى والخبزُ من العلى

الماء متدفقاً من العلى للمولى والخبز من العلى

اسكبي للمولى المأمور ليشرب منك (١)

وهذا ما ينطبق أيضاً على الإله الذكر الذي ظهر إلى جوار الإلهة الأنثى فقد أصبح هذا الإله الذكر فيما بعد دموزي فقد لاحظ الأستاذ ملوان من خلال تنقيباته في تل أربجية بأن وجود دلاّيات من الحجر على شكل رأس وظلف الثور ووجود الرسومات الكثيرة لرأس الثور في فخار عصر حلف يشير إلى أن الثور كان في نظر سكان ذلك العصر في حدود ٤٢٥٠ ق . م رمزاً للعنصر المذكر في الطبيعة وأنه اعتبر نظيراً للآلهة الأم . ولا شك في أن هذه الملاحظة جديرة بالاعتبار ذلك أن الثور أصبح فعلاً في العصور التأريخية أحد ألقاب الخصب دموزي (تموز) (٢) .

وقد استمر التمجيد بالتكاثر والجنس حتى بعد الإطاحة بالإلهة الأم في العصر الحجري النحاسي (الكالكوليت) وسيادة الإله الذكري في العبادة والرجل في الزعامة القبلية والسياسية . . أصبح العنصر الذكري هو الأهم في الإنجاب والتكاثر فقد كان رحم الإلهة الأم سبب خصب العالم ، أما الآن فقد صار المني الذكري ومرادفه مطر السماء هما سبب الخصب ، وهكذا تراجعت أنوثة العالم أمام ذكوريته المجلجلة .

أصبح الرجل مركز العائلة ومركز المجتمع وصار الجنس ذكورياً وتنحّت الأنثى إلى الهامش وهو ما سبّب لاحقاً قتل وتدمير الإلهات الأم في الأساطير الخلقية . . ووصمها بالشر والموت .

أصبح الرجل يتزوج أكثر من إمرأة بعد أن كانت المرأة تتزوج أكثر من رجلٍ وسادت المجتمعات نزعة مركزية نشأت عنها المدن والدول والإمبراطوريات .

وحدة الإخصاب الكوني

كانت الحضارة السومرية أول الحضارات التاريخية المتجانسة في منظوماتها الروحية والمادية . . وقد كان ذلك بسبب من أن الحضارة السومرية هي أول حضارة أتت مباشرة بعد اكتشاف الزراعة وزيادة ارتباط الإنسان بالطبيعة وظواهرها (الماء، الهواء، المطر، التربة، النبات، الحيوان . . . الخ) ونظرة بسيطة للأساطير والآلهة السومرية توضح ما ذهبنا إليه إذ تكاد جميع الآلهة السومرية ان تماثل الطبيعة أو نشتق منها وفي نفس الوقت ترمز لشيء معنوي أو روحي وهذا ما عنيناه بمفهوم التجانس أو الايقاع المرهف والدقيق بين الجانبين الروحي والمادي وتلازمهما في أعمق صورة.

إنّ الكون السومري كون طبيعي مادي يسوده تجانسٌ روحي عميق حيث نرى أن الآلهة عندما تغضب عليه فإنها تغضب على كل ما فيه ويسود التوتر أو الدمار جميع موجوداته . . اي انها ترتبك جميعها وتصبح نوعاً من اللغط الكوني بعد أن كانت نوعاً من الإيقاع الكوني لننظر في هذه المرثية السومرية التي تصف ما حل بسومر نتيجة غضب الآلهة عليها :

أن تدمّر المدائن، وتدمر البيوت

أن تدمر الإصطبلات، وتباد حظائر الغنم

الا تقف ثيرانها [سومر] بعد الآن في إصطبلاتها

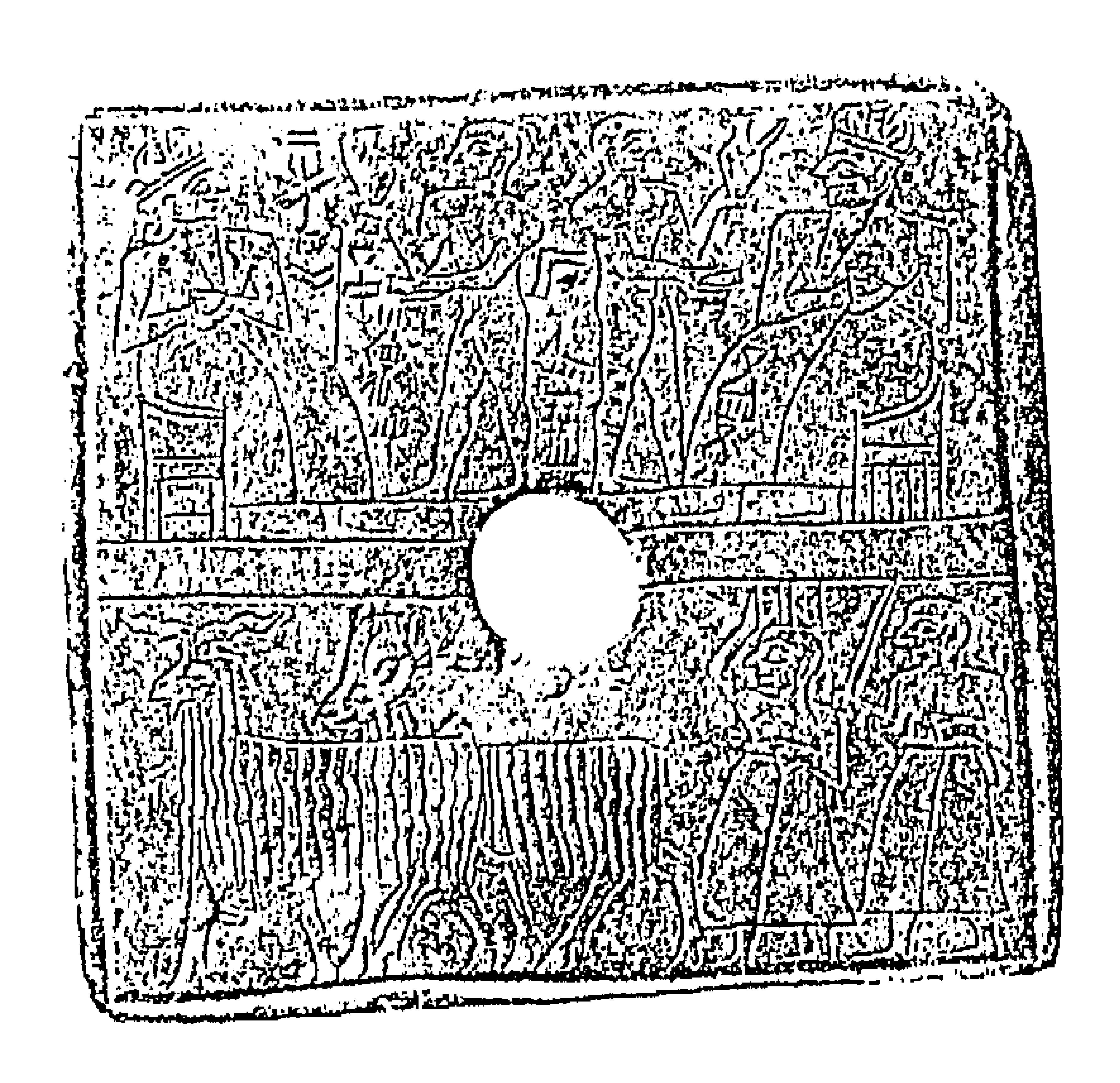
الاّ ترزح أغنامها بعد الآن في حظائرها

أن تجري أنهارها بماءٍ مرٍّ

أن تنبت حقولها المحروثة أعشاباً ضارة .
أن تنبت سهولها نبات العويل
الاّ تعنى الأمّ بأولادها
الاّ يعول الأب (آه يا زوجتي)
الاّ تبتهج الزوجة الشابة في حضن رجلها
الاّ يصبح الولد الصغير قوياً (على) ركبتين
الاّ تشدو المربية أغنيتها
أن تنبت ضفاف دجلة والفرات نباتاً يورث الأرض .
الاّ يطأ أحد الطرقات ، ولا يسعى أحد إلى الدروب
أن تتحول مدائنها وقراها الوطيدة الأساس خراباً
أن تسلم رؤوس أهلها إلى السلاح
الاّ تحرث حقولها ، ولا تغرس بذرةً في ثراها
الاّ تعطي حظائرها قشدةً ولا جبناً ولا تسمَّد أرضها
الاّ يدور الراعي قصب (شوكور) في حظيرة الغنم المباركة
الاّ تدوّي همهمة مخضّ اللبن في حظيرة الغنم
أن يقل عدد الماشية الكبيرة والصغيرة في السهول
وتأتي جميع المخلوقات الحية إلى نهايتها
الاّ تزرع المخلوقات من ذوات الأربع سماداً في تربة سوموجان
أن تنبت السباخ قصباً مريض الرأس ، ويأتي إلى نهايته بالنتن
الاّ ينبت شيء في الكروم والبساتين وأن تتلف جميعاً
هكذا قدّر آن وإنليل وننخرساج» (٣) .

وهكذا نرى أن الآلهة عندما تخلت عن سومر حصل اضطراب في جميع أركانها ووظائفها وتحديداً تعطلت الحياة والإخصاب فيها فالطبيعة أصبحت مجدبة والزرع لا يثمر والحيوانات لا تتكاثر والإنسان كذلك. ويمكننا ان نعكس الأمر ونرى كيف أن سبب هذا الايقاع الكوني للعالم وموجوداته هو من صنع الآلهة وبسببها فهي الموسيقى الكونية التي تتخلل الأشياء ويحدث فيها الإنسجام. . كما نرى في هذه الترنيمة المرفوعة لإنليل

«بدون إنليل، الجبل العظيم،
لا المدائن شيدت ولا المقار أسست
لا الاصطبلات شيدت، ولا حظائر الغنم أقيمت
ولا الأنهار مياهها العالية جلبت الفيض
ولا البحر أعطانا مختاراً كنوزه الوفيرة
ولا سمك البحر وضع بيضة في الأحواض
ولا طيور السماء نشرت أعشاشها على الأرض الرحيبة
لا الغيوم المحملة بالغيث في السماء فتحت أفواهها
ولا الحقول والمروج امتلأت بالحب الكثير
ولا الأعشاب والحشائش في السهول نبتت
ولا اشجار (الجبل) الكبيرة في البستان حملت ثمارها
ولا البقرة ولدت حملها في الحظيرة.
ولا الجموع الغفيرة من بني البشر اضطجعت آمنة
ولا البهيمة من ذوات الأربع ولدت صغارها
ولا رغبت في التناسل» (٤)



شكل (١٥)
الإله إنليل يستقبل الهدايا والخمور

في هذين النموذجين يمكننا أن نرى متلازمات الدمار والقحط تصيب الاخصاب الطبيعي (المياه والأرض) والزراعي (الحقول والبساتين) والحيواني (الاصطبلات والحظائر) والبشري (الأم وأولادها، الزوجة وزوجها) وينتقل الوصف بينها دون عناء فهي جميعاً تمثل دمار الحياة وخرابها. وكذلك نرى متلازمات الاخصاب الطبيّعي في (الزراعة والمياه) والإخصاب الجنسي (للحيوان والإنسان).

ويحق لنا أن نتساءل من أين يأتي هذا الإخصاب؟ . . . هل من الآلهة أم انها شرف عليه وتدبره فقط؟ هل من الأشياء بذاتها (الماء، الزرع، الحيوان، الإنسان) ما هو تحديداً هذا الاخصاب؟ . . . هل هو مادي أم معنوي ومن أين يأتي وكيف يشيع في الكون ويعطيه هذا الانسجام.

نلمح في قصيدة سومرية عن إنليل هذا المقطع :

تُقاربُ السما . . . فيكون الفيض إلى الأرض.

تلامس الأرض . . . فتكون الوفرة

من الأرض تصدر براعم الخصب

حكمتك . . ي الزرع، كلمتك هي الحبوب

كلمتك . . هي الماء الغامر، حياة جميع البلاد» (٥)

إذن . . فالكلمة . . (كلمة إنليل) هي سرّ هذا الإخصاب وهذه (الكلمة) هي (الماء) العامر و(حياة) جميع البلاد . . فالكلمة إذن هي الحياة، بمعنى أن الكلمة هي الإخصاب. لكننا في قصيدة اخرى عن إنكي (اله الماء والحكمة) نلمح هذا المقطع

«عندما رفع الأب آنكي (عيناً) على نهر الفرات

وقف بخيلاء كالثور الهائج

رفع قضببه، وقذف المني

فملأ دجلة بالماء الرقراق

البقرة البرية . . . . من أجل صغارها في المراعي، العقرب غزت الاصطبل

استسلم له دجلة كما الثور هائج.

رفع قضيبه ومعه هدية الزفاف

جاء بالفرح الى دجلة مثل ثور بريٍّ كبير عند الاخصاب

الماء الذي جاء به ماء رقراق، نبيذه حلو المذاق

الحبوب التي جاء بها، حبوبه الغنية، يأكلها الناس

ملأ ايكور، بيت إنليل بالمقتنيات

بأنكي . . إنليل يبتهج وتُسّر نيبور» (٦)

في هذه القصيدة اختلف الأمر وأصبحت قوة الاخصاب هي (مني إنكي) وهذا المني يضعه الاله إنكي في مياه دجلة والفرات . . إذن اصبح هناك أمران، قوة الاخصاب في (كلمة) الإله إنليل و(مني) الإله إنكي وهذا يعني أن قوة الاخصاب في (كلمة ومني) الآلهة . .

هنا تتحد القوة الروحية المعنوية (الكلمة) بالقوة المادية الجنسية (المني) . . أي أن روح الإله وبذرته التي تحمل روحه هي التي تجعل الكون مخصباً متدفقاً ويسري فيه

هذا النغم الحي العميق الحياة.

الاخصاب إذن مصدره إلهي وتصبح أمامنا هذه النتيجة هي المصدر أو الخلفية التي تصدر عنها فكرة تلازم الإخصاب الجنسي والزراعي في سومر ثم تلازم طقوسهما الذي سنراه على أوضح ما يكون في طقس الزواج المقدس.

تكاد الديانة السومرية في الكثير من جوانبها أن تكون ديانةً طبيعيةً رغم مكنونها الروحي فالسومريون «من الجانب الروحي قد طوروا ونظموا علماً كونياً (كوزمولوجياً) ولا هوتياً (ثيولوجيا) ينطوي على درجة عالية من الإمعان العقلي والأداء العاطفي العميق، مما جعل من ذلك العقيدة والدغماطيقا الأساسيتين لكثير من بلدان الشرق الأدنى القديم. من هذه الوثائق أمكننا أن نعلم أن السومريين كانوا يؤمنون بأن العالم قد خلقه ويدبر شؤونه آلهة يعملون مجتمعين برئاسة أربعة من الآلهة الخالقة هي آلهة السماء والأرض والهواء والبحر أي الآلهة المتكفلة بالعناصر الرئسية الأربع التي يتألف منها الكون)»[٧].

مثولوجيا الجنس

لا شك أن أعلى تعبير عن مثولوجيا الجنس والحب تمثل في قصائد الحب والجنس بين إنانا ودموزي، تلك القصائد التي تتمتع من الناحية الأدبية بأسلوب نادر تمثل في صدق المشاعر وعفويتها وفي ارتباط الجنس بالطبيعة والنبات والحيوان.

وقصة إنانا ودموزي التي تبدأ بالحب والغزل تنتهي بالفواجع والآلام.. فهي قصة تراجيدية في شطرها الأخير بعد أن بعثت إنانا بدموزي إلى الموت (العالم الأسفل) ثم بدأت تنوح عليه.

تتجلى اللمسات الجنسية الصريحة ببعض العبارات البسيطة أولاً:

«سوف يضع يده بيدي

ويضم قلبه إلى قلبي

وضعه اليد باليد.. ينعش الفؤاد

ضمّة القلب إلى القلب.. لذّته بالغة (٨)

ثم تتصاعد لغة الحوار العاطفي:

«إنانا فتحت له الباب

من داخل المنزل كانت تشعُّ أمامه

مثل ضوء القمر

دموزي تطلع اليها والبهجة تغمر قلبه

ثم أطبق عنقه على عنقها

وقبّلها» (٩)

وتأتي لغة الجنس المكشوف عندما تطلب إنانا من دموزي صراحةً مضاجعتها :

«أمّا بالنسبة لي أنا ، بالنسبة لفرجي ، أنا ، التلّةُ المنتفخة

فرجي ، أنا الصبيّة ، من سيحرثه لي؟

فرجي أنا ، هذه الأرض الرطبة التي هي أنا

أنا ، الملكة ، من سيضع فيّ ثيرانه

-أي إينين ، إنه الملك ، الذي سوف يحرثكِ

إن الملك دموزي الذي سوف يحرثكِ

-إحرث إذن فرجي ، يا رجل قلبي» (١٠)



شكل (١٦)

لوح طيني عثر عليه في موقع تلّو في جنوب العراق/حالياً في متحف اللوفر في باريس

وتشكل قصائد الحب والجنس لإنانا ودموزي جوهر طقوس الزواج المقدس الذي سيكون جزءاً من طقوس رأس السنة (الأكيتو) حيث يمثل الملك شخصية دموزي وتمثل الكاهنة العليا شخصية إنانا، وتكون غاية هذا الطقس إنعاش قوى الطبيعة التي شاخت وهرمت في نهاية العام الماضي.

المرآة المضادّة لإنانا

شكلت شخصيته أرشكيجال، في التراثين السومري والبابلي، قطباً مضاداً لإنانا (عشتار). فقد جسدت أسطورة هبوط إنانا (عشتار) إلى العالم الاسفل هذا التضاد، وبذلك تكون أرشكيجال قد وضعت في منطقة الموت والجدب والخواء والأمراض في مقابل إنانا الحب والجمال والحياة والجنس.

وإذا كانت إنانا محفوفة برموز الخصب والجنس، فإن أرشكيجال كانت محفوفة برموز الظلام والجدب والعالم الأسفل، وقد حاولنا جاهدين العثور على تجسيد تشكيلي مصوّر لأرشكيجال مقابل الصور الكثيرة لإنانا واهتدينا إلى مجموعة من هذه المجسدات التي نعتقد أنها تخصّ أرشكيجال لاغيرها.

على إناء مرمري مدوّر (شكل ١٧) عثر عليه في إحدى المدن السومرية تظهر في وجه منه إمرأة ذات تنورة مشبكّة تقف برجليها على لبوتين ملتفتتين اتجاه بعضهما. وتظهر المرأة وهي تمسك بكل يد ثعباناً مفتوح الفم فيما الزهرة السداسية الأوراق على يمين وجهها، ونرى أنّ هذه المرأة هي الإلهة أرشكيجال وأن اللبوتين والأفعوانين من رموزها في العالم الأسفل.

الوجه الآخر للإناء يحتوي على ذات المرأة شكلاً وهي تجلس على ثورين أو بقرتين وتمسك بكل يد تيار ماء فيما تحيط بها النباتات، ونرى بأن هذه المرأة هي الإلهة إنانا وأن البقرتين والماء والنّباتات هي رموزها في العالم الأعلى.

ويّوضح لنا هذا الإناء، بصورة غير مباشرة، أن أرشكيجال هي الوجه الآخر أو النصف الثاني من شخصية إنانا (عشتار) وهو ما يفسر لنا وصف عشتار أو إنانا بإلهة الحب والحرب.





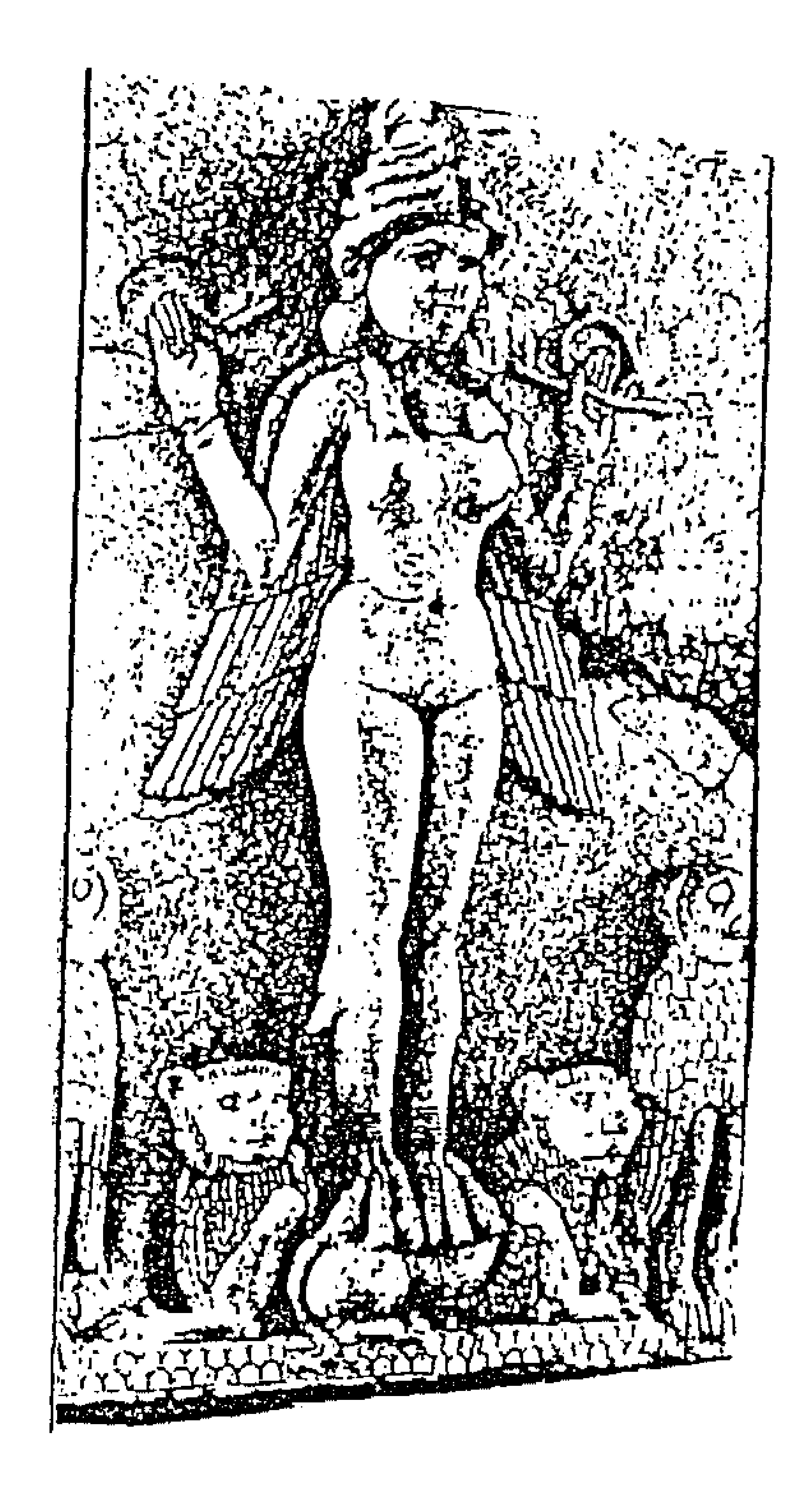
شكل (١٧)

إناء مرمري سومري، الشكل الأعلى : أرشكيجال محاطة برموزها كالثعابين واللبوات

الشكل الأسفل: إنانا محاطة برموزها كالماء والنبات الحيوان

وهناك منحوتتان آخريان تجسدان أرشكيجال ظلّ الباحثون وما زالوا يعتقدون أنهما للشيطانة (ليليث) الأولى تظهر إلهة ذات تاج مقرن (دلالة الألوهية) وهي تمسك بيديها رموز العدالة (اسم قصر أرشكيجال في العالم الاسفل قصر العدالة) ولها جناحان وهو ما يشير إلى أن هذه الإلهة كائنة هوائية يمكنها الطيران (شكل ١٨) وهي تقف بأرجلها التي تشبه أرجل العقبان والطيور على لبوتين تقف قربهما بومتين (دلالة على الليل) وتشير القاعدة إلى شكل العالم الأسفل (أقواس صغيرة متراكبة).

أما المنحوتة الأخرى (شكل ١٩) فتمثل أرشكيجال بنفس مواصفاتها السابقة ولكنها تقف على عنزتين أو جديين، والعنزة تمثل رمزاً من رموز العالم الأسفل دائماً.



شكل (١٨)

أرشكيجال تقف على لبوتين



شكل (١٩)

أرشكيجال تقف على عنزتين

وهكذا تتجلى شخصية أرشكيجال بوضوح في شكلها السلبي قياساً للإلهة إنانا، رغم أن شكليهما متشابه وأن جسديهما العاري ظل واحداً.

والحقيقة أن دراسة شخصية أرشكيجال تلقي الضوء كثيراً على ما يمكن تسميته بالخصب المضاد فهي شخصية ارتبطت بالامراض والجدب ولذلك كانت مسؤولة على الأمراض في العالم الأسفل هي وزوجها (نرجال) وهو ما يّوضح الجانب الآخر من مثولوجيا الخصب.

مراجع الفصل الأول/ من الباب الثاني

١ ـ على، د. فاضل عبد الواحد : عشتار ومأساة تموز. منشورات وزارة الإعلام. بغداد ١٩٧٣ ص , ٢٤

٢ ـ المرجع نفسه ص ٢٣.

٣ ـ كريم، صموئيل نوح : طقوس الجنس المقدّس عند السومريين (إنانا ودموزي) ترجمة نهاد خيّاطة. العربي للطباعة والنشر والتوزيع. دمشق ١٩٨٦ ص ، ٧٩

٤ ـ المرجع نفسه ص ٨٠.

٥ ـ المرجع نفسه ص ٨١.

٦ ـ المرجع نفسه ص ٨٢.

٧ ـ المرجع نفسه ص ٨٨.

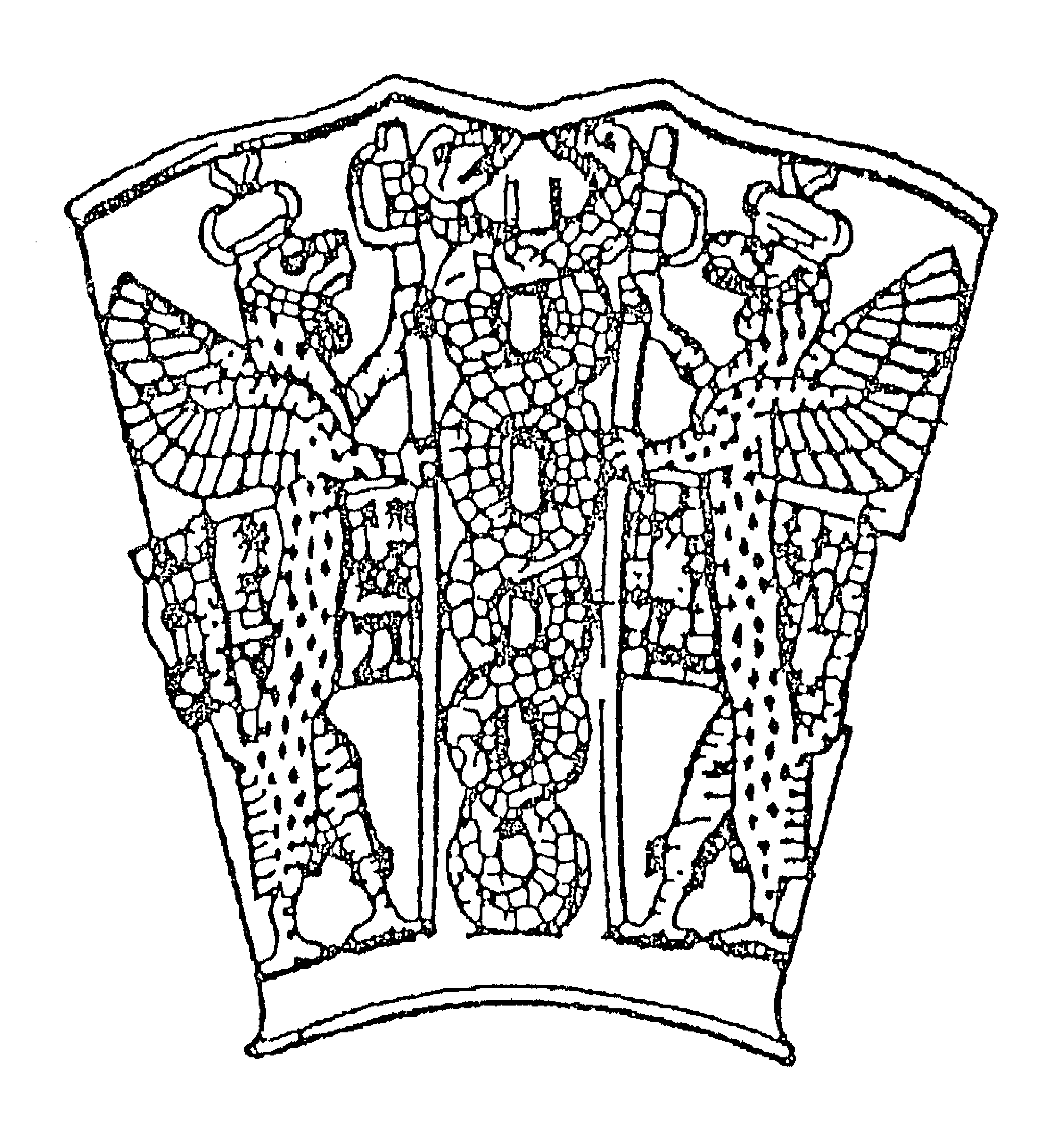
٨ ـ المرجع نفسه ص ١١٢.

٩ ـ الشوك، علي : من روائع الشعر السومري، منشورات الجمل، المانيا، ١٩٩٢ ص , ٥٣

١٠ ـ الشّواف، قاسم : ديوان الأساطير ـ سومر وأكاد وآشور. الكتاب الأول، تقديم وإشراف أدونيس، دار الساقي، لندن، ١٩٩٦، ص ١٢٣.

الفصل الثالث

ميثولوجيا الطب والشفاء



الكاديكيوس السومري (شعار الطب)

يبدو لنا اليوم أن الطب الحديث قطع شوطاً بعيداً قياساً إلى ما فعلتهُ جميع الأمم السابقة في هذا المجال، وهذا صحيح إلى حد بعيد لكن لبنات التأسيس يدين بها العالم كله إلى الطب العراقي القديم الذي وضّع نقاط الانطلاق الأولى التي سارت عليها الأمم الأخرى بضمنها اليونان والرومان.

ورغم اتساع شعاب البحث في الطب العراقي القديم يوماً بعد آخر وزيادة الكشف عن الرقم الطينية التي تحمل مادته وتأريخه وازدياد عدد المولعين بفك أسراره وماضيه إلاّ أن البحث فيه يجب أن ينحصر في زاوية محددة ليشبع نقاشاً وتحليلاً ورغم سعة النزعة العلمية في هذا الحقل إلاّ اننا اخترنا البحث في جانب روحي يرتبطُ بالطب العراقي القديم ويكاد يكوّن العمق الروحي والديني والفكري له أملاً في تحقيق الأمور الآتية :

١ ـ كشف الجذور الأولى لنشأة الطب العراقي القديم وهي جذور سحرية ودينية واسطورية.

٢ ـ تلمس وتحديد خارطة المادة الدينية والسحرية والاسطورية في الطب العراقي القديم وقياس حجمها بالنسبة إلى المادة العلمية ومعرفة مدى تأثير الحقلين على بعضهما.

٣ ـ اثبات مدى التجانس الروحي والمادي الذي كان يسود العلوم العراقية القديمة وبضمنها الطب وهو تجانسٌ منطلقٌ من انسجام النزعتين الروحية والمادية في نفس وعقل الانسان العراقي القديم.

٤ ـ ان عزل وقياس النزعة الدينية في الطب سيساهمُ في عزل وقياس ومعرفة النزعة العلمية في الطب.

٥ ـ التحقق من ارتباط الفكر بالطب وتأثير ذلك على اليونان الذين ربطوا الطب بالفلسفة ثم عمل العرب على الفصل بينهما من خلال النزعة التجريبية عندهم رغم أن معظم الاطباء العرب مارس الاثنين معاً ليتمكن من وضع حدود كلٍّ منهما .

وتراث وادي برفدين حافل بنزعته الدينية والأسطورية بل أن كل هذا التراث ينام على شبكة لا هوئية شبه ميتافيزيقية وأن الانسجام ليسوده بسبب الدقة العالية في نسيج هذه الشبكة ونظمها . ولا سبيل لأي باحث وفي أي مجال من أنشطة وادي الرافدين أن يمضي بدقة وروية إلاّ آذا كان محصناً بمعرفةٍ معقولةٍ عن هذه الشبكة اللاهوائية التي تكسب هذا التراث شخصية خاصة .

لقد نشأت الميتافيزيقيا وهي النظر العقلي في قوى الكون الماورائية مع اليونان ولكن وادي الرافدين ووادي النيل مهداً لنشوء هذه الميتافيزيقيا بمجموعة كبيرة من النزعات القبل ـ ميتافيزيقية فقد كان التعويلُ على قوىً ما ورائية يتغلغل في كل النشاطات الدينية والاسطورية والسحرية في وادي الرافدين . . إلاّ أن هذا كان منطلقاً من أحاسيس وحدوس أوليّة . . . وتبدو لنا قفزة اليونان الكبيرة في جعل الميتافيزيقيا والفلسفة نظراً عقلياً صرفاً في مكونات الكون ومحركاته انجازاً نوعياً . . لكن ذلك ما كان ليتحقق لولا تشرب الفكر الديني بالنزعات الميتافيزيقية الفطرية والحارة ، ولذلك يميل رأينا إلى أن العلوم بعامة في وادي الرافدين كانت تمشي في مسارين لا ينفصلان هما العلم المرتبط بالدين وملحقاته والعلم المجرد ، وكان كل مسار ينشط الآخر ويعمل على تقويته لكننا لا بد أن نشير إلى أن العلم المرتبط بالدين كان أكثر شعبية لأنه يحرك في الناس احساساً عميقاً . . . بينما كان العلم المجرد مقصوراً على نخبة علمية مكافحة عظيمة السعي تحاول تحقيق اهداف مجردة يناديها في ذلك صوت العقل والعلم ، وليس من الطبيعي أن نفصل بينهما على اعتبار ان احدهما صحيح والآخر مخطيء . . لانهما كانا متظافرين يعملان معاً للوصول إلى الحقيقة .

ويكاد الطب العراقي القديم يكون نموذجاً لهذا الاشتباك فهو طبٌ دينيسحري وطبٌ علمي في الوقت نفسه وكان القطبان واضحين في فرزهما وتلازمهما في الوقت نفسه فالمريض نفسه كان يشرف عليه كاهن ساحر طبيب اسمه (أشيبو)

وطبيب فاحص علمي اسمه (آسو) وكان لكل منهما وظيفة لا تتعارض مع الأخرى بل تكملها.

وقبل الدخول في الموضوع لا بد لنا من تحديد الفلسفة التي كان يقوم عليها الطب العراقي القديم وهي فلسفة صراعٍ كوني أكثر منها فلسفة سكون محلي وتكمن في وجود قطبين أساسيين الأول تمثّلهُ الآلهة التي تأمر بحدوث الأمراض وتشرف عليها وتدفع مجموعة من شياطين العالم الاسفل لتنفيذها كلٌّ حسب اختصاصه والثاني هذه الآلهة التي تشفي الامراض وهي آلهة علوية تسكن في السماء أو سفلية تسكن في العالم الأسفل وهذا يعني أن هناك صداماً بين الآلهة الشافية للأمراض والشياطين المسببة للأمراض أي أن الطب في جوهره هو صراع بين عناصر سفلى شيطانية وعناصر إلهية وهذا هو الذي يفسر لنا وجود الكاهن المسؤول عن الطب (أشيبو) والذي يقوم بدور الوسيط الروحي كنوعٍ من المصالحة أو المفاوضة فهو يتوسط عند الآلهة الشافية ويردع الشياطين بالتعاَزيم والرقى أما اذا خان الأمانة وتحالف مع الشياطين ضد المريض وهو ما يسمى بـ(السحر الاسود) فعند ذاك تعاقبه الآلهة والقوانين التي يُعمل بها، ثم يأتي بعد ذلك دور الرجل الثاني الذي (امتهن الطب) وهو طبيب صرف يسمى (آسو) الذي يقترح العلاج المرتبط بالمادة الطبيعية لا بالآلهة.

ويبدو لنا وجود الأشيبو والآسو انعكاساً للحياة العامة وتحديداً لنظام الحكم في العراق القديم حيث تتلازم أيضاً مهمة (الإنسي) أي الكاهن الأكبر والملك أي (لوكال) في حياة الحكم والسياسة اليومية والتي كانت تكمن في جوهر واحد هو الملك الكاهن (أن) وهذا يعني أن جوهراً واحداً متماسكاً كان يحرك الحياة في وادي الرافدين ويمنحهُ تجانساً كونياً.

***

يشكِّل الدين منظومةً من العقائد النظرية والشعائر العملية التي تتلازم فيما بينها وتتصل بعمق، ونكاد نلمحُ في شكلي الدين، العملي والنظري، كافة الاشكال العقائدية والروحية التي سبقت الدين مثل العبادات البدائية والسحر والأساطير خصوصاً في الأديان الوثنية، أما الاديان التوحيدية فتعبر عن شكلٍ روحي أرقى

وأعظم ويرى فريزر أن العالم من حيث العلاقة بين الإنسان والكون قد مرّ بثلاث مراحل كبرى هي «مرحلة السحر ثم مرحلة الدين وأخيراً مرحلة العلم الذي يعتبره فريزر قمة ما وصل إليه الإنسان من ناحية ونهاية الإنسان نفسه التي سوف يلقى حتفه فيها من ناحية أخرى. وفكرة التمييز بين ثلاث مراحل في تاريخ الإنسان والمجتمع كانت شائعة شيوعاً كبيراً في كتابات علماء الاجتماع والانثروبولوجيا في القرن التاسع عشر وإن اختلفت التسميات من عالم لآخر. إذ نصادفها في قانون الحالات الثلاث الذي قال به اوجيست كونت August conte والذي بمقتضاه ميّز بين ثلاث حالات أو مراحل أساسية للمجتمع الإنساني هي المراحل اللاهوتية والميتافيزيقية ثم الوضعية. ولكن هذا التقسيم الثلاثي بلغ ذروته عند علماء الانثروبولوجيا الأوائل»(١).

ويميز السير جيمس فريزر بين السحر والعلم بطريقة دقيقة فهو يرى أن «السحر صورة من صور تطبيق ـ أو على الأصح إساءة تطبيق ـ مبادئ تداعي وترابط المعاني، ولذا يطلق عليه في كتابات كل من تايلور وفريزر إسم «العلم الزائف» أو «العلم الكاذب» pseude - science»(٢).

ثم يضيف إلى ذلك تمييزه بين السحر والدين ويرى أن ما نسميه نحن سحراً هو «علم» الرجل البدائي الذي يتحدد بمدى معرفته بأسرار الكون وظواهر الطبيعة، بينما ينشأ الدين من اصول أو مبادئ مختلفة كل الاختلاف عن الاصول أو المبادئ التي يقوم عليها علم البدائيين (السحر) الذي نسميه علماً زائفاً أو كاذباً، وعلم المتحضرين على السواء وربما كان ذلك هو السبب الرئيسي في اهتمام علماء الانثروبولوجيا والاجتماع بالتمييز بين السحر والدين وتبيين التعارض بينهما مما أدى إلى ظهور كثير من النظريات التي تعتمد كل منها على مقاييس مختلفة للتمييز بين الإثنين. ولقد أقام فريزر تمييزه بين السحر والدين على أساس أن الدين يشترط الاعتقاد في الكائنات الروحية أو الالهية والأرباب بينما يتألف السحر من الأعمال والممارسات والشعائر التي تتصل بالكائنات الأخرى»(٣).

إن الديانات الوثنية تتغلغلُ في حياة الإنسان القديم.. في كل نشاطاته الاجتماعية والاقتصادية والعلمية وتعمل تفاصيل هذه الديانات على شد حقول هذه

النشاطات إلى بعضها وجعلها تتطور وتدور في تساوق محدد يكون الدين مركزه الذي يبث فيه الروح والحياة «ان الديانات الوثنية ليست مبنية على فكر منطقي بقد ما هي مبنية على الحياة وتجربة الأجيال واخراجها من غلاق حياتها لنجعل منها بناءً منطقياً جميلاً هو، بمعنى من المعاني، خيانة لها، فهي لا تستطيع أن تنتقل خارج مناخها الاجتماعي» (٤).

واذا نظرنا الى علاقة العلم بالدين في العصور القديمة فعلينا ان نحذر تماماً من فصلهما أو اقامة التعارض الحاد بينهما اذ قد يصح هذا في عصرنا حيث نطوّر العلم إلى آفاق بعيدة أما في الماضي فقد كان العلمُ ينصهر تماماً في بوتقة الدين ويشكلّ جزءاً منه.

ويصح مثل هذا عندما ننظر الى علاقة الطب بالدين في العصور القديمة منهما متلازمان تلازماً كبيراً أكثر من غيرهما لأن في الدين شفاء الأرواح وفي الطب شفاء الاجساد، والروح داخل الجسد وسبب حياته.

لقد كان الطب والفلك والكيمياء جزءاً من الدين وكانت شعائر الشفاء والتنجيم وتكوين الأدوية جزءاً من الشعائر الدينية التي كانت تهم حياة الأفراد والجماعات وتعمل على تنظيمها فهي أنظمة إلهية منحتها الآلهة للبشر.

وكانت المعابد أماكن الطب والفلك والكيمياء ففي المعبد كان الناس يتعالجون والمعبد هو أول مستشفى أو عيادة طبية كان الناس يسعون اليه وكان كاهن (أشيبو) هو الذي يشرف على العلاج ليؤدي لهم الطقوس والتعاويذ العلاجية الخاصة «وكانت النساء الحوامل على وجه الخصوص عرضة لهجمات الأرواح الشريرة، ولكي يقين أنفسهن منها كنّ يدعين الأشيبو اليهن الذي كان يلبي لهن حاجتهن باداء وحتى (يرم العقد) وتلاوة الرقي المناسبة. إذ كان الاعتقاد ان مختلف الامراض الشائعة سببها تأثير الارواح الشريرة، ولكي يبطل هذا التأثير كان يدع (الأشيبو) لأداء الطقوس وتلاوة التعاويذ التي من شأنها تخليص المريض من سطوة الروح الشريرة» (٥).

كان المعبد إذن دار الغرباء، وهو الاسم الذي أطلق فيما بعد على المستشفى،

وكان الكاهن أو رجل الدين هو الطبيب الأول وهذا ما يفسر وجود رجل الدين (أشيبو) مع الطبيب (آسو) في وادي الرافدين يقومان معاً بمهمة الشفاء والعلاج.

المرض كغضب الهي

الشفاء كطقس ديني

كان العراقيون القدماء يعتقدون بأن المرض نوع من أنواع الغضب الإلهي فمن «المعروف أن العراقي القديم قد عزا أسباب الأمراض الى العفاريت وأرواح الشر الخفية المرسلة اليه من قبل الأرباب نتيجة ذنب قد جناه بصورة عفوية أو غير عفوية»(٦) اي أن الإنسان أخلّ بالنظام الذي اقرّته الآلهة ولذلك فإن عقابه يكون بالمرض الذي إما يؤدي به إلى الموت فيعود النظام الإلهي كما هو أو يجعله يئن ويتوجع ويتذكر الآلهة من جديد فيتعظ ولا يعود يغضب الآلهة (وهناك نصٌ يشرح بأن المريض ربما قد حصل على مرضه من ذنب ارتكبه هو أو أبوه أو جده أو أمه أو جدته أو أخوه الأكبر أو أخته الكبرى أو عائلتهً أو أيٍّ من أقاربه أو حتى قبيلته)(٧) ولأن الأمر مرتبط بالآلهة فلا بد أن يكون الشفاء على يد إنسان قريب من الآلهة وهنا يأتي دور الكاهن الذي يتوسط بين المريض والآلهة لإرجاع ما سبّبه الإنسان من أذىً للنظام الإلهي.. ولذلك يقوم الكاهن (الأشيبو) بطقس خاص يحاول فيه ارضاء الآلهة لكي ترضى عن المريض.. ويقوم أيضاً بدور تشخيصي حيث يعرف أيّ الآلهة مسؤول عن مرضه ثم يعرف أيّ الشياطين التي سخرت لاذيته وهذا هو عماد طقسه التعويذي العلاجي.

والآلهة تغضب على الإنسان لأنه من خلقها ولأنه عبدٌ لها وتغضب بصورة أشدّ لأنه على صورتها معنوياً أو مادياً «فالتشابه بين الآلهة والإنسان الذي عمل أو خلق على شكل هذه الآلهة فهو لا يأخذ أكثر من طابع مادي: فالتشابه الموجود بين البشر والآلهة يرجع إلى كون أجساد الآلهة وكيانها ولمعانها وقوتها لا يدخل ضمن نقاط التشابه وما يدخل فيه هنا ليس أكثر من تبرير وهكذا نجد مثلاً أن الآلهة قد صنعت جلد (جسد) الإنسان مشابهاً لجلد اله»(٨).

وهناك جدول يعدد آثام الإنسان التي يرتكبها الإنسان بحق الآلهة اسمه (شربو) وهكذا تتساوى جميع هذه الآثام لأنها تؤدي إلى نتيجة واحدة هي مرض الإنسان والزنى والقتل كانا بالنسبة للبابلين من الناحية العينية على مستوى واحد من الاهمال في القيام بطقس ديني وذلك لكون النتيجة متشابهة وهي اثارة غضب الآلهة وبالتالي جلب (الشيطانّ) ومعالجاته الشريرة على الخاطئ. وبهذا فإن الإثم أو الخطيئة لم تعبّر أبداً انتهاكاً لحرمة الآلهة نفسها ولعظمتها وشرفها وكذلك لقوتها ولكن لنتائج الخطيئة المؤذية وهنا فإن فكرة القوانين هي عقابية بحتة مطبقة في الخلق الديني»[٩].

هرمس السومري أول طبيب في التأريخ

اختلفت الآراء حول شخصية (هرمس) فقد عدّها البعضُ شخصيةً خرافية لا وجود لها وقد نظر إليها البعض الآخر على أنها شخصية بابلية وجدت قبل أو بعد الطوفان ونظر إليه على أنه شخصية مصرية بنت الاهرامات وعلّم الحكمة والعلوم ونسبه اليونان إليهم[١٠].

ولكن الآراء مهما اختلفت كانت تؤكد على أن هرمس هو أول من ابتكر العلوم ومنها الطب والتنجيم والهندسة والرياضيات والحكمة وأنه تسلمها من الآلهة ومنه انتشرت في ارجاء العالم القديم.

ولنا رأيٌ خاص في شخصية هرمس ناقشناه بالتفصيل في بحثنا الوسوم (الفلك والتنجيم في العراق القديم)[١١] خلاصته أن هرمس هو الملك السومري (أنسيبازي أنّا) ويسميه بيروس (ايفيدوراكيس) الذي حكم مدينة سبّار قبل الطوفان وتسلم من الاله إنكي المعارف والعلوم ونشرها شرقاً إلى فارس والهند ورحل غرباً إلى مصر وسمي هناك (هرمس ـ طوط) و(إدريس) وربما يكون قد بنى الأهرام ولكنه علّم السحر والطب والعرافة والحكمة للمصريين وقد بحثنا في إثبات ذلك تفصيلياً وبذلك يكون هرمس السومري أول عالم موسوعي علمّ العلوم للبشر كلها ويرتقي هرمس الى مرتبة النبي في التاريخ الديني . . وهذه الدلالة هنا أيضاً لإثبات أن العلوم والطب منها إرتبط بالدين في نشأته الأولى وتدلُّ شخصية هرمس على هذا.

ولكننا بالتأكيد أمام شخصية من هذا النوع ، لا نستطيع أن نحصل على أيّ نص حقيقي له رغم ما نسب إليه من نصوص كثيرة خصوصاً تلك النصوص الفلسفيةً اليونانية التي وضعت مصدراً للإفلاطونية والفيثاغورية .

يخبرنا المؤرخ البابلي بيروسوس Berosos من القرن الثالث ق . م بأنه خلال مدة حكم الملك ألوروس Aloros الذي حكم بعد الطوفان خرج الوحش أوئنيس Oannes من البحر وكان على شكل إنسان في لباس سمكة وعلّم الملك وشعبه مختلف أنواع الحرف والقوانين والعلوم التي منها الطب [١٢] وهذه الاشارة لها علاقة بما ذكرناه. رغم ما يشوبها من الروح الاسطوري (شكل ٢٠).



شكل (٢٠)

الإله إيا ، ويبدو بلباس سمكة يشبه الوحش أوئنيس

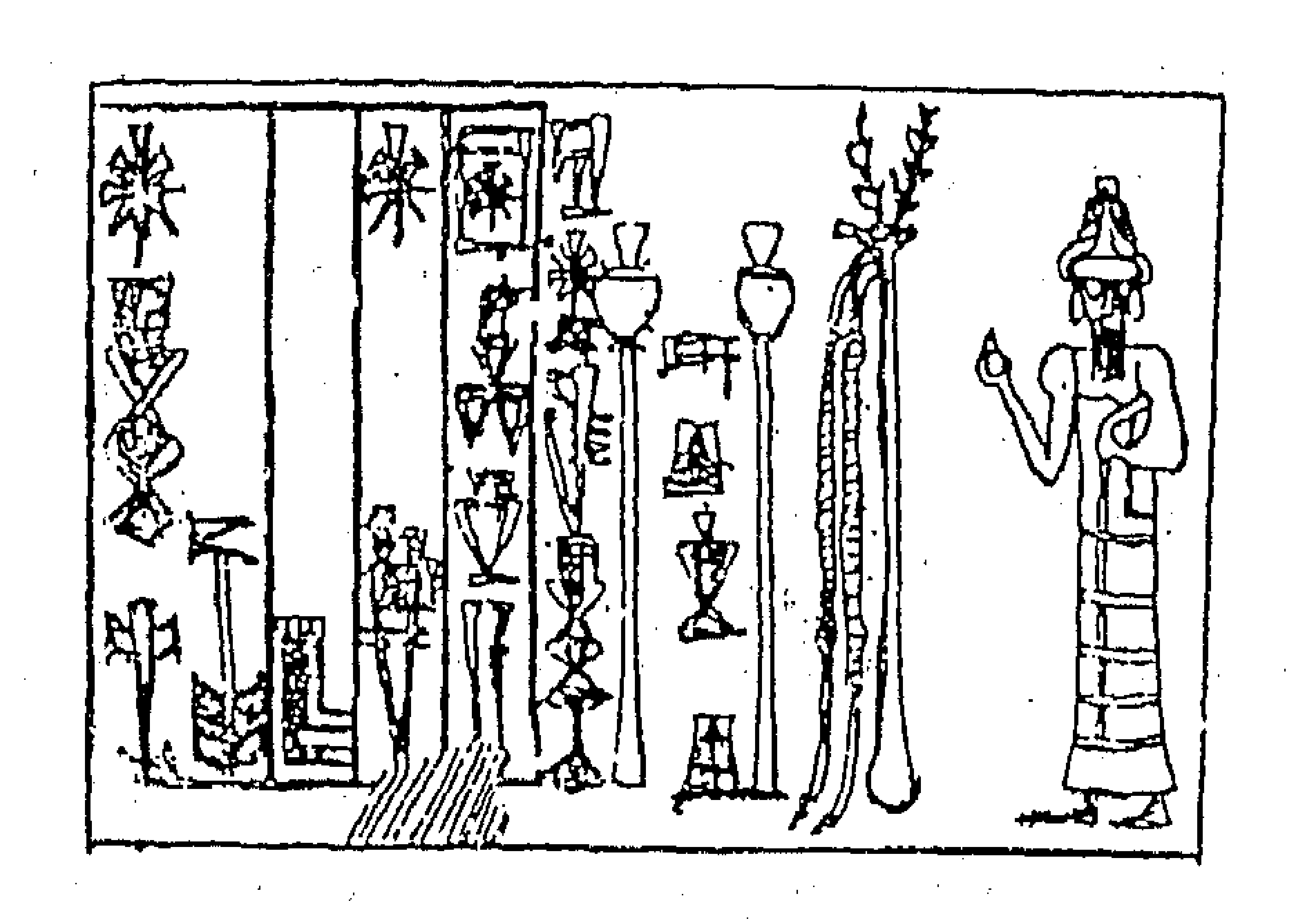
الكهنة والأطباء

ينقسم التراث الطبي في العراق القديم إلى مدرستين كبيرتين :

١ . **المدرسة العملية** وهي المدرسة التي كان يقودها (الآسو) أو (المتعاطي مهنة الطب) وهو ما نسميه في عصرنا هذا بالطبيب أو الفاحص Physcian وسمي الطبيب بالآسو أو A-ZU أزو (الخبير بالماء أو الزيت) وهذه تدل طبعاً على الأهمية التي لعبها الماء في المداواة عند البداية وكونه نقطة الانطلاق في العلاج الطبي لديهم .

فالطبيب يكون بذلك الرجل الذي يسترشد بالماء (ليكانومانسي Lecanomancy) لمساعدة الإله أيا رب الماء)[١٣].

وكان للطبيب مساعد ربما يكون هو الحلاق (كَلابو) «الذي ربما كان مساعداً للطبيب ويقوم بالعمليات الصغرى. وربما كانت هناك جدة مختصة بالتوليد على ارتباط بالطبيب. هذا ونعرف بأن الحلاقين كانوا يقومون بعمليات الاسنان، ومن أن هناك دليل متوفر عن وجود طبيبة خاصة بالقصر في العهد البابلي القديم»[١٤]. وتعتبر هذه المدرسة خارج الدين وخارج الكهانة. ويُظهر ختم اسطواني يعود إلى الطبيب السومري (أور لوكال أدنا) مجموعة من الأدوات الطبية والاعشاب التي يمكن أن يكون الآسو قد استعملها (شكل ٢١).



شكل (٢١)

ختم أسطواني يعود إلى الطبيب السومري (أور لوكال إدنا) وتظهر فيه آلاته الطبية

المكان والزمان : لجش، الألف الثالثة ق.م

٢ . **المدرسة الدينية** وهي المدرسة التي كان يقودها الـ (أشيبو Ashipu) أو الكاهن الطبيب أو الحكيم الطبيب وقد تكون هذه التسمية هي المرجع الأول لتسمية الطبيب بـ (الحكيم) وتختلط هذه التسمية بالساحر والكاهن ونرى أن هذه المدرسة العلمية تضمّ نوعين من الكهنة :

أ ـ الأشيبو أو الأشيفو Ashipu وهم كما قلنا (كهنة الشفاء) كما يدل اسمهم وكانت علاقتهم بالأرواح الشريرة المسببة للأمراض والسيطرة عليها (وكان هؤلاء الكهان يحملون اسم (مشماشو) واسم (أشيفو) وكانت وظيفتهم وقاية الناس من شر هذه الأرواح) (١٥)ويبدو أن اسم مشماشو مشتق من الماسحين بالزيت والماء وهم الماسحون بالزيت والماء ويبدو ايضاً أن هذا هو اصل تسمية المسيح أو الممسوح بالزيت (مشماشو) .

(ويربط الأشيبو المرض مع القوى غير المنظورة وتأثيرها ويعتمد في عمله على قراءة الرموز بمهارة ، ويشخّص الأشيبو وسيطاً يضع عليه مسؤولية الاعراض التي يشكو منها المريض بينما يرى الآسو المرض عبارة عن علامات وأعراض عليه دراستها بدقة ومعرفة الداء على أساس خبرته الماضية كما يشخص لها الدواء فهو لا يضع تأكيداً على القوى غير المنظورة كما في حالة الاشيبو ويعتمد على التشخيصات ومعالجاته بأوصاف طبية . ونجد هناك عبارة (انه لم يستطع شفاءه لا من قبل علم الطبيب ولا من قبل الساحر) . وهذا معناه بأن هناك إدراكاً بأن كلاً منهما منفصل عن الآخر ولكنهما بنفس الوقت متعاونان في العلاج والتشخيص»[١٦] .

ب ـ البارو Baru ومعنى هذا الكلمة (الرائي) ويمكن ان يدل معناها على البؤرة أي الذي لديه حسٌ بؤري أو بثري يرى ما لا يراه غيره وهناك من رأى بأنها تدل على (البارع) [١٧] ولكننا نرى أن كلمة البارو هي الجذر اللغوي البابلي لكلمة (البارئ) العربية وهي واحدة من أسماء الجلالة وتدل على من يبريء الأمراض من الجسد . وكان كهنة البارو «يستطلعون الفأل ويفسرون الأحلام ويرافقون الملك في حملاته ، ويحددون الأهلة والأيام المناسبة للشروع في عمل وكان إعداد الروزنامة ورصد الأهلة والكواكب وتعيين أيام السعد والنحس يشكّل جانباً من مهام البارو . وقد ورد ذكرهم وذكر اعمالهم كثيراً في مراسلات آشور» [١٨] .

لقد أضفنا كهنة البارو (العرافين) إلى كهنة الطب لأنهم يقومون بدور تنبؤي تشخيصي حيث يمهدون لأعمال (الأشيفو) و (الآسو) رغم انهم يتناولون شؤوناً مختلفة من الحياة لكننا سنتناول نشاطهم الطبي الذي كان زاخراً فهم يربطون الطب بمراقبة الظواهر العامة والاحشاء والولادات المشوهة والحيوانات والطيور والاحلام والنجوم وهذا يعني أننا حاولنا تسليط الضوء على نشاط طبي ميتافيزيقي آخر هو العرافة الطبية (الباروئية).

كانت المدرستان مترابطتين في نشاطهما «ولم تكن هاتان الطريقتان متباعدتين عن بعضهما) حيث أن المعالجة الطبية تمتزج بالممارسة السحرية بينما تستفيد الممارسات السحرية من استخدام الوسائل الصيدلانية لمكافحة الأمراض وتتألف العناصر السحرية التي استخدمها متعاطي الطب في بعض الشعوذات المقتضية التي تعتمد على سحر الاعداد (مثل سبع قطرات من سائل، وعلى الرمزية مثل ربط العنق»[١٩].

ورغم أن البداية الطبية في العراق القديم كانت مرتبطة بالسحر والدين لكن هذا لا يمنع قدم الممارسات الطبية الخالية من أثر الدين والسحر لأن «أقدم ما كتب في الطب هي لوحة (نيبو) التي يعود تأريخها إلى نهاية الألف الثالث قبل الميلاد ولهذه اللوحة أهمية بالغة ليس لقدمها فحسب بل لأن ما ورد فيها من وصفات ومعالجات كانت خالية من ذكر الأرواح والسحر والتعاويذ، معتمدةً إعتماداً كلياً على المادة في التطبيب وفي هذا دفع لما ألصق بطب وادي الرافدين من أنه بني على السحر والدجل» [٢٠].

لقد كان السحر أو الدين يؤديان عملاً مكملاً للطب لا مناقضاً له وكانا يمضيان بتساوق وانسجام لكن بعض العصور حفلت بصعود أحدهما على حساب الآخر وبشكل يبدو متناوباً ويمكن أن نقول بأن أحدهما كان يحفز الآخر وينشّطه «ان كافة المادة عن الطبيب المتعاطي مهنة الطب» والطبيب (العلمي) تبدو على أنها تدل على فقدان منزلة متعاطي مهنة الطب خلال الألف سنة التي تفصل العهد البابلي القديم عن العهد الآشوري الحديث، بينما ارتفعت منزلة الطبيب (العلمي) وأصبح مرتبطاً بالبلاط الملكي، إلا أنه من غير الممكن التقرير إلى أيّ حد قد قدموا من المعالجة الطبية

الفعلية، لكننا نفترض أنهم قد اضطلعوا بوسائل متعاطي مهنة الطب» (٢١).

ويؤكد على التلازم والترابط بين الدين والطب الباحث الفرنسي رينيه لابات فيقول «بالنسبة إلى نوع معين من المرض نجد ذكر وترميم عدة علاجات بعضها سحري والاخرى علمية وكل واحد مفصول عن الآخر بفواصل (خطوط فاصلة) وفي بعض الأحيان مفصولة بفواصل مبالغ فيها وواضحة جداً ولتأكيد عدم الخلط هذا انه لو رفعت هذه الفواصل وجمعت العلاجات حسب ترتيب أصلها الطبيعي فإن القاريء يستطيع أن يميز الوصفات الطبية العلمية عن السحر وأكثر من ذلك نجد غالباً ذكر اسم (العلم) مميزاً عن غيره) (٢٢).

وسنجد هذا التلازم والتمييز بين شخصية الطبيب في التراث العربي لاحقاً فقد جاء عن ابي رمثة قال أتيت رسول الله (ص) مع ابى فرأى التي بظهره، فقال : يا رسول الله، ألا اعالجها لك فأني طبيب! قال : «أنت رفيق، والله الطبيب» أي انك تتلطف المريض والله هو الذي يشفيه».

الآلهة الطبية في العراق القديم

يمكننا إجمالاً تقسيم الأساطير العراقية القديمة إلى مجموعتين : الأساطير السومرية والاساطير البابلية. وتشكّل الأساطير السومرية نواة الديانة السومرية وهي أصل الاساطير البابلية بل وأصل الأساطير القديمة في الشرق المتوسطي والتي لا تناظرها في عراقتها وضبط هيكلها أية اساطير قديمة وقد وصلتنا باللغة السومرية منذ الألف الرابع ق. م وما بعده.

أما الأساطير البابلية فتضم إجمالاً الأساطير الأكدية والبابلية والآشورية وهذه العناصر الثلاثة هي نفسها عناصر ما نسميه اجمالاً باللغة البابلية وهي لغة سامية عربية وقد ورثت الديانة واللغة والأساطير البابلية تراث سومر وانتجت منها مادةً جديدة.

(ان كلمة ميتوس (Mythos) عند الاغريق تعني حكاية. وكلمة «أسطورة» العربية مقتبسة من كلمة (استوريا) (Historia) اليونانية أيضاً وتعني حكاية أو قصة

الاّ إن كلمة أسطورة تعني حكاية غير حقيقية أو على عكس الحقيقة، بينما الكلمة ذاتها (Historia) تعني «تاريخ» و «لوغوس» الكلمة Logos صارت «علم» هكذا أصبحت كلمة ميتوس المترجمة «اسطورة» بعكس «لوغوس» أو «استوريا» تعني شيئاً غير موجود في الواقع أي خرافة. وكلمة «ميثولوجيا» تعني علم الأساطير»[٢٣].

والحقيقة أن الأساطير تمثل خزانة الوعي البشري القديم فهي تعبر عن الدين بصورة رئيسية ولكنها تخزن علوم ومعارف وفلسفة الأولين «إن الاكتشافات المعاصرة ودراسة المجتمعات القديمة تبيّن أنه بالنسبة للإنسان البدائي كانت الأسطورة تعني قصةً حقيقية، بل قصةً مقدسة أيضاً لأنها كانت تمثل الحاجات الدينية والحكم الاخلاقية والمتطلبات الاجتماعية. لذا كانت الأسطورة جزءاً . . حيوياً من الحضارة القائمة وليست مجرد قصة تروى للتسلية، قصة مقدّسة أبطالها من فوق الطبيعة والبشر، تفسر الخلق وأصول الأشياء، وما عملت الآلهة انما هو قدوة للبشر)[٢٤].

ويرتبط الطب بالأساطير ارتباطاً وثيقاً لأن الآلهة التي تأمر بحدوث الأمراض هي آلهة أسطورية والآلهة التي تشفي هي آلهة اسطورية أيضاً وهذا يعني أن أسباب المرض وعلاجه ذات أصل إلهي أسطوري أما المرض وأعراضه فيقع على المريض نفسه وينبئنا جدول أنساب الآلهة السومرية [٢٥] وجدول أنساب الآلهة البابلية حسب ما جاء في ملحمة الخليفة البابلية أن هناك أجيالاً من الآلهة يمكننا إجمالاً أن نجد من خلالها الآلهة التي لها علاقة بالطب :

١. **الجيل الأول (آلهة الماء أو الهيولى)** : وهي الآلهة الأولى التي كانت تسيطر على الوجود ولا يبدو لنا بوضوح ما يميّز الوظائف الطبية لهذه الآلهة ولكونها آلهة مائية فيمكن أن نقول أن (تيامت) وهي آلهة المياه المالحة هي مصدر الشرور والأمراض و(أبسو) اله المياه العذبة هو مصدر الشفاء والطب لأن (أبسو) و (آسو) تشتركان في كلمة الماء، وهذا الاله سينحدر منه (إيا أو إنكي) الذي يوصف بأنه رب الطب الأعلى.

٢. الجيل الثاني (آلهة الطمي)
٣. الجيل الثالث (آلهة الرفق) } ليس هناك ما يشير لعلاقتهم المباشرة بالطب
٤. الجيل الرابع (آلهة العالم)

٥. الجيل الخامس (آلهة العناصر الأولى) وأهم العناصر والآلهة في هذا الجيل هما الماء والهواء، وعنصر الماء يحتله الإله إنكي أو إيا وهو (رب الطب الأعلى) عند البابليين وسيد المياه الذي عرف بـ (إيا الاطباء أو إياشا آسي)[٢٦].

ويبدو أن اسم الطبيب اشتق منه حيث أن آسو أو آسي وهو (الطبيب أو المواسي) يعني العالم بالماء. أما العنصر الثاني فهو الهواء ويمثله الإله إنليل ويبدو أن إنليل على عكس إيا إله غاضبٌ حادٌ تصدر عنه الأوامر لمرض الإنسان فهو مع الاله آن إله السماء يشتركان في أنهما لا يحبان الإنسان كثيراً مثل إنكي أو إيا الذي خلقه ويسعيان لتدميره وانزال العقاب به لذلك فهما مصدر الأوامر بامراضه إذا عصى أو خالف النواميس الإلهية.

٦. الجيل السادس : ويظهر فيه الإله (ننورتا) إبن الاله إنليل، الذي هو اله العاصفة حيث يوصف بالطبيب القوي (Azu Gallu) وتمثله بعض الاختام الأسطوانية لعصر جوديا حاملاً بيده آلة بينما كوبان قد وضعا على عمودين قريبين[٢٧] ويظهر لنا ننورتا في إحدى الأساطير وهو يقتل (أساج) شيطان المرض الذي يسكن العالم الاسفل، ولهذا الاله أربع زوجات الأولى هي (گولا) وهي من ربات الشفاء لانها (تحيي الموتى بلمس يديها وهي ربة السموم والجرح الطبية ونراها ممثلة على أحجار الحدود Kuddurus البابلية [٢٨] ورمزها الكلب ومثلت برأس كلب وهذا يعني أنها واحدة من ربات العالم الاسفل ودليل ذلك ارتباطها بالإله ننكشزيدا ابن الإلهة أرشكيجال الذي يوصف بأنه إله الطب ويبدو أن هذه الالهة هي نفسها الالهة (باو Bau) إلهة مدينة اوروكو في منطقة لغش وعرفت أيضاً باسم ننسينا (ملكة إيسن) إلهة مدينة ايسن جنوب نيبور، هي في الأصل إلهة الكلاب ورمزها الكلب ومثلت برأس كلب وبما أنه كان يظن بأن لحس الكلاب يشفي الفروح فقد أصبحت إلهة الشفاء، أبوها آنو وزوجها ننغرسو [٢٩].




شكل (٢٢)
الإله إنكي إله الطب والماء والحكمة وهو يجلس على كرسيه
والمياه تتدفّق من جانبين ثم وهو يتجوّل في الأهوار




شكل (٢٣)
الإلهة باو إلهة الطب والزراعة عند السومريين

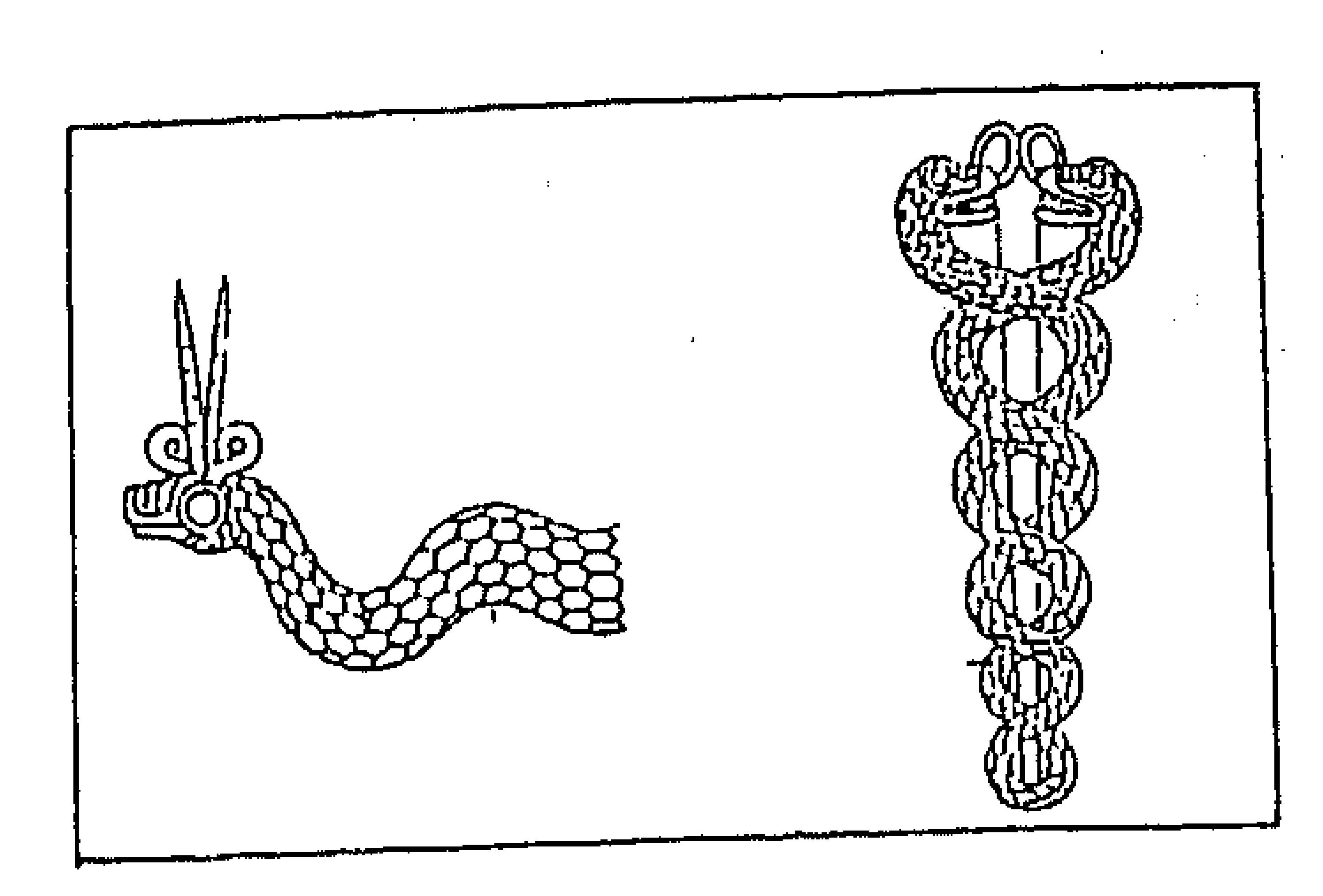
والزوجتان الاخريان للاله ننورتا هما (بابا) و (ننكراك) وتوصفان بأنهما مسؤولتان عن رعاية صحة البشر وشفاء أمراضهم ومسببتا الأمراض. وتوصف (بابا) بأنها طبية ذوي الرؤوس السود.

ومن هذا الجيل أيضاً يظهر الإله (مردوخ) إبن الإله إيا وسيطاً بين رب الطب الأعلى أيا وبين الناس ويرد اسمه كثيراً في الرقى الطبية ويمثله في السماء المشتري او نبيرو بالبابلية ومعناها المعبر فهو إله فلكي وطبي في نفس الوقت «وقد ورث عن ابيه العلم والسحر وصار مثله المعوذ بين الآلهة فهو (السيد الذي احيا بتعويذته الطاهرة الآلهة الموتى)، والذي أهلك بتعويذته الطاهرة الأشرار جميعاً والذي يحيي بتعويذته الميت ويصحّ المريض، كما كان مردوخ أحكم الحكماء والخبير بين الآلهة وهو (الخنشا) أي الخمسين أو صاحب الأسماء الخمسين التي خلعتها عليه الآلهة»(٣٠).

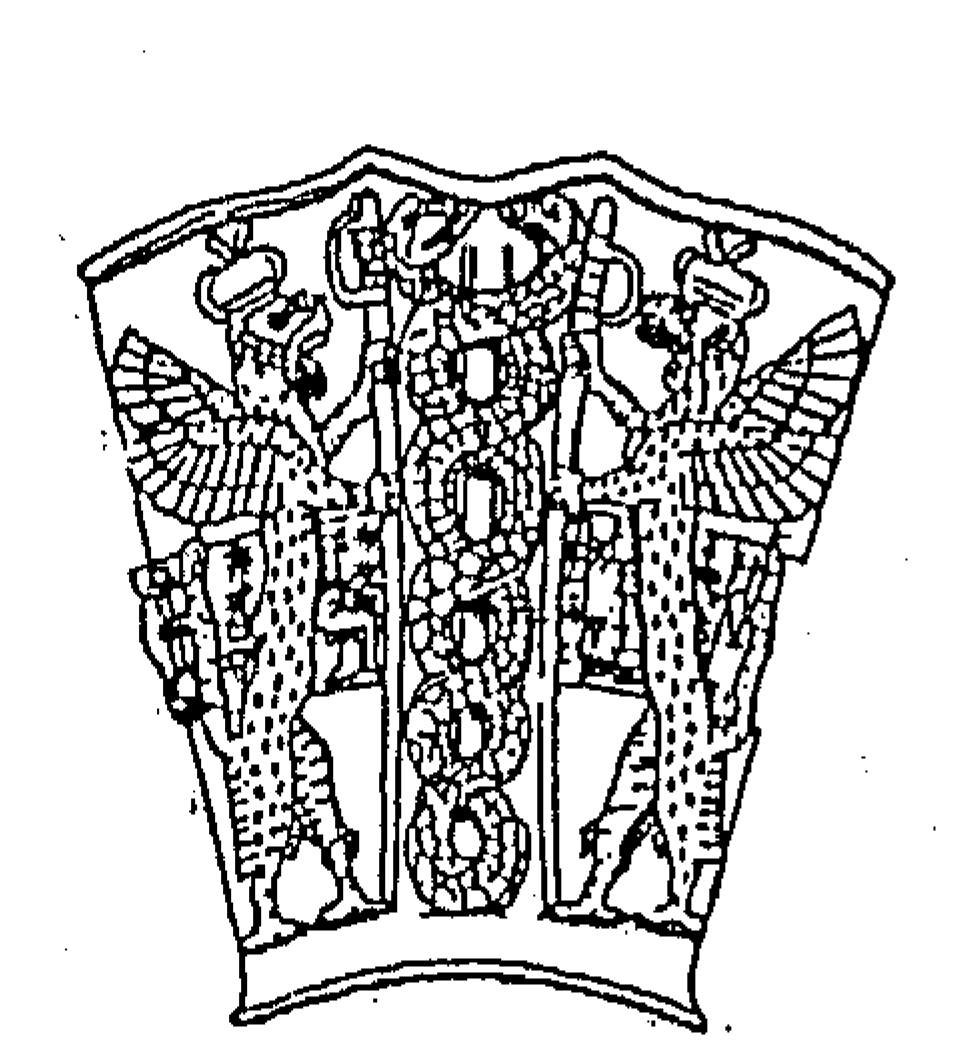
٧. **الجيل السابع**: يظهر الإلهان (سين) و (شمس) والإلهة (عشتار) لا كأطباء بل كمساعدين لإطالة العمر وترفع لهما أدعية وتعاويذ كثيرة لهذا السبب والالهة عشتار تظهر كربة الولادة والاخصاب.

٨. **الجيل الثامن (آلهة العالم الاسفل)**: يبدو أن سرّ الطب الحقيقي يكمن في العالم الاسفل وفي آلهته وشياطينه فهو عالم الطب مثلما هو عالم الموت ويمكننا أن نقسم كائنات الأسفل إلى ما يلي:

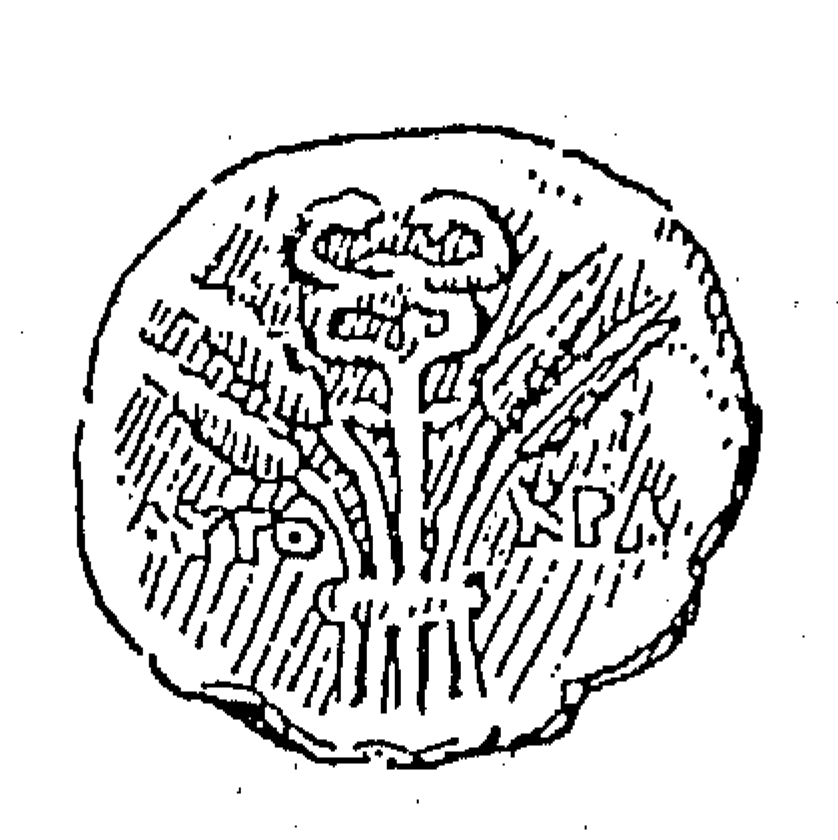
أ ـ الآلهة الشافية من الأمراض وهم آلهة العالم الاسفل الكبار مثل أيرشكيگال (التي تشفي الحمّى) وابنها الإله ننازو ومعنى اسمه (سيد الحكماء ـ الأطباء) ولهذا الاله ولإبنه ننكشزيدا رموز مقدسة عديدة أهمها العصا الملتفّة عليها حية أو حيتان (وهو رمز الطب الذي ما زلنا نستعمله إلى أيامنا هذه وهذا الاله من أصل سومري. أما إبنه الإله (ننكشزيدا) فهو اله الطب وحامل العرش ويرمز له أيضاً برمز الطب شكل (٢٤، ٢٥) والذي ترتبط به دائماً الهة الطب كَولا (باو) التي سبق أن رأيناها مرتبطة بالإله ننورتا، وهي السيدة الشافية التي تبعث الأموات، سيدة الحياة، المنجدة الكبيرة ومعبدها في نيبور وهو أشبه بالعيادة. ومن شعاره اشتق الشعار الطبي اليوناني والروماني (شكل ٢٦، ٢٧).



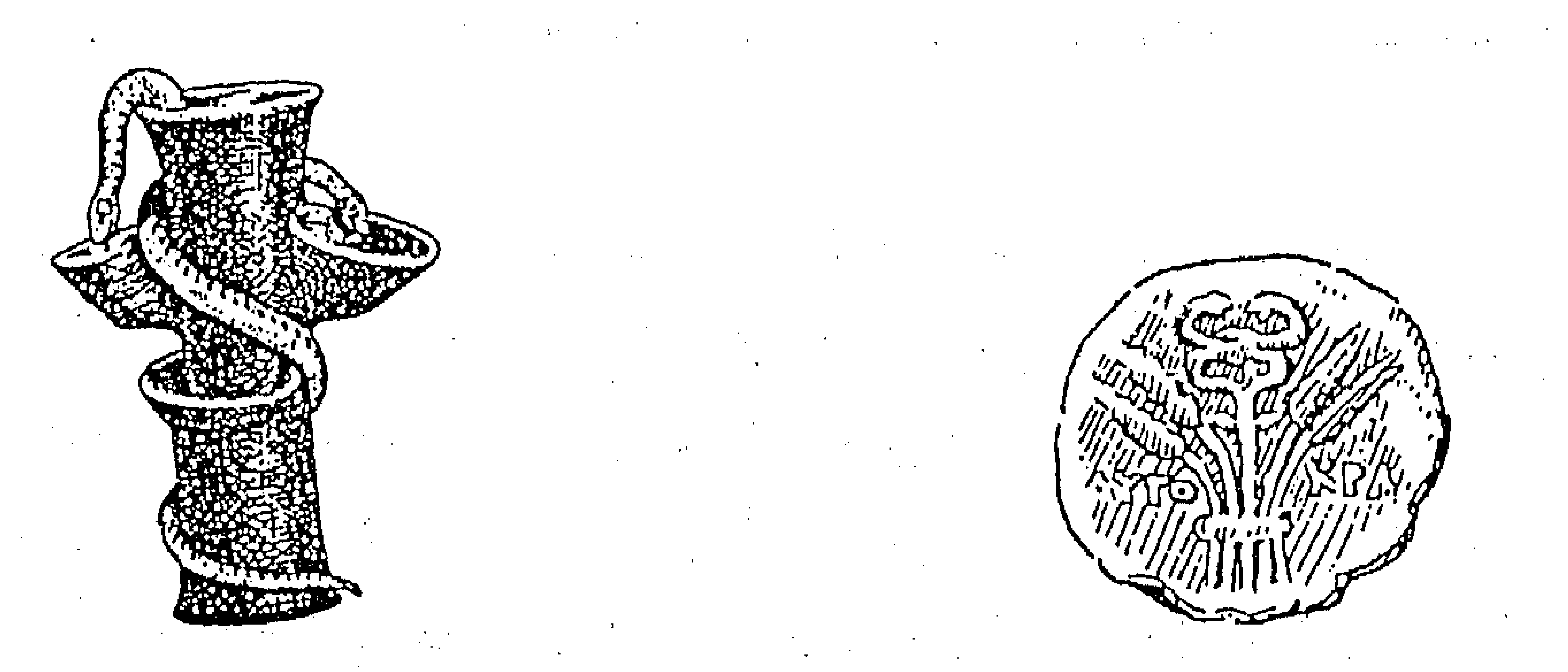
شكل (٢٤)
رموز الإله ننكشزيدا
الزمان أ. القرن ٢٢ ق.م، ب القرن ١٢ ث.م
المصدر: آل تاجر، الرؤية التشكيلية المعاصرة لملحمة الخليقة



شكل (٢٥)
الكاديكيوس السومري (شعار الطب)
والأفعوانان المتقابلان يمثلان الإله ننكشزيدا
المكان والزمان : لجش، الألف الثلاثة ق.م.



شكل (٢٦)
الكاديكيوس اليوناني الروماني



شكل (٢٧)
رمز الصيدلة الكريتي ـ الأفعى وإناء عشتار

ب ـ الشياطين المسببة للأمراض وهم حرس وعفاريت العالم الأسفل وقد ننظر إليهم بنفس النظرة التي ننظر فيها اليوم إلى الجراثيم أو الأحياء المجهرية بعامة فهم جراثيم شيطانية تدخل إلى جسم الإنسان عن طريق الطعام والشراب أو الهواء أو احتراق الجسد وتسبب لهم الامراض وهم كائنات مسلّطة على الإنسان الذي غضبت عليه الالهة في منطقة هؤلاء نشأت وتوسعت دائرة الطب السحري التي سنأتي عليها ومن هؤلاء الشياطين الكبار وهم آلهة ثانويه (نمتار، إيرا) أما الشياطين الصغار منهم (إنزو، رابيصو، لاباش، ليلو، أشاكو، أتوكو، آلو، أطمو، ليرنو، لباسوا، گالو، ليبارتو وغيرهم).

ويبدو أن هؤلاء الشياطين الكبار والصغار كان يقودهم إله كبير من آلهة العالم الاسفل هو الاله نركال وهو زوج الإلهة إرشكيجال وقد اقترن بكوكب المريخ الذي يرمز الموت والشر.

وهكذا اعتقد العراقيون القدماء بأنهم يعيشون في عالم وسط يعلوه (عالم الآلهة) ويشغله (عالم الشياطين) ولكن هذه العوالم الثلاثة (الآلهة، البشر، الشياطين) مفتوحة على بعضها وهناك تجانس في وجودها فالمرض يسببهُ ذنبٌ قام به الإنسان وإخلال بالنواميس التي وضعتها الآلهة مما يستدعي أن تنتبه الآلهة خصوصاً آن وإنليل فتأمر بعقاب الإنسان وتقوم شياطين العالم الأسفل بتنفيذ هذا العقاب فيهجم أحد الشياطين على أحد أعضاء الإنسان ويؤذيه ويسبب له المرض وقد يقوم إله سفلي مثل الإله نرجال بعقابٍ جماعي للبشر فينشر بينهم الطاعون لانهم عصوا الآلهة.

ثم يأتي دور كهنة الأشيبو للتوسط عند الآلهة العليا الشافية خصوصاً الإله إيا (رب الطب الاعلى) والإله (مردوخ) الذي ينقذ المريض من أذى الشياطين فتقوم هذه الآلهة بالعلاج مباشرة أو بايعاز آلهة الطب في العالم الأسفل خصوصاً ننازو وننكشزيد والإلهة كَولا بمعالجة المريض وإنقاذه من شياطين عالمهم. وهكذا نرى كيف ان المرض والعلاج أي الطب قائم أسطورياً على انفتاح عوالم الآلهة والبشر والشياطين على بعضها فالآلهة (ترعى البشر وتدافع عنه ضد اعمال الشياطين وذلك بوساطة الآلهة الحامية (الملاك الحارس). واعتقدوا أيضاً بأن السحر وسيلة فعالة

لمصارعة البلبلة والتخلخل العضوي الناتج حسب اعتقادهم من أصول غير طبيعية ويقصد بالسحر هنا ليس السحر الممارس بصورة خفية وهو المضر والمؤذي والمنتشر بين الشعوب البدائية ولكن العكس كان في وادي الرافدين وباعتبار أن بعض الأمراض كانت تُعالج سراً من قبل المشعوذين فإن هؤلاء كانوا يعاقبون بشدة من قبل القانون ، والسحر الصحيح كان يمارس في وادي الرافدين من قبل رجال الدين وكانت ممارسته مقدسة منذ تأسيسه ، الهي في استلهامه ، حام في أهدافه . إن السحر في وادي الرافدين جاوز كل الخرافات واعتبر مقدساً ومبنياً على الحلول العقلية والروحانية المستمدة من فهم العالم وعناصره الحية وغير الحية والتي لا تعد من نعم الضمير أو الارادة أو القوة[٣١] .

كان المرضُ إذاً اضطراب السيطرة على فوضى العناصر الشيطانية التي كانت تنعكس على أعضاء الجسم البشري وهذا يعني أن الانسان عندما يخلّ بالنظام الأخلاقي أو الروحي أو الطبيعي فإنه سيقوم بإحداث ثغرة تخرج فيه عناصر الفوضى الشياطين (وهم بقايا آلهة الهيولي القديمة أبناء تيامت الشريرة) فتهاجم الإنسان وقد تهاجم البشر كلهم وتعبث بالنظام الروحي والجسدي لهم لكن الالهة تتدخل بعد ذلك فتعيد الأمور إلى توازنها .

الأساطير التي تناولت الطب والأمراض

يندرُ أن نجد أساطير طبية أو صحية منفصلة في تراث وادي الرافدين ولكننا نجد ذكراً واضحاً للآلهة الطبية في جميع أو أغلب الاساطير ونجد ذكراً للصحة والمرض والشفاء في بعض الاساطير .

ويمكننا إجمالاً أن نقسم أساطير وادي الرافدين إلى الأساطير السومرية وهي الأساطير الأولى الأصلية والأساطير البابلية التي تضم الإساطير الأكدية والبابلية والآشورية .

الأساطير السومرية

١ . إنكي وننخرساج (شؤون إله الماء) :

يظهر لنا اله الماء والحكمة في الأساطير السومرية (إنكي) إلها متوثباً لعوباً في صباه على قدر ما يُظهرْ من ذكاء وحكمة فهو إله الماء الذي سيكون (رب الطب الاعلى) لأن الطب هو (النظر في ًالماء) كماً يدل اسمه وهو سليل آبسو الإله المائي العتيق، وتبدو لنا رفيقته ننخرساج ذات الأصل الجبلي دائمة الصلة به مرةً تغضب منه ومرةً تفرح به، في هذه الأسطورة هناك تمجيد بأرض دلمون وهي الجنة السومرية التي لا ينعق فيها الغراب ولا يفترس الأسد والخالية من الامراض :

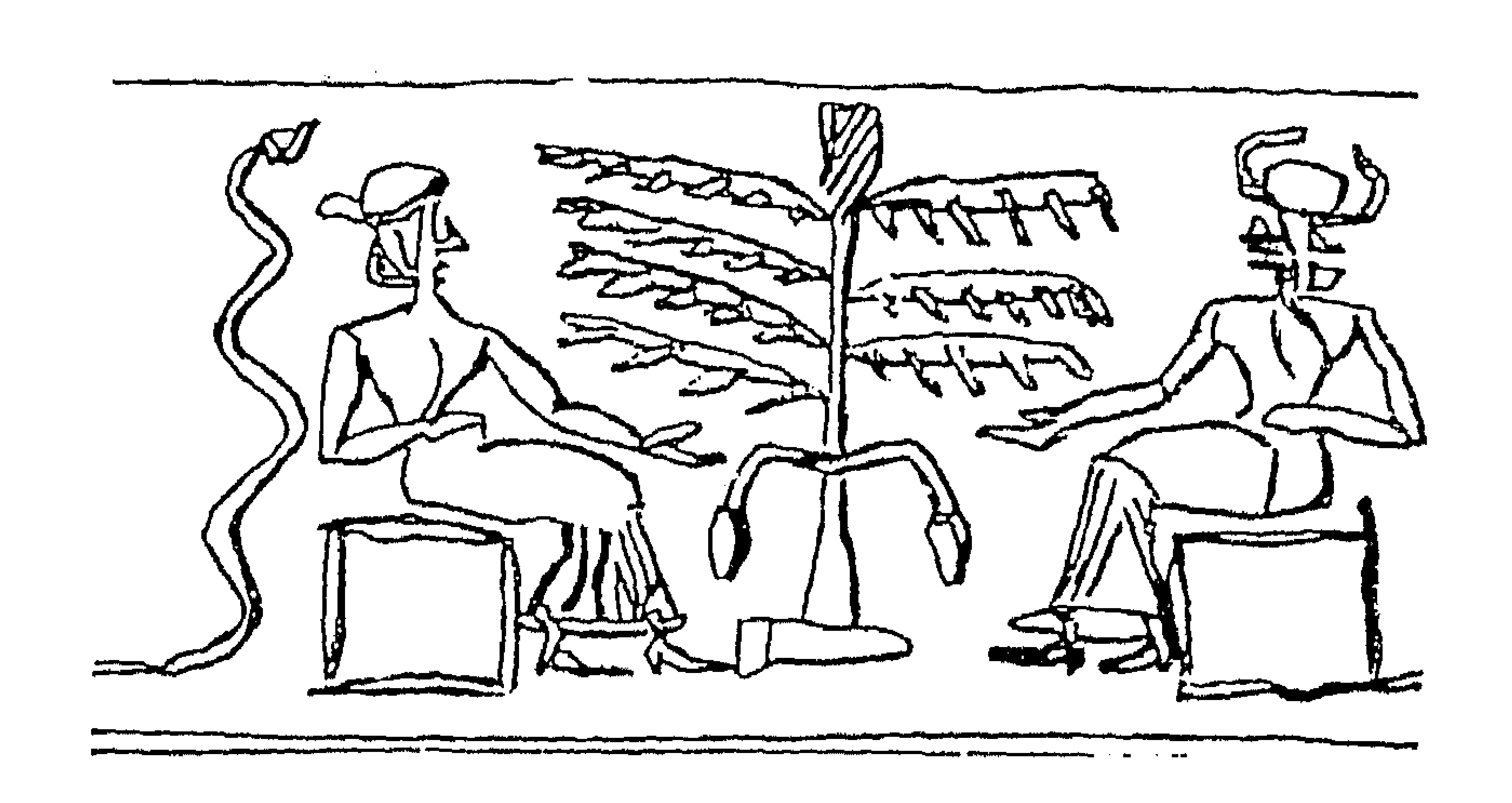
«الأرمد لا يقول إنني أرمد

ومن به صراع لا يشكو من الصراع

وامرأة (دلمون) العجوز لا تشكو من الشيخوخة .

ورجل (دلمون) *الشيخ لا يبرم من كبر السن*» (٣٢).

غير أن هذا الفردوس لا يعوزه غير الماء العذب فيطلب من (إنكي) توفيره ويوفر إله الشمس أوتو هذا الماء ويخصب إنكي ننخرساج التي تلد له ثلاث إلهات يمثلن الزرع فيتّصلن بإنكي وتنجب الإلهة (أتو) من إنكي ثمانية نباتات ياكلها إنكي فتغضب ننخرساج وتصب لعنتها على إنكي الذي يصاب بثمانية أمراض في جسمه (في الورك، في الاسنان، في الفم، في الذراع، في الضلع، وفي ثلاثة اماكن أخرى) ويرقد على وشك الموت لكن الآلهة تتدخل وترجو ننخرساج بشفاء إنكي وتخلق له ثمانية آلهة كلٌّ واحد يشفي عضواً. ويرجِّح صوئيل نوح كريمر ان هذه الاسطورة هي مصدر فكرة (حواء) في العهد القديم وهي الالهة ننتي سيدة الضلع التي يمكن أن يكون اسمها السيدة التي تحيي(حواء) (شكل ٢٨).



شكل (٢٨)

رقيم طيني يوضّح شخصين (ربما إلهة وإله) وبينهما شجرة وخلف أحدهما أفعى. ربما كان إنكي وننخرساج وربما آدم وحواء والشجرة والأفعى./سومر. منتصف الألف الثالثة ق.م

٢ ـ **أسطورة خلق الإنسان** : حيث يقوم الاله إنكي بوصفه إله الحكمة السومري وإله الماء والطب من نومه وتأمره الام ،التي ولدت جميع الالهة) وهي إشارة إلى

ننخرساج أيضاً وتسمى (نامو) أو (البحر الأول) وتأمره بخلق (مولود جديد) يساعد الآلهة في العمل فينهض إنكي ويقيم مأدبة للآلهة ويحتسي هو وننماخ (وهي ننخرساج أيضاً) الخمر، ثم تخلقُ ننخرساج من الطين ستة اشخاص بأشكال مختلفة ويقوم إنكي بتقدير مصائرهم وتطعمهم الخبز وتتضح هوية اثنين منهم هما (المرأةً العاقر) و (الرجل الخصي). ثم يقوم إنكي بعملية الخلق ويظهر مخلوقه ضعيف البداية ومشوه الجسم والروح ويحاول إنكي الاستعانة بننماخ من أجل شفاء هذا الإنسان المريض الذي خلقه وتعنّف ننماخ إنكي على هذا المخلوق.

وهكذا يكون الإنسان الأول الذي خلقته الآلهة إنساناً مريضاً وهذه اشارة تدل على ملازمة المرض للإنسان.

٣. **هلاك كور وذبح التنين**: وتدور أحداثها ايضاً حول كور وهو إله قديم من آلهة العالم الاسفل (مصدر الأمراض) وهناك ثلاثة اساطير حول كور وهي على التوالي (كور وإنكي، كور وننورتا، كور إنانا) ومن الأساطير الثلاثة يقوم الآلهة بقتل أو هزيمة كور الذي يؤدي مقتله إلى كارثة شاملة فترتفع المياه الأولى (وهي مياه مرضية قذرة) إلى سطح الأرض حيث يتوقف انسياب المياه الى الحقول والبساتين).

٤. **هبوط إنانا إلى العالم الأسفل**: وهي أشهر أساطير سومر حيث تقوم إلهة الحب و الحرب السومرية إنانا بالذهاب إلى العالم الاسفل لتقابل اختها إرشكيجال وهناك من يقول بانها كانت تريد إحياء الموتى والبحث عن الخلود وهناك زعمٌ آخر يقول بأنها ذهبت وراء زوجها دموزي الذي اختطفه العالم الأسفل وعندما تصل إلى اختها بعد أن تتجرد من حليها وملابسها تعاقبها أختها بالمرض والموت.

«*جلست أرشكيجال الطاهرة على عرشها.*

والأنوناكي، الحكام السبعة، أصدروا حكمهم أمامها

لقد حدّقوا بعيونهم نحوها، عيون الموت

بكلماتهم، الكلمات التي تعذب الروح

استحالت المرأة المريضة جثة

والجثة معلقة على عمود» (٣٣).

ثم يحاول الإله إنكي إنقاذها فيرسل لها كائنين صنعهما من وسخ تحت أظافره هما (كورا گارو) و (كالاترو) وجنسهما غير معروف فيرشان عليها طعام الحياة ستين مرة ويرشان ماء الحياة ستين مرة فتعود الحياة إلى إنانا ويخرجان بها من العالم الاسفل على أن تأتي ببديل عنها فتقترح دموزي بديلاً عنها لانه لم يتأثر بغيابها.

ويبدو لنا من هذه الأسطورة أن أكبر عدد من الامراض يمكن أن يصيب الكائن فيجعله يموت هو (٦٠) وهو عدد مقدس لدى السومريين لأن إعطاء الكائنين لإنانا الميتة (٦٠) مرة من ماء الحياة و (٦٠) مرة من طعام الحياة يدل على ذلك ويكاد هذا الرقم يدل على الإله (آن) إله السماء الذي يعاقب ويغضب أحياناً.

٥. **الالهة إنانا والفلاح شوكليتودا** : هذه اسطورة ممتعة تدور حول الإلهة إنانا التي تقوم برحلة سماوية فتتعب وتريد أن تستريح فتختار بستان الفلاح (شوكليتودا) وتستظلُّ تحت شجرة (سربتو) فتنام وينكشف جسدها فيغري الفلاح الذي يضاجعها خلسةً وهي نائمة، وعندما تصحو إنانا وتكتشف ما جرى تغضب وتحاول تدمير البشر وتبحث عن الفلاح الذي يهرب ويتوارى عن الأنظار أما إنانا فتعاقب البشر جميعاً (لانهم انتهكوا الحدود مع الآلهة) وتسلط ريحاً عاتية على البلاد ثم تسلط وباءً عظيماً ينزع الحياة من بشر كثيرين وتموت الماشية والغلّة وقبل العاطفة والمرض تسلط الدم على كل آبار البلاد وتخلط الدم بالماء.

الأساطير البابلية

١. **اسطورة الخليفة البابلية** : تردُ في هذه الاسطورة الشهيرة إشاراتٌ متعددة للمرض فالآلهة الجدد الذين ظهروا من مياه الهيولى (يتامت وآبسو) يقول عنهم يتامت (ان صنيعهم يسبب الألم والمرض) والاله مردوخ عندما يحارب يتامت يطلق عليه أربعة مخلوقات مرضية مخيفة هي (المدمر، القاسي، المحطم، الطائر) ويقتلها.

٢. **أسطورة إيرا** : إيرا هو إله الطاعون والاوبئة الفتّاكة حيث يناديه سلاحه الفتاك ذو الشعاب السبع، المرعب الذي ينفث الموت الزؤام فيقوم إيرا ويذهب إلى مردوخ

ويختطفه إلى العالم الاسفل لكي يتصرف على هواه ويدمر الناس فيطلق الطاعون على بابل ثم أوروك ولا يقترب من أكد. وتتضح في هذه الاسطورة خواص هذا الإله المرضي المدمِّر.

٣. **اسطورة اللابو**: وهو إله مرضي من آلهة العالم الاسفل الذي يخرج من أعماق المياه الأولى (مياه العالم الأسفل) ثم يتطوع الإله مروخ لقتل هذا التنين فيقتله ويُجري دمه.

٤. **اسطورة عشتار** وهبوطها للعالم الاسفل وهي أسطورة مشابهة للاسطورة السومرية إنانا وهبوطها الى العالم الاسفل ولكن فيها تفصيلاً حول أمراض إنانا التي تصاب بها:

«بداية ففتحت اريشكيجال فمها قائلة لوزيرها نمتار:

إمضِ يا نمتار.. اصعد بها قصري واغلق عليها هناك

ثم اطلق ضدها. اطلق ضد عشتار ستين علّة

ضد عينيها أطلق علل العيون

ضد اضلاعها أطلق علل الأضلاع

ضد أقدامها أطلق علل الأقدام

ضد أحشائها أطلق علل الأحشاء

ضد رأسها أطلق علل الرأس

ضد كل أجزائها، ضد كلِّ جسدها (فلتطلق العلل» (٣٤).

وحين يصل كائن إيا (اصوشونامير) المخلوق الخصي الذي يخلقهُ لإنقاد عشتار يغوي بجماله أريشكيجال فإنه يطلب منها قربه ماء الـ(حالزاكو). وهو الماء الذي يعيد الحياة لعشتار فيرشه عليها ويطلق سراحها.

١ . **آدابا** . وهي قصة بحث عن الخلود حيث يقوم آدابا بكسر جناح رياح الجنوب فيغضب عليه الإله إيا ويدعى آدابا للمثول أمام الاله آنو كبير الآلهة وقبل صعوده يزوده إيا بعدد من النصائح منها ان لا يأكل الطعام ولا يشرب الماء الذي سيقدم له في السماء لأنه سيموت ، وعندما يصعد ادابا يرى (تموز ، ونكشزيدا اله الطب) ويقرر الإله آنو مكافئته فيعطيه الماء والطعام فلا يأخذهما فيخسر الحياة الأبدية لان الماء والطعام السماويين كانا سيسببان الخلود له .

٢ . **إيتانا** . وهي قصة الملك إيثانا الذي يحرمُ من الإنجاب فيصعد إلى السماء لمساعدة الحية (رمز الطب) والنسر ويحصل من الآلهة على العشب الذي يساعده على الإنجاب أو الإخصاب .

٣ . **ملحمة جلجامش** : وهي الملحمة الشهيرة ، وترد فيها إشارات متفرقة عن المرض ، خصوصاً قبيل موت إنكيدو الذي كان سببه قتل (الثور الوحشي أو السماوي) ويصف إنكيدو في حلمه قبل الموت كيف يسلب إله الموت (نمتار) روحه ثم كيف يبدأ المرض بمهاجمة إنكيدو لمدة (١٢) يوماً ويموت بعدها وتصبح صورة الموت لاصقة في ذهن كلكامشَ على شكل (دود يتساقط من انف إنكيدو) . ثم تذكر الاسطورة كيف ان أوتونابشتم يدل جلجامش على مياه الشباب ويكسيه بلباس الشباب قبل أن يدله على النبات الذي يجدد الشباب واسمه نبات (يعود الشيخ إلى صباه كالشباب) ويبدو انه نبات طبي أو عشبة طبية (وقد ترجمه البعض على أنه نبات العجرم Buckthorn ولهذا لم يأكل منه جلجامش بل انتظر حتى يعود الى مدينته الوركاء ويستعمله متى ما أدركته الشيخوخة ، كما يبدو انه صمم على زرعه في بلاده لتكثير نوعه ويبدو أن «الحية استطاعت بتأثير ذلك النبات السحري أن تجدد شبابها بنزع جلدها كل عام ، ومن هذه الأسطورة نشأت عادة اتخاذ صورة الحية رمزاً للحياة والشفاء والطب . كما يجدر ربط هذه الحادثة الأسطورية بالعداء الذي استحكم بين الحية وأولاد حواء من بعد الإغواء حيث أمر الله بذاك وكان من بين العقوبات التي فرضَها على آدم وحواءَ وذريتهما من بعد أكلهما من شجرة الجنة المحرمة» (٣٥) .

نصوص التعاويذ والأحلام

١ . **تعويذة خاصة بوجع الاسنان حول اصل الاشياء** : ويرجع تاريخها الى العصر البابلي الحديث ما بين القرن السابع والسادس ق . م وقد جاء فيها : من بعد أن خلق الإله آنو السماء خلقت السماء الأرض وخلقت الأرض الانهار وخلقت الانهار الجداول والقنوات وخلقت الجداول الاهوار ، وخلقت الاهوار الدودة . وذهبت الدودة الى الاله (شمش) و (ايا) وبكت وذرفت الدموع وقالت «ماذا تعطيني لطعامي؟ وما تعطيني لامتصه؟ فاجابها إيا : ساعطيك التين الناضج والمشمش . فقالت «وما جدوى التين الناضج والمشمش لي؟ ضعني في الاسنان ، واجعل مسكني في اللثة ، لكي امتص دم الاسنان وأقرض اللثة وآكل جذورها . ويعقب ذلك توجيه التعويذة على الدودة لانك قلت هكذا يا دودة فليحطمنك الإله إيا)[٣٦] .

٢ . **حلم أمير في العالم الأسفل** : يرجع عهد هذا الحلم للقرن السابع وهو من آشور (لأمير إسمه (كومايا) كان توّاقاً لرؤية العالم الاسفل . ولهذه الغاية كان يقدم القرابين لأريشكيجال وزوجها نرجال ويرفع لهما الصلوات لتحقيق مراده . وأخيراً تحققت أمانيه ، ولكن في الحلم ، فرأى فيما يشبه النائم أنه قد هبط إلى الدار الأخرى ورأى معالمها وكاد يغدو سجيناً لها ثم عاد بنفس ما عُرض له من رؤى مروعة)[٣٧] ويعدد في الحلم آلهة العالم الاسفل ويصفهم وهم جميعاً آلهة وشياطين الأمراض وفيما يلي سنقدمُ خلاصة بالعفاريت المرضية التي وردت في النص :

١ . **نمتار** : وزير العالم الاسفل وسيد اقداره ، كان يمسك بيده اليسرى لبدة رجل مات امامه ، وبيده اليمنى كان يمسك سيفاً ، له رأس تنين ويدان بشريتان وقدمان .

٢ . **نمتارتو** : زوجته ، كان لها رأس الـ (كوربيو) . أما يداها وقدماها فكانت بشرية .

٣ . **شيدد** :الشرير كان له رأس رجل ويداه وعلى رأسه عمامة وقدماه قدما طائر .

٤ . **اللوجابو** : له رأس أسد واربع أيد بشرية .

٥ . **موكيل ريش ليموتي** : له رأس طير وجناحاه مبسوطتان يطير بهما جيئة وذهاباً . أما يداه وقدماه فكانت بشرية .

٦. **حموطابال** : ملاّح العالم الاسفل. كان له رأس طائر الزو أما يداه وقدماه فكانت بشرية.

٧. **أتوكو** : الشرير، كان رأسه لأسد ويداه وقدماه لطائر الزو.

٨. **شولاع** : له رأس أسد وينتصب على ساقي أيِّل.

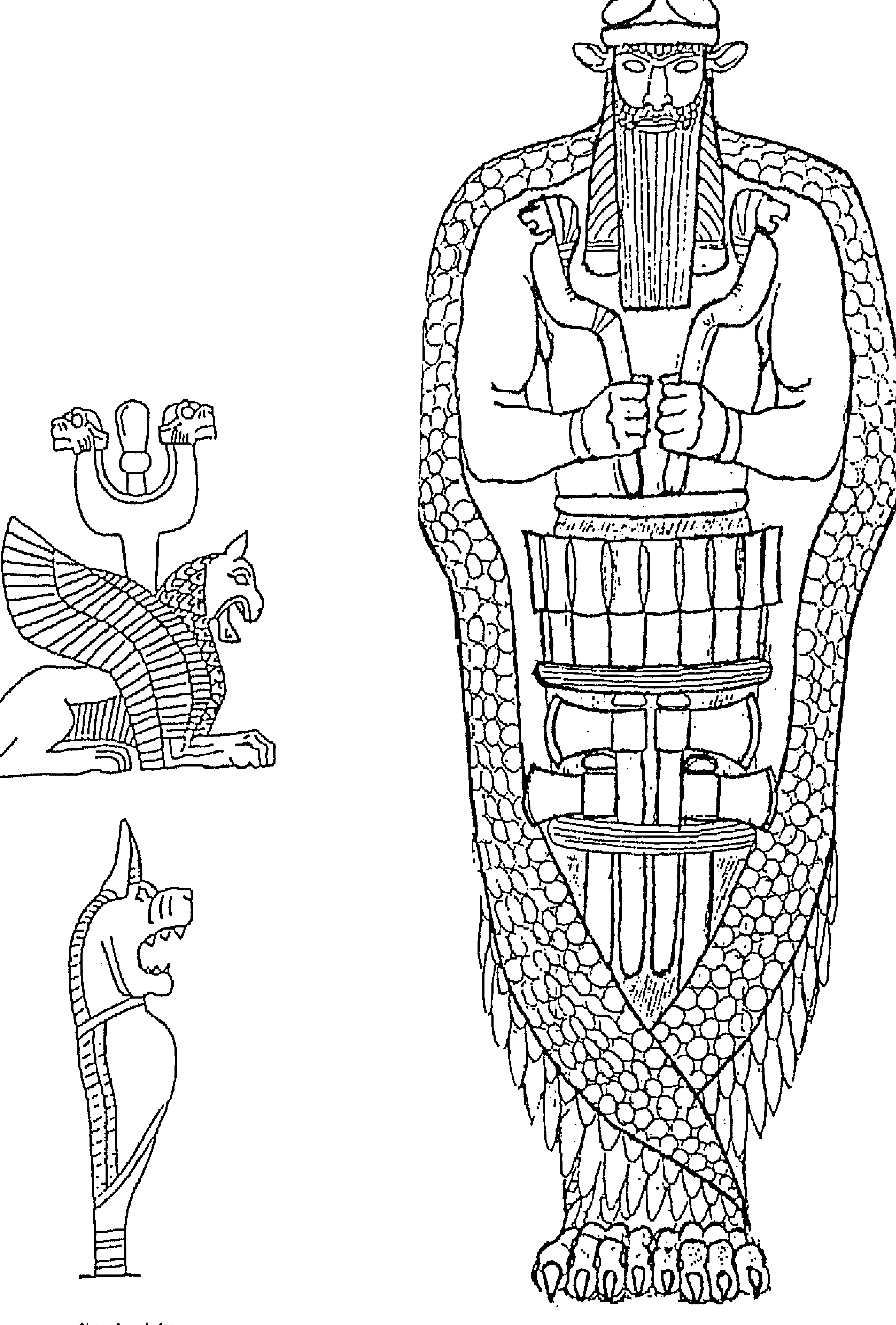
٩. **ماميتو** : لها رأس عنزه ويدان بشريتان وقدمان.

١٠. **نيدو** : حارس بوابة العالم الاسفل. كان رأسه لأسد واطرافه لطائر.

١١. **فيماليو** : ذو الأرجل الثلاثة، إثنتان لطائر والثالثة لثور وعليه مهابة وروعة.

١٢. **نرجال** : الصنديد ملك العالم الاسفل على رأسه العمّة الملكية وبيديه الاثنتين سلاحان رهيبان لكل سلاح رأسان (مدَّ يده وأمسك بجزتي وجرني إليه وعندما تطلعت إليه إرتعدت فرائصي. غمرتني هيبته فوقعت على قدميه أقبلهما ساجداً. وعندما انتصبت تطلع اليَّ وهز رأسه وصرخ في وجهي صرخةً هائلة وزأر زئيراً غاضباً كأنه العاصفة الهادرة وصولجانه في يده، لائق بجلاله، مرعب كأفعى خبيثة. اقترب مني قاصداً قتلي غير أن مشاوره ايشوم الشفيع، الذي يحفظ الأرواح ويحب الحقيقة والعدالة قال له (أي ملك العالم الاسفل، لا تقتل الرجل. لتصل أخبار عظمتك إلى أنحاء الأرض. وجبروتك على الفسقة الظالمين فهدأ غضب نرجال كبركة باردة ثم قال لماذا أزعجت زوجتي الحبيبة ملكة هذا العالم الاسفل؟ ان أمرها الذي لا راد له سيقضي بأن يسلمك (بيبلو) سفاح العالم الاسفل إلى البواب (لوجال سولا) فيقودك خارجاً عبر بوابة عشتار).

ثم يستفيق الأمير من رؤياه مذعوراً، وينطلق كالسهم خارج بيته هائماً في شوارع المدينة صارخاً اواه . . . واحسرتاه . . واخذ يهيل التراب على رأسه ويمضغه في فمه قائلاً لأهل آشور الذين تجمعوا حوله ان يخشوا أريشكيجال ونرجال ويفعلوا وفق أوامرهما (انظر الشكلين ٢٩، ٣٠).



شكل (٣٠)
رمز الإله نركال
أ. القرن الثاني عشر ق.م ب . العصر الكشي
المرجع : آل تاجر: الرؤية التشكيلية
المعاصرة لملحمة الخليقة

شكل (٢٩)
الإله نركال (إله الأمراض) يمسك
بصولجانين ينتهيان برأس أسد ويجج
أحزمته بالفؤوس والأسلحة ويحيط
جسده بحراشف وأشواك

مراجع الفصل الثالث/ الباب الثاني

١ ـ فريزر، سير جيمس : الغصن الذهبي (دراسة في السحر والدين)، ترجمة أحمد أبو زيد ج١، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، القاهرة، ١٩٧١ ص ,٤٣

٢ ـ المرجع نفسه ص ,٤٥

٣ ـ المرجع نفسه ص ٤٧ ـ ٤٨ .

٤ ـ فرويلش، ج. س : ديانات الأرواح الوثنية في إفريقيا السوداء، ترجمة يوسف شلب الشام. دار المنارة للدراسات والترجمة والنشر، اللاذقية، ١٩٩٨ ص ,١٤

٥ ـ هوك، س. هـ : ديانة بابل وآشور، ترجمة نهاد خياطة، العربي للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، ١٩٨٧ ص ,٨٢

٦ ـ الأحمد، سامي سعيد : الطب العراقي القديم، مجلة سومر. مديرية الآثار العامة، بغداد، المجلد (٣٠)، ١٩٧٤ ص ,٩١

٧ ـ المرجع نفسه : ص ٩٢ .

٨ ـ بوتيرو، جان : بلاد الرافدين (الكتابة، العقل، الآلهة) ترجمة ألبير أبونا، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد ١٩٩٠ ص ,١١١

٩ ـ المرجع نفسه ص ١٢٢ .

١٠ ـ انظر في شخصية هرمس ما ذكره الشهرستاني في كتابه (الملل والنحل وما ذكره ابن النديم في (الفهرست) وما ذكرته الانسكلوبيديا الإسلامية

١١ ـ الماجدي، خزعل : «الفلك والتنجيم في العراق القديم» بحث مقدم الى معهد التاريخ العربي بغداد ,١٩٩٥

١٢ ـ الأحمد، سامي سعيد : المرجع السابق ص ,٨٣

١٣ ـ المرجع نفسه : ص ٧٦ـ

١٤ ـ المرجع نفسه : ص ٨٧ .

١٥ ـ هوك، س. هـ : المرجع السابق ص ٨٢

١٦ ـ الأحمد، سامي سعيد : المرجع السابق ص ,٨٨

١٧ ـ البدري، د. عبداللطيف : الطب عند العرب، الموسوعة الصغيرة، وزارة الثقافة والفنون،

بغداد ١٩٨٢ ص ,٨

١٨ـ هـوك، س. هـ : المرجع السابق ص ,٨٢

١٩ـ أوبنهايم، ليو : بلاد ما بين النهرين، ترجمة سعدي فيضي عبدالرزاق، دار الرشيد للنشر، بغداد، ١٩٨١ ص ٣٨٧ـ ,٣٨٨

٢٠ـ البدري، د. عبداللطيف : المرجع السابق ص ٦ـ ,٧

٢١ـ أوبنهايم، ليو : المرجع السابق ص ٣٨٧ـ ,٣٨٨

٢٢ـ لابات، رينيه : الطب البابلي والآشوري، ترجمة د. وليد الجادر مجلة سومر المجلد (٢٤) مديرية الآثار العامة، بغداد ١٩٦٨ ص ١٩١ـ ,٢٠٦

٢٣ـ بشور، د. وديع : الميثولوجيا السورية (أساطير آرام)، ط٢، ١٩٧٤، ص ,٩

٢٤ـ المرجع نفسه ص : ١٠ـ ١١.

٢٥ـ الماجدي، خزعل : سفر سومر، دار عشتار للتوزيع والنشر، بغداد ١٩٩٠ ص ,٨

٢٦ـ الأحمد، سامي سعيد : المرجع السابق ص ,١٠٥

٢٧ـ المرجع نفسه.

٢٨ـ المرجع نفسه : ص ١٠٠ـ ,١٠١

٢٩ـ بشور، د. وديع : المرجع السابق ص ,٩٠

٣٠ـ المرجع نفسه ص ١٠٢.

٣١ـ لابات، رينيه : المرجع السابق ص ,١٩٦

٣٢ـ كريمر، صموئيل : الأساطير السومرية، ترجمة يوسف داود عبد القادر، جمعية المترجمين العراقيين، بغداد ١٩٧١ ص ١٩٦.

٣٣ـ المرجع نفسه ص ١٤٢.

٣٤ السواح، فراس : مغامرة العقل الأولى، ص٢، دار الكلمة للنشر، بيروت (ب، ت) ص ,٦٢٩

٣٥ـ باقر، طه : ملحمة جلجامش، وزارة الثقافة والاعلام، بغداد ١٩٨٠ ص ,١٦٦

٣٦ـ باقر، طه : مقدمة في أدب العراق القديم، جامعة بغداد، بغداد ١٩٨٦ ص ,٨٤

٣٧ـ السواح، فراس : المرجع السابق ص ٢٢٨ـ ٢٢٩.

الفصل الرابع

إغواء الكلمة والمعرفة

(قوى العرافة والسحر)



الإله شمش (إله العرافة)

إذا كنا قد تناولنا في الإغواءات الصغرى للخلود والبطولة والحكمة والجنس والتكاثر والطب والشفاء فإنه لا بد من تناول الكلمة والمعرفة وقدرتهما على منح الخلود للإنسان الذي يتعامل معهما. وقد تحدثنا عن الملك السومري ملك سبّار الذي استدعي إلى السماء ومنح أسرار فن الفأل والعرافة الذي كان يعتبر أحد فنون كبير الآلهة (آنو) إله السماء. واعتبرنا البحث عن الكلمة والمعرفة حلاً بديلاً عن الخلود الجسدي الذي تحدثنا عنه في الفصل الأول من الباب الأول.

في هذا الفصل سنتناول العرافة والسحر باعتبارهما نوعين خاصين من المعرفة ومن أسرار الكلمة لكنّ تناولنا لهما لن يكون مطلقاً أو مجرداً بل سيقتصر على علاقتهما بالعلاج والشفاء أيضاً، ذلك القطاع الواسع من حقلهما العملي.

قوى العرافة

كان الإنسان مولعاً بالتعرف على ما يخبؤه له المستقبل فكان يستعجله بنبؤات محتملة ويحاول أن يكشف عنه بها وكان بعضها يخطيء وبعضها يصيب، ثم ظهر أناسٌ ذوي قوىً نشطة في كشف الغيب «والغيب هو ما لا نعتمد في إدراكه على إحدى الحواس فلا يدخل في دائرته استنباط النتائج من مقدماتها ومعرفة المسببات من أسبابها بطريق الاستدلال وقياس ما غاب بما حضر، كعلمنا شفاء المريض قبل حصوله إذا وجدنا العلاج ناجحاً»(١).

وبذلك اختلفت مهمة المتنبيء بالغيب وكان يختلف العرّاف عن الساحر في أن العراف يحاول قراءة الغيب أما الساحر فهو الذي يحاول امتلاك السيطرة على قوى غيبية ويؤثر بها سلباً أو إيجاباً على حياة الناس.

لكن المصطلح الذي يختلط دائماً مع العرافة هو الكهانة وكان العربُ يفرقون بين الكهانة والعرافة فيقولون (إن الكهانة مختصة بالامور المستقبلة، أما العرافة فخاصة بالامور الماضية. ومهما يكن من الأمر فإن المراد بهما هو التنبؤ واستطلاع الغيب، وكان العرب يعتقدون أن للكاهن القدرة على كل شيء فكانوا يستشيرونه في كلِّ أمر جلل من أمورهم ويتقاضون إليه في خصوماتهم ويستطبّون في أمراضهم ويستفتونه في ما أشكل عليهم ويطلبون منه تقسيم تفسير رؤاهم ويستنبئونه عن مستقبلهم. ولهذا كانت منزلة الكاهن عندهم في أعلى المراتب، والكهان عندهم هم أهل العلم والفلسفة والطب والقضاء والدين، وكان هذا هو شأن الكهان جميعاً في سائر الأمم القديمة) (٢).

ويبدو أن الكهانة التي هي أوسع حدوداً من العرافة كانت تنقسمُ إلى أربعة اقسام أو انواع وهي :

١ ـ الكهانة الاتصالية وهي اتصال الكاهن بقوى غيبيه (جن، شياطين، ملائكة، عفاريت . . . . الخ) وتقسم إلى نوعين :

أ ـ كهانة سلّم الشياطين (الجن) حيث يصعد الجن جهة من السماء ويتلقى الأعلى فيهم كلاماً يسلمه إلى الذي يليه حتى يضعه الأخير في أذن الكاهن.

ب ـ كهانة الشيطان (الجان) وهو ان يختار جنيّ أو شيطان إنساناً فيتصل به ويخبره بما لا يخبر غيره.

٢ ـ الكهانة الإستنتاجية وهي كهانة لا تعتمد على قوى الغيب بل تعتمد على الاستنساخ وتنقسم إلى نوعين :

أ ـ الكهانة التخمينية وهو ما يستند على الظن والتخمين والحدس والتقدير.

ب ـ الكهانة الاستدلالية وهو ما يستدل به الكاهن على التجربة والعادة فيستدل على الذي سيحدث بما وقع قبل ذلك.

وقد وصلت الكهانة إلى العرب من الكلدانيين (فهم الذين نقلوا الكهانة إلى بلاد العرب مع ما نقلوه إليها من علم التنجيم. ومما يؤيد ذلك أن الكاهن في العربية يسمى ايضاً (حازي) أو (حزّاء) وهو لفظ كلداني معناه الناظر أو الرائي أو البصير،

وهو يدل عندهم على الحكيم والنبي. وقد اقتبس العرب بعد ذلك لفظ الكاهن من اليهود الذين نزحوا اليهم على أثر ما أصابهم من النكبات في أورشليم وخصوصاً بعد أن دمرها طيطس عام ٧٠ للميلاد» (٣).

ويكاد التقسيم السابق للكهانة أن يضعنا أمام حقيقة أخرى غير الماضي والمستقبل في التفريق بين الكهانة والعرافة، فالكهانة هي الاستعانة بالقوى الغيبية في معرفة الغيب وبذلك تقترب من السحر لكنها سحرٌ معطل غير عملي، أما العرافة فتقتربُ من العلم الفطري أو الذي يعتمد على قوىً خارقة داخل العرّاف فهي لا تستعين بقوى خارجية غيبية، فالعراف عند العرب «هوَ الذي يزعم أنه يعرف الأمور بمقدمات ويستدل بها على نتائجها أي هي الإستدلال ببعض الحوادث الخالية على الحوادث الآتية بالمناسبة أو المشابهة الخفية التي تكون بينها أو الإختلاط أو الإرتباط على أن يكونها معلولين لأمر واحد أو يكون ما في الحال علّة لما في المستقبل» (٤).

وبذلك تكون العرافةُ علماً بدائياً حدسياً وتشمل على (الناظرين في الاجسام الشفافة من المرايا وطسّاس الماء وقلوب الحيوان وأكبادها وعظامها وأهل الطرق بالحصى والحبوب من الحنطة والنوى، وأهل الزجر والفأل، والمنبئين عن الغيب باستنباء الطيور والسباع، وأهل الرياضة السحرية وأصحاب الفراسة وغيرهم) (٥) فهناك إذن أنواع كثيرة من العرافة كلها تعتمد على الإستنتاج والتخمين ويمكن ان نوضحها كما يلي :

١ . **الفأل** : قراءة المستقبل والغيب من الرسوم والخطوط والآثار والأشكال وغالباً ما يدعو إلى التفاؤل.

٢ . **الطيرة** : هي فأل يدعو إلى التشاؤم والإحجام.

٣ . **العيافة (الزجر)** وهي زجر الطيور (أي التحدث بالغيب عند سنوح طائر أو حيوان وكان العرب يزجرون الطير والحيوان أي يصيحون به أو يرمونه بحجر ما وفإن ولاّهم في طيره ميامنةً سمّوه سانحاً وتفاءلوا به، وإن ولاّهم مياسرةً سمّوه بارحاً وتشاءموا منه، فالسانح مرجوّ عند العرب والبارح هو المخوِّف (٦).

٤ . **تفسير الأحلام** : جعل الاحلام أحداثاً رمزية تدلّ على المستقبل ومحاولة

تفسيرها بما يخفيه الغيب للانسان .

٥. **التنجيم** : ربط حركة الأفلاك والنجوم والكواكب بحياة الإنسان اليومية ومصائرهم المستقبلية ، والتنجيم نوع من علم الفلك الشعبي الذي يسود عندما تتوارى الروح العلمية الحقيقية . وتدخل في التنجيم قراءة الأبراج والطالع .

٦. **الفراسة** : العرافة عن طريق تقاطيع الوجوه والآثار التي يتركها الإنسان .

العرافة في وادي الرافدين

لم تكن العرافة في وادي الرافدين ضرباً من الوهم أو ممارسةً لشعوذة أو سباحةً في الوهم والضلال . لقد كانت نوعاً من العلم المبكر وكانت أيضاً إنعكاساً للقدرات الفائقة التي يتمتع بها بعض الأشخاص (لأن العرافة في بلاد الرافدين ، منذ عهد مبكر وقبل اليونان بكثير ، صارت معرفةً من النموذج العلمي ، بل علم فيً جوهرها . وما استطاع العبور الى الاغريق هو قبل كل شيء هذه الرؤية العلمية وهذا التعامل العلمي وهذه الروح العلمية ، بحيث انهم لم يبنوا من لا شيء مفهومهم للعلم الذي ورثناه عنهم ، بل أنهم بهذه النقطة الاساسية ، كما بغيرها ، مدينون لسكان بلاد الرافدين القدامى» (٧) .

ويبدو أن العرافة في وادي الرافدين هي التي أوحت للباحثين بالتقسيم الذي ذكرناه سابقاً حول الكهانة الإتصالية والإستنتاجية (الخارجية والداخلية) فقد كانت بشكل عام تنقسم إلى نوعين «احدهما بإيحاء من الآلهة ، ويسمى بالعرافة الملهمة ، والآخر بنشاط عقلي يمارسه البشر اي بنوعٍ من الاستدلال أو الاستنتاج ويسمّى بالعرافة الإستنتاجية : لا تعرف العرافة الملهمة إلاّ قليلاً وفي ميادين زمنية وموضوعية محددة ولا تبدو نموذجية لحضارة بلاد الرافدين ولن نتكلم عنها أكثر . أما العرافة الاستنتاجية فتذكر ، بالعكس ، دونما انقطاع منذ بدايات الالف الثاني حتى العهد السلوقي» (٨) .

إن العرافة الملهمة وهي عرافة (من الفم إلى الإذن) كانت محدودة وكانت ذات أغراض دينية وسياسية في الغالب أما العرافة الاستنتاجية فهي نوع من الكلام

المكتوب وهو ما يسجله الآلهة على الالواح عند متلقين وقد يكون على شكل رموز أو صور رمزية الهية يمكن فك رموزها. وفي ذلك انعكاس لما يسلكه الآلهة من ما كان يسمى بـ (لوح المصائر) الذي يسجلون فيه مصائر البشر والعالم «وبما أن الكون كله كان تحت رحمة الآلهة الذين كانوا ينظمون سيره فقد عدّ الناس منطقياً العالم ما تحت القمر كله مثل مسند لكتابتهم المفهومة هكذا، وحامل رسائلهم التي يجب حلّ رموزها، ومن هذه الوجهة، اتخذت الطبيعة كلها قيمة عرافية: حركات الكواكب، نتاج الأنواء، سير الزمان، غرائب العالم بمكنوناته من المعادن والنباتات ومظاهر الاحداث (وخاصة عند الولادة وفي ساعة الموت)، وتصرف الحيوانات، واكثر من ذلك البشر: الملامح الخاصة لوجوههم وعادات سلوكهم وأخيراً حياتهم المتعلقة بالأحلام» (٩).

ويبدو لنا أن ارتباط الكتابة بالعرافة ليس أمراً هيناً فقد يكون أحدهما سبباً في نشوء الآخر أو أحد الأسباب في الأقل خصوصاً إذا تتبعنا منشأ الكتابة الصورية التي كانت المسافة فيها بين الدال والمدلول صغيرةً أو معدومةً «وبوسعنا أن نكدّس امثلة لا تحصى لكي نبين الى أي مدى كانت العرافة في بلاد الرافدين تمارس حقاً مثل الكتابة، أي بقراءة الرموز الصورية لا شك ان في العرافة كما في الكتابة حالات عديدة حيث العلاقة بين المؤشر والشيء المعني ليست واضحة ولا أحياناً مفهومة ولا يتسنى للمرء أن يتصورها» (١٠).

وتبدو لنا رموز العرافة الاستنتاجية كما لو أنها لغة سرية متفق عليها من مصدر إلهي ويعرفها خاصة من الناس هم (العرّافون) وتعتمد في جوهرها على الربط بين الحوادث ربطاً يعتمد على تكرار الحوادث ويتم هذا بمساعدة الإله «وكانت جميع الإشارات التي في الإمكان نسبها الى الفأل تغدو موضوع «تسليم»، ثم ما تلبث أن تدخل ضمن «اللوائح» وكل مرة يتم تسجيل حدث بارز، حادثاً كان أم مرضاً، كانت تقوم «رابطة» بين العلامة والحدث الناتج عنها، لذا فإن هذه العلاقة المتبادلة والمقبوله، كانت تجعل من (العلامة) نموذجاً يحتذى به، بحيث أن تجدد العلاقة ينبيء كل مرة بتجدد الحدث نفسه» (١١).

إن المصطلح الجامع للعرّافين في البابلية يمكن أن يكون البارو (Baru) الذي يعني

المراقب ووظيفته الجوهرية تكمن في مراقبة الظواهر وهو كما قلنا المتبئر في الظواهر أي البصير بها فهو قد يستخدم طريقة صبِّ الماء في الإناء مع الزيت ويعمل بواسطة قدح التكهن (مقلتو)، وقد يرافق البارو الجيش وقد ينال مرتبة عالية من الشرف بتنبؤاته الصادقة أو الخزي ان كذبت تنبؤاته، واستخدام كهنة البارو في تفسيرات الطوالع والتعليقات التي نظمت بأجزاء كانت تحملُ مصطلحات فنية ترتبط بأعضاء الحيوان المقدم للأضحية ولا سيما الكبد، وكان لا بد أن يتبع الأضحية الأولى أضحية ثانية للتأكد وفي حالات معينة بأضحية ثالثة ويبدو أن الفكرة الأساسية في ذلك كانت أن الإله اذا ما تمّ التوجه إليه بصورة صحيحة قبل التضحية وأخبر بالمشكلة المطلوب حلها يكتب جوابه الالهي في جسم الاضحية (١٢).

العرافة الطبية وانواعها

تشمل العرافة جوانب حياة الإنسان كلِّها، الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والصحية، وعندما ترتبط العرافة بالطب فإنها تصبحُ نوعاً من التشخيص أو التخمين أو التوقع أو الاحتمال الغيبي ويقول رينيه لابات عن هذا النشاط بأنه نوع من «التخمين والتشخيص الطبي وهو بحد ذاته مؤلفٌ من معلومات وبراهين ليس فقط في بحث الطب بل ايضاً في السحر والألوهية وهذا ليس بغريب كما موضح ذلك سابقاً من أن ظواهر المرض تهم ليس فقط الأطباء وإنما رجال الدين والسحر أيضاً إضافة إلى أن علم التخمين هو قسم من علم«معرفة المستقبل» (١٣).

ان العراف يضع بالتوازي حالتين الأولى وهي المركز أو النواة التي يمارس العرافة لاجلها وهي قضيته والثانية هي الحالة الموضوعية التي يلجأ إليها من المحيط ليفسر قضيته ثم يبدأ بربط التغيرات أو التكرارات في الحالة الموضوعية ليدل بها على الحالة الذاتية التي هو بصددها. وقد يحصل العكس فقد يستدل من حالة طبية أو صحية مركزية على أمر موضوعي عام . . وفي كلتا الحالتين يدل الأمر على تشخيص أو توقعٍ فحص صحة الإنسان قبل مرضه أو المريض قبل شفائه أو موته.

إن التشخيص السحري الذي تضمه العرافة كان «يُلاحظ من تقسيم جسم

الإنسان إلى ازواج من الاعضاء والاعضاء المكررة فالفاحص يهتم في تمييز أمراض الجهة اليمنى واليسّرى والكل يطبق هذا التقسيم حتى على الاعضاء المفردة معللاً بطريقة مجتمعة يسارها ويمينها ومجموعها ولا ينسى الاعتبار السحري أن تكون اليمين ًهي الجهةً الصالحة المفضلّة واليسار هي الجهة التي تمثل الشؤم وعلى نفس الأسس يجري معرفة أعضاء الأمراض حسب اختلاف الألوان فالنص يعالج بصورة متتابعة : اذا كان لون أحد الاعضاء أحمر، اصفر، اسود، مزرق، اسمر غامق، ملتهب وبارز أو متدلي فالتتابع يكون مختصراً والوصف يكون غير قابل للتغيير أو التقلب» (١٤).

تتقلص بعض أنواع العرافة عندما تدخل الطب ولكننا يقيناً نستطيع أن نعثر على صلة بين كلِّ أنواع العرافة (الفأل، الطيرة، العيافة، الأحلام، التنجيم، الفراسة) وبين الطب (الصحة والمرض) لكنّ ما يعوزنا أحياناً هو المادة الوثائقية أو الرقم التي تؤيد ذلك.

أنواع العرافة الطبية

١ . مراقبة الأحشاء (Veseroscopy)

كانت عرافة مراقبة الأحشاء واحدة من أهم مظاهر العرافة الطبية فقد كانوا يضحّون بحيوان معين ويكون خروفاً في الغالب ثم تستخرجُ أحشاؤه وتُقرأ أشكالها وخطوطها والإشارات الغريبة التي عليها وما نقص منها وتعتبر هذه القراءة (علامات عرافية) وضعتها الآلهة لكي تتنبأ أو تنذر بما يكوّن فألا لمنع شيء أو استمراره وهذا يعني أن كاهن البارو كان عالماً بالشكل القياسي (Standard) للأحشاء مما يدل على معرفة واتقان للتشريح الحيواني كذلك فإن قياس الإنحراف أو التشوه أو المرض كان يدل على معرفة بما نسميه اليوم في مصطلحاتنا بعلم الامراض (Pathology). وهناك أعضاءٌ معينة كانت تحظى بأهمية كبيرة هي (الكبد، الكلية، الأمعاء، القلب).

أ . علم الاكباد (Hepatoscopy)

كان الكبد عند العراقيين القدماء هو مركز الجسم الإنساني وفيه تكمن الروح

والانسان الذي ترضى عنه الآلهة فهو (يفرح أكباد الآلهة) والذي يغضبها (يغضب أكباد الآلهة) ولذلك كان يضحي بخروف للتنبؤ عن حالة سياسية أو اجتماعية أو بيئية أو لمعرفة مصير رجل أو نهايته، وقدّ نشر اندريه بارّو عن الفَترة التي تسبق السلالة البابلية الأولى ترجمةً لرقم «نستدلُ منها على أن أي تشويه في الكبد إنما كان يعني حدثاً سياسياً هاماً بالنسبة لسكان تلك العصور» (١٥) ونقرأ في هذه الرقم «نبؤات عن خراب أكد على لوح يحمل شكل كبد، وعلى لوح آخر نجد نبؤات بخراب مدن صغيرة» (١٦).

وتدلّ الأشكال المرسومة للكبد التي وصلت من تلك العصور على معرفة جيدة بتشريح الكبد كما نرى في هذا الجدول والنموذج لكبد الخروف (١٧):

الإسم العربي الحالي	الإسم البابلي (حروف عربية)	الإسم البابلي (حروف لاتينية)	معناه باللغة البابلية
الفص الأكبر	نبلاستم	Niblastum	. . .
الفص الأصغر	أوبانم	Ubanum	الأصبع
. . .	بدانم	Padanum	الممر
. . .	دكانم	Diganum	. . .
المرارة	ماراتم	Maratum	المرارة
قناة الكبد	نار أموتي	Nar amuti	. . .
البوابة	أبولوم	Abullum	الباب
. . .	نيتو	Nitu	النير
بوابة المعدة	أبو البطم	Abul Patum	بوابة غطاء
	لبيّ بتو	Libbi Sibtu	المعدة
الحزّ السري	باب إيكالم	Bab-ekallim	باب البلاط

جدول (٣) الكبد وأقسامها في الطب البابلي



شكل (٣١)
نموذج طيني لكبد تستعمل في العرافة وقد ظهرت عليها نصوص الفأل

وانتشر علم عرافة الاكباد عن طريق آسيا الصغرى الى اليونان والرومان وتتذكر هنا الحادثة الشهيرة التي سبقت مقتل قيصر عندما قرأ له عراف مصيره عن طريق كبد خروف.

إن تكرار الحوادث مع حدوث التشوهات التشريحية للكبد هي التي تلهم عرافي الأكباد «عند تقطيعهم إحدى ضحاياهم، قد لاحظوا أن كبدها ظهر بمظهر غير اعتيادي وبعد زمن قليل سيقع حدث ملحوظ، و«منعطف» في تاريخ الملك والبلاد. فيلاحظ التّصادف أولاً ثم يشار اليه. وقد يكون في ضوء تصادفات أخرى مماثلة تكاثرت في نظر الناس الذين يعتقدون بها ويتوقعونها، سيحكم على هذا التصادف كأمر بعيد عن حصيلة مصادفة، فيتخذ الحدث الأول كإخبار بالحدث الثاني، وكلاهما يُدونان كقول ذي قيمة شاملة، حتى استطاعوا، كل مرة وقع هذا الحدث غير الاعتيادي، ان ينتظروا وقّوع حدثٍ مماثل في ما يخص مصير البلاد والعاهل» (١٨).

ومن الامثلة الكثيرة على مثل هذه التنبؤات نختار ما يلي: (١٩)

١ ـ إذا كانت مرارة (الخروف المضحى به) خالية من القناة الصفراوية: سيعاني جيش الملك من العطش خلال حملة عسكرية.

٢ ـ إذا وجدت، في الجزء الأيمن من كبد (الخروف المضحى به) زائدتان فطريتان على شكل إصبعين. فذلك فأل لزمان تحدث فيه فوضى (إشارة الى الفترة ما بين ٢١٩٨ و ٢١٩٥ ق.م تقريباً التي سبقتّ سقوط سلالة أكد بنحو ثلاثين سنة).

٣ ـ إذا كان، في الكبد، الجزء المسمى (باب البلاط) يظهر أنه ما يسميه علماء التشريح بالحزّ السري) مزدوجاً، وكان ثمة ثلاث كلى، وعن يمين المرارة محفورة ثلاث حفر (بالأكدية بيلشو) واضحة، فذاك فأل اناس ابيشال (مدينة مجاورة لأوما، في جنوب البلاد)، الذي أسرهم الملك نرام سين باللجوء الى الخنادق (بالأكدية بيلشو).

٤ ـ هناك صيغة أخرى، قد تكون أكثر بلاغة، نلقاها بين أقدام الوثائق التي يمكن ربطها صراحة بالعرافة الاستنتاجية) وهي (تصاميم الأكباد) الشهيرة التي عثر عليها في ماري: (حينما ثارت بلادي على أبي سين، هكذا كان وضع الكبد).

ب. علم الكلى (Renoscopy)

ويتضمن قراءة خطوط وشكل الكلية وفقدانها لأحد الأجزاء أو عدم وجود كلية ووجود أخرى في الحيوان أو وجود خراج قيحي فيها وغيرها من العلامات المنذرة.

جـ. علم الامعاء (Coliscopy)

والأمعاء بحكم طولها تسمحُ بقراءة أطول وأكبر وقد استخدمت كثيراً «فقد وجد على لوح طيني رأس بطل يصارع كَلكَّامش وكتابة نصها : إن كانت الامعاء شبيهة برأس خمّبابا فان سرجون سيغدو سيد البلاد» (٢٠).

د. علم القلوب (Cardicscopy)

وكانت القلوب أيضاً تعامل نفس معاملة الأحشاء السابقة.

٢. مراقبة الولادات المشوهة والغريبة

كان العرّاف يراقب ولادات الإنسان والحيوانات خصوصاً عند الازمات وكانت الولادة المشوّهة أو الغريبة دالة على حدث مفاجيء أو نذير شؤم والبعض منها كان يبدو مستحيلاً وهنا نرى التدخل المسبق للعراف مثل :

* اذا ولدت امرأة اسداً فمعنى ذلك ان المدينة ستقهر والملك سيؤسر.
* اذا ولدت نعجةٌ اسداً فمعناه أن العساكر ستقوى ولن يكون للملك خصوم.

٣. مراقبة الطيور والحيوانات (العيافة)

منذ هذه الفقرة سننتقل الى عرافة الظاهرة ـ المرض وهي عرافةٌ أقربُ للطب الكهنوتي لانها تهتمُ تحديداً بتشخيص المرض من خلال ظاهرة عامة أو خاصة وقد نشر العالم الفرنسي لابات مجموعة من النصوص التي تخص الاعراض والعلل يتضمن «القسم الأول، ويضم رقمين أو فصلين، وهو ليس طبياً تماماً على الرغم من انه اعتبر من قبل الكهنة القدماء بأنه جزء من المجموعة، وفي الواقع فهو يضم

نصوص فأل خاصة بتفسير العلاقات التي شوهدت عندما كان طارد الارواح أو شخص آخر في طريقه إلى بين المريض» [٢١] ومنها :

١ ـ إذا رأى (طارد الأرواح) كلباً أسود أو خنزيراً أسود فسيموت ذلك الرجل المريض.

٢ ـ اذا رأى خنزيراً ابيض سيعيش ذلك الرجل المريض.

٣ ـ اذا رأى خنازير ترفع ذيولها دائماً فلن يقترب القلق من ذلك الرجل المريض .

٤ ـ اذا نعق غراب بحزن أمام رجل، فسيذرف الدموع، واذا نعق غرابٌ بحزنٍ وراء رجل فإن خصمه سيذرِّف الدموعَ.

٥ ـ إذا سقطت حية على سرير رجل مريض سيشفى ذلك الرجل المريض.

٦ ـ إذا سقطت عقرب على المريض فإنه سيموت في اليوم العاشر [٢٢].

٧ ـ إذا لازمت عقربٌ من غير انقطاع وسادة مريض فإن مرضه سيتركه [٢٣].

٤ . مراقبة الظواهر العامة (الفأل والطيرة)

وتقوم هذه المراقبة على نفس فلسفة العرافة حيث «جميع الإشارات التي في الامكان ننسبها الى الفأل، تغدو موضوع (تسليم)، ثم ما تلبث أن تدخل ضمن (اللوائح)، وكل مرة يتم تسجيل حدث بارز، حادثاً كان أم مرضاً. كانت تقام (رابطة) بين العلامة والحدث الناتج عنها لذا فإن هذه العلاقة المتبادلة والمقبولة، كانت تجعل من (العلامة) (نموذجاً) يحتذى به، بحيث أن تجدد العلامة ينبيءُ كل مرة بتجدد الحدث نفسه» [٢٤].

٥ . مراقبة الأحلام وتفسيرها

لم تكن جميع الأحلام، في نظر أهل الرافدين، لها علاقة بالطب أو بصحة المريض والمجتمع لكن بعضها يتصل بذلك مباشرة ويدخل في باب العرافة الطبية.

والليل هو الذي يرتبط بالأحلام، فهي نتاج الليل بالسومرية (مامود، ماشجي) وبالاكديه (شوتو) ويبدو أن تحديد سبب الحلم متأت من الاشباح . . ليس اشباح العالم السفلي الارضية بل تحديداً «أشباح الموتى وعدَم ثباتها والذي كان نوعاً من «نسخة» متلاشية وغير ملموسة وغير مجسدة يستحيلون اليها بعد موتهم . هكذا فإن العالم الحلمي لا بد انه وجد ذاته، في بلاد وادي الرافدين، مثل كون أثيري نوعاً ما، اي غامض، ولا يمكن القبض عليه وكأنه غير مادي» (٢٥).

وكانت هناك أيضاً صناعة الأحلام فمن خلالها يستلم (الحالم) أو (الرائي) إيعازات تخص الملك أو للقيام بشرح أمر ما، حيث يقوم الرائي «لاستعمال بعض المواد والمخدرات لتحقيق الغرض المَنشودّ كما كان على الرائي أن يقوم بعمليات تطهير وحين كان يجهد العراف نفسه لرؤية رؤيا لصالح الملك أو للقيام بشرح آية ما كان عليه عند الفجر أو بعد شروق الشمس بقليل، أن يغتسل في أناء تطهير، وبماء معطر، ويدهن نفسه ويلبس ثوباً طاهراً، ويضع في فمه وهو صائم شيئاً من الأرز يعلسهُ ويضع حجارة فوق قطعة قماش أحمر، وعلى ضفة النهر يرش من زبد المياه على تكوين حكمه، ثم يقوم بفك الطلّاسم ويقلب الحجارة ويدوس الأرز برجليه ويقف مصلياً أمام الإله شمش، تالياً طقس الإستجابة المخصص للعرافة الكبرى وللحصول على إسم رفيع) (٢٦).

وكان كاهن الأحلام وعرّافها ومفسرها هو الشائيلو Sha'ilu أي السائل أو المستقصي ومفسرة الاحلام اسمها شائلتو Sha'ltu، وكان تفسير الأحلام يجري على طريقتين أما بالطريقة الإلهامية المباشرة أو غير المباشرة الاستنتاجية وكان الكاهن ينظر الى الأمر عن كثب ويدرس الصور الرمزية المندمجة في الحلم، ويفك رموزها ويترجمها للمعني الذي جاء يستشيره وفي سبيل التأكيد على المكان الضئيل الذي كان يحتلهُ فيه الطبع والمزاج (٢٧).

ويبدو أن أهم الألواح والرقم الطينية التي تشكل ما يشبه (معجم الأحلام) تعود الى النصف الأول من الألف الأول وقد جاءت مفتتحة بكلمتي (دزيقيقو . . . دزيقيقو) اي (يا إله الأحلام . . يا إله الأحلام) وكان يضم (١١) لوحاً ويحتوي حوالي على ٤٠٠٠ حلم وتفسيره مصنفة كما يلي :

١ ـ أحلام التنقل والسفر .

٢ ـ أحلام الاطعمة والأشربة .

٣ ـ أحلام صناعة البضائع ونقلها .

٤ ـ أحلام أخرى متنوعة .

ولكي نورد نماذج من الاحلام الطبية نذكر ما يلي :

١ ـ إذا حلم الإنسان بأنه يأكل غزالاً فذلك يعني ظهور طفح جلدي .

٢ ـ إذا حلم الإنسان بانه يأكل ثعلباً فذلك يعني ظهور طفح جلدي .

٣ ـ إذا حلم الإنسان بأن له اجنحة وهو يندفع ويحلق فإذا كان فقيراً فسيبارحه شفاؤه، وإذا كان غنياً فسيبارحه رخاؤه، واذا كان في السجن فسيخرج منه لستعيد الحرية، وإذا كان مريضاً فسيبرأ .

٦ . مراقبة النجوم (التنجيم والطب)

معروفٌ أن التنجيم (Astrology) يختلف عن علم الفلك (Astronomy) في أن التنجيم ينحى بالفلك منحىً خرافياً وسحرياً ولذلك فإنه يشكل الجانب البدائي من علم الفلك وكان ينتعشُ في فترات النكوص الروحي والسياسي والعلمي ولكنه يعبر أيضاً عن روح شعبي نراه أكثر انتشاراً بين الناس وأكثر تداولاً، وقد ارتبط التنجيم العراقي القديم بالطب على أساس أن مراقبة السماء والكواكب يمكن أن تشير إلى مصائر الناس وصحتهم ومرضهم وإن اختفاء وظهور العلامات الكوكبية يدل على سعادة أو شفاء الإنسان وكان جزءٌ من شقاء الإنسان تعرضه للاصابة بالامراض وخاصة الملوك وأعيان الناس باعتبارهم كواكب على الأرض تتبادل التأثير والتأثر مع كواكب السماء .

ويختصُ بهذا النوع من العرافة الطبية كهنة البارو أيضاً، وتتجلى بعض أوجه هذه العرافة من خلال تحديد أيام وأشهر خاصة تعتني بصحة الناس ونشاطهم الروحي والجنسي وتلعب عشتار (الزهّرة) دوراً فعالاً في هذا الجانب .

وتأتي فلسفة ربط الطب بالفلك من خلال (الطب التنجيمي) بالتسلسل التكويني للآلهة السومرية والبابلية فبعد آلهة الهيولى القديمة تظهر لنا آلهة العناصر الأربعة التي هي أم الآلهة الكوكبية (آلهة الفلك) وهذه تلدُ لنا آلهة العالم الأسفل (آلهة الطب) فالفلك أبو الطب في الوجدان الديني العراقي القديم ولذلك يستعين الطب بالفلك سحرياً عن طريق التنجيم ولكن الفلك لا يستعين بالطب. وهكذا تسيطر آلهة السماء والكواكب على آلهة وشياطين العالم الاسفل التي تصنع الامراض وتشفيها.

قوى السحر

السحر : انواعهُ وقوانينهُ

رأينا في الفصول السابقة كيف أن الكاهن كان هو المسؤول عن الدين والمعتقدات الروحية والاسطورية وربطها بالحياة العامة، والعراف كان هو المسؤول عن التنبؤات والإنذارات التي تسبق الاحداث، وفي هذا الفصل سنتناول وظيفة الساحر الذي يحاول ان يكون وسيطاً بين الكائنات الإلهية والإنسان أو مسيطراً عليها لتسخيرها وفي حالة الطب يسمى هذا الساحر باسم عام هو (الاشيبو أو الاشيفو) وهو الشافي كما بينا ذلك سابقاً.

وقد أجرينا في الفصول السابقة تمييزاً بين الدين والعرافة والسحر لكننا نود أن نسلط هنا ضوءاً على السحر وطبيعته وقوانينه ونظامه ليسهل لنا لاحقاً توضيح علاقته بالطب.

السحر كما قال عنه السير جيمس فريزر مرحلة سابقة على الدين ومنه نشأت الأديان البدائية مثل الأرواحية (Animism) والطوطمية (Totemism) ويمكننا القول أن السحر هو أية علاقة لا سببية بين ظاهرتين أو شيئين يقوم الساحر بافتراضها ولذلك يمكن القول أن حياتنا اليومية إلى الآن ما زالت تزخرُ بالكثير من التماعات السحر. يبدو لنا السحر صارخاً وواضحاً عندما يقيم علاقة لا سببية بين طرفين محكومين بسببية واضحة أو عندما يتغلبُ على هذه السببية ويخترقها.

ويمكننا بصورة عامة القول بأن السحر ينقسمُ إلى نوعين أساسين هما :

١ . **السحر النظري (السحر باعتباره علماً زائفاً)** : ويشمل القوانين التي يتحرك بها السحر والتي يعمل الساحر وفقها دون أن يعلم بها ولكنها في الحقيقة قوانين

متضمنة ومستبطنة مثلها عندما يأكل الإنسان طعاماً ولكنه لا يعرف تركيب الطعام أو كيفية هضمه أو امتصاصه وهناك قانونان أساسيان هما اللذان يحركان السحر هما :

أ ـ السحر التشاكلي (homoeo pathic) ويسمى ايضاً سحر المحاكاة (Imitative) الذي يعتمد على «مبدأ التشابه (الشبيه ينتج الشبيه) وأكثر صوره شيوعاً وانتشاراً هي المحاولات التي يقوم بها كثير من الناس في مختلف العصور لإلحاق الأذى أو الدمار بأعدائهم عن طريق إيذاء أو تدمير صورهم، إعتقاداً منهم أن ما يلحق بالصورة من شر وضرر يلحق بصاحبها، وانه حين يتم تدمير الصورة يموت الأهل بالضرورة»(٢٨).

واقدم الامثلة على هذا القانون في العراق القديم هو«طقس الاستسقاء، اي استنزال المطر، وهذا الطقس كان في حدود الألف السادس قبل الميلاد من اختصاص النساء وليس الرجال، ويتلخص : بأن تقف أربعة نساء في وضع متقابل، بحيث كل واحدة منهن تكون باتجاه جهة من جهات الكون الأربعة، ثم يبدأ بتحريك شعرهن الطويل، ولكن بشرط بعد أن تبدأ عملية التحريك برقي الشعر اولاً باتجاه اليمين ومن ثم الى اليسار. وتحريك الشعر يميناً ويساراً من قبل النساء الأربعة يتسبب بالطبع في تحريك الهواء في المكان الذي يقفن عليه وايماناً بمبدأ العلل المتشابهة ينتج عنها نتائج متشابهة اعتقدوا بأن حركة الهواء في المكان الذي تجري فيه عملية الاستسقاء يتسبب في تحريك الهواء بصورة عامة، فتتسبب هذه الحركة العامة للهواء بجلب الغيوم التي يدونها لا يمكن أن يسقط المطر، ما دام الهواء هو الذي يأتي بالغيوم ويبعدها (٢٩).

ب ـ السحر الاتصالي (Contagious) : وهو السحر الذي يقوم «على فكرة أن الأشياء المتصلة تظلُّ، حتى بعد أن تنفصل تماماً أحدها عن الآخر، في علاقة تعاطف بحيث ان ما يطرأ على أحدها يؤثر بالضرورة تأثيراً مباشراً على الآخر. وعلى ذلك فالأساس المنطقي للسحر الاتصالي هو وجود نوع من الترابط الخاطئ بين الافكار» (٣٠).

٢ . **السحر العملي (السحر باعتباره فناً زائفاً)** : وهذا السحر هو ممارسة السحر والعمل به وهناك نوعان من السحر العملي هما :

أ ـ السحر الإيجابي (الطلس) : حيث يهدف هذا السحر إلى تحقيق شيء مرغوب فيه .

ب ـ السحر السلبي (التابو) : حيث يهدف هذا السحر إلى تجنب شيء مرغوب عنه . والرغبة في شيء والإمتناع عنهُ لا يستوجبُ وجود السحر لكن الافتراض أو المغالطة في الرغبة والامتناع هو الذي يجعل من هذا الموضوع سحراً بسبب من عدم ترابط المعاني «فالطلس هو القطب الموجب من هذه الاغلوطة» بينما يؤلف التابو القطب السالب . ولو أطلقنا كلمة سحر بشكل عام على ذلك النسق الخاطيء بجانبيه النظري والعملي لامكن تعريف بأنه الجانب السلبي للسحر العملي» (٣١) .

السحر وعلاقته بالطب

لو نظرنا ملياً في الثالوث الإلهي الأكبر عند السومريين والبابليين لوجدنا ان الالهين (آن ، اذليل) هما الالهان اللذان لا يودان الإنسان كثيراً انظر أسطورة الطوفان ودورهما في احداثه) ولذلك فإن الكثير من شياطين العالم الأسفل كانت تحت إمرتهما ومنهما كانوا يتسلمون الاوامر بمهاجمة الإنسان واحداث الامراض فيه عقاباً له ، في حين ان الاله إنكي (إيا) كان يحب الإنسان لأنه الذي صنعه من الطين وهو الذي أنقذه من الطوفان وهو الذي منحه الحكمة وهو الرب الأعلى للطب لأنه إله الماء والطبيب كان يسمى العارف بالماء وهو إله الحكمة والسحر ولذلك فإنه كان يسعى للإنسان بالسحر لنيل ما يريده فهو إله طلسي ومن نسله انحدر آلهة العالم العلوي الذين يمثلون الطب والشفاء مثل مردوخ وعشتار وتموز وشمش وكذلك انحدر آلهة العالم السفلي الذين يمثلون الطب والشفاء (ايريشكيجال ، ننازو ، ننكشزيدا) وكان الاله ايا «مصدر فنون السحر الوقائي والتعاويذ التي يعتمد عليها القانون في دفع الاذى الذي نلحقه بهم القوى العدوانية التي تفوق قواهم . لذلك كان إيا ايضاً هو الإله الذي يرعى مختلف المراتب الكهنوتية التي تدربت على ممارسة التعزيم وطرد الارواح الشريرة ، ومعرفة الرقي والتعاويذ ، وتفسير الأحلام وقراءة الطالع وتفسير الاحلام وقراءة الطالع . لقد كان هؤلاء هم الناس الذين كانوا يلجأ اليهم البابليون يستعينون بها على أقل اضطراب يصيبهم أو حيرة تلمّ بهم» (٣٢) .

وهكذا يبدو تلازم الطب والسحر تلازماً قوياً ويصبح كاهن الاشيبو (الساحر) معالجاً لجوهر المرض الروحي (المرتبط بالآلهة) فهو الوسيط بينها وبين المريض من جهة وبين المريض والشياطين من جهة أخرى أما الآسو (الطبيب) فيعالج الأعراض الجسدية للمرض ولذلك كان تلازمهما امراً ضرورياً.

يحاول الأشيبو تحديد الشيطان أو العفريت الذي تسبب في ذلك وبعد ذلك يحاول معرفة نوع الإثم الذي اقترفه المريض ليعرف سبب المرض «وذلك بقراءة جداول الآثام فلعل المريض قد اقترف بعضاً منها إن عمداً وإن سهواً. وما ان يشخص الذنب موضوع البحث حتى يتمكن (الاشيبو) من قهر العفريت الذي استغل الذنب لكي يحلَّ في جسم المريض. أما اذا كانت أعراض الحالة معروفة جيداً من قبل فإن العفريت يعرف أنه سيشخص بسرعة. وتستعمل مثل هذه الحالة طريقة علاج تلقي القبول بصورة تدريجية. وتوازي هذه الطريقة التعويذات وباستطاعتها صد هجمات العفاريت، كما انها تكون مصممة لتجبرها على أن تترك المريض»(٣٣).

وعلاج المرض يبدأ من ذهاب الساحر أو المعزم الى بيت المريض لرصد الجو ما بعد الطبيعي كما يسميه لايات، أي أن العرافة تسبق السحر هنا لان الساحر وهو يتجه الى بيت المريض برصد الاشياء التي في طريقه ويعتبرها فألا حسناً أو ضاراً ثم يبدأ تشخيص الشيطان ثم تشخيص الذنب (ثم يقوم الاشيفو بحزّ حنجرة المريض بخنجر من خشب، وقطع حنجرة الجدي بخنجر من نحاس، ثم يلبسون الجدي ثياب المريض ويروحون يندبونه كما يندبون الميت. ثم تقرب قرابين مأتمية لإريشكيجال، إلهة العالم الاسفل بينما يقوم الكاهن بتلاوة تعويذة (الاخ الاكبر أخوه) ويريدون بالأخ الأكبر : تموز. وعندئذ يسترد المريض عافيته. إن هذا الطقس مثال على عنصر هام في الديانة البابلية، وأعني به مبدأ (الفوهو) أو (البديل). فالجدي وهو رمز تموز، يصبح (بدلاً) من المريض)(٣٤).

وهكذا تتضح لنا صورة ارتباط الطب والأمراض بالعالم السفلي تماماً ونكاد نقول أن الإصابة بالمرض هو نوعٌ من سقوط الإنسان في العالم السفلي وهجوم شياطين العالم الاسفل عليه وتقييدهم له ولن يشفيه الاّ معرفة نوع هؤلاء الشياطين والذنب

ثم توسلهم وتوسل الآلهة وتقديم بديل عنه ليذهب للعالم الاسفل (ومن هنا جاء مبدأ الأضحية) وعندما يكمل هذا يتم إطلاق سراحه وخروجه من العالم الاسفل. وهذا المبدأ يجعلنا نتأكد من أن المرض عند العراقيين القدماء هو نوعٌ من العقاب الإلهي والنزول المؤقت، أو الدائمي (في حالة الموت) إلى العالم الأسفل بدليل أن المريض المشفوع له من قبل الأشيفو هو الأخ الأصغر للاله المعاقب تموز الذي يسكن العالم السفلي.

الشياطين : الجراثيم السحرية

إن أفضل صورة سحرية يقدمها علم المسببات المرضية (Etiology) في الطب العراقي القديم هي ذلك الاعتقاد الصارم بأن اسباب الامراض انما تنتج عن دخول الشياطين (التي تسبب الامراض) الى جسم المريض . . وتناظر هذه الصورة ما نجده في الطب الحديث حيث تدخل الجراثيم أو الأحياء المجهرية إلى جسم الإنسان مسببة له الامراض وبذلك تكون الشياطين جراثيم سحرية (Magic Microbs) إعتقد الانسان العراقي القديم انها سبب الامراض واللعنات الجسدية والروحية والعقلية وإذا أردنا التفصيل في هذا المجال فما علينا إلاّ دراسة كائنات العالم السفلي التي يسبب آلهتها وشياطينها الأمراض :

١. **الإله نركال** : وهو اكبر إله في العالم الاسفل وزوج الإلهة أرشكيجال وقد «كان الاله نرگال بالأصل الهاً للامراض والاوبئة وكان مركز عبادته في مدينة (كوتو، أو «كوثي» [٣٥] وكان أساساً إلهاً سماوياً انزلته أرشكيجال وتزوجته وجعلته سيد العالم الأسفل (وبخصوص علاقته بالاوبئة نذكر هنا أن الطاعون قد وصف في رسائل تل العمارنه في مصر بأنه يد الإله نرگال، ومما يذكر في هذا الصدد ان الاله نركال قد تطابق لصفاته هذه في كثير من الأحيان مع إله الطاعون (ايرا) كما إنه يطابق أحياناً النار (كبل) لاشتراك صفة الحرارة بينهما) (٣٦) وقد اقترن نركال بكوكب المريخ الذي يرمز للموت والشر، وكانت الذبابة الناقلة للامراض رمزاً له في احيانٍ كثيرة.

٢ . **نمتار** : وهو إله ثانوي (ويعني اسمه في السومرية ـ مقرر المصير ـ وكان بيده زمام ستين نوعاً من الأمراض والأوبئة ويعتبر بمثابة الوزير للإلهة أرشكيجال والمنفذ لاوامرها وقد وردت الاشارة في معرض وصفة بأنه يحمل سيفاً مسلطاً على البشر وكان بامكانه تسليط الاوبئة التي يسيطر بها حتى على الآلهة كما حدث بالنسبة للالهة عشتار عند نزولها الى العالم الاسفل) (٣٧) .

٣ . **شياطين العالم الاسفل المرضية** : وهؤلاء الشياطين على ثلاثة انواع وهي :

أ ـ الشياطين المنحدرون من أصل سماوي وهم ذرية الإله آنو .

ب ـ الشياطين المنحدرون من أصل بشري وهم أشباح الموتى .

جـ ـ الشياطين المنحدرون من العالم الأسفل والقديم وهم عفاريت وجن عالم الأموات .

ويبدو أن اكثر الأصناف تسبباً للأمراض هو الصنف الأخير رغم وجود دلائل على أن الصنف الأول يسبب الامراض بأوامر من آنو واذليل اعداء البشر ، ويمكننا إجمالاً أن نعدد شياطين الأمراض كما يلي :

١ ـ آخزو (الآخذ)

٢ ـ رابيصو (المتربص) يسبب امراض الجلد .

٣ ـ لاباشو (المخرب)

٤ ـ ليلو (شيطان الليل وزوجته ليليتو)

وتصفهم التعاويذ كما يلي «يهاجمون قطعان الماشية في المراعي وينشرون الأمراض في اسطبلات الخيول يملأون فم الحمير بالطين ويحلّون الوباء في بيت الأتان» (٣٨) ويبدو أن لهؤلاء الشياطين فعالية سحرية بيطرية بالاضافة لافعالهم ضد الإنسان . وهناك شياطين تختص بأعضاء معينة من جسد الضحية وهي :

٥ ـ أشاكو : يسبب الصداع ويهاجم الرأس .

٦ ـ تيعو : شيطان شر الرأس .

٧ ـ أتوكو : يهاجم البلعوم والرقبة.

٨ ـ آلو : يهاجم الصدر.

٩ ـ أومو : يهاجم الاضلاع.

١٠ ـ أطمو : يهاجم الخاصرة والمعدة.

١١ ـ لبرنو : تسبب الكوابيس والرؤى المفزعة.

١٢ ـ لباسّو : يسبب الصرع.

١٣ ـ گالو : يمسك الجسم ويهاجم اليد.

١٤ ـ ليبارتو : يسبب الامراض.

١٥ ـ أتيمو : يهاجم القوام.

١٦ ـ إيلو : يهاجم القدم.

وكان هؤلاء الشياطين وغيرهم يركضون في بعض الأحيان وراء الناس «وللتخلص من ملاحقة شياطين العالم الاسفل للناس، كان هؤلاء يلوذون بمعبد يسمى ـ بيت رمكي ـ حيث يوجد كاهن من صنف أشيبو كان يقوم بأداء مراسيم طرد الشياطين والارواح الشريرة يساعد كاهن من صنف (رمكو) كان مختصاً بطقوس التطهير» (٣٩) ولذلك اعتقد سكان وادي الرافدين أن الشياطين يمكن أن تهاجمهم في أية لحظة حال اقترافهم ذنباً أو معصيةً وكانت سبعة منها هي الاكثر قوة ونختار لها هذه التعويذة ·

«إنها سبعة تسكن في الأرض

إنها سبعة خرجت من الأرض

إنها سبعة ولدت على الأرض

إنها سبعة ترعرعت على الأرض

جاءت لتطأ بأقدامها شواطئ المحيط» (٤٠).

السحر الوقائي (الرقى ، التعاويذ ، التمائم)

كان السحر العراقي القديم جداً سحراً طوطمياً ولا شك ، ولكنه مع اكتشاف الزراعة تحول إلى سحر زراعي ومع نشوء المدن تحول إلى سحر ديني يبدو وكأنه جزءٌ من الطقوس الدينية الوثنية التي كانت تمارس آنذاك وكان الجانب الطقوسي منه يستعمل وسائل عديدة أهمها الرقي والتعاويذ والتمائم التي كان الغرض منها في الجانب الطبي وتشخيص المرض والعلاج أو الوقاية منه قبل وقوعه . وكان هذا النمط الأخير شائعاً للغاية حتى أنه غلب على بقية أنواع السحر وكان السحرة هم الذين يقومون بصناعتها لا على أساس مشعوذ بل على اساس التأثير النفسي الذي يمكن أن يحدثه فالمريض إنسانٌ مؤمن بالآلهة وبوجود الشياطين ولذلك فهو يحمل استعداداً نفسياً للإعتقاد بأن الآلهة ستشفيه عن طريق تشخيص وطرد الشياطين التي تسبب الأمراض «إن هذه التشخيصات ذكرت مكتوبةً على لوحات تشخيص الأمراض في المستشفى وموقعه من قبل رجال الدين السحرة هؤلاء . إن من أدهى اسلحتهم واكثرها تأثيراً كان قراءة الرقى والتعاويذ التي تمارس بمعونة الآلهة والكلام المرتب المنمق له تأثيره أيضاً وكذلك تصاحب هذه المقدمات طقوس سرية معينة وعناصر هذه الطقوس الرئيسية كانت تستخدم في وادي الرافدين كما عند أغلب الشعوب القديمة ، ومنها حتى يومنا هذا وتتلخص هذه الطقوس باستعمال ألوان رمزية معينة وطرد الشر بالقوة وبوساطة عمل عقد من الجبال أو الخيوط ذات الألوان ، استخدام الدوائر والارقام ، واظهار القوى الجاذبة أو الدافعة لعناصر معينة ، التطهير بالماء ، اضرام النيران ، إظهار اصطدام ورجوع القوى الخفية واخيراً الايهام بتبديل مواضع جلوس الاشخاص» (٤١) وكانت هناك انواعٌ من التمائم وكانت أشكالها غريبة فأما تكون مثل رأس عفريت منحوت على حجر أو رأس دبوس أو طير أو أسد أو حيوان غريب .

تميمة بازوزو

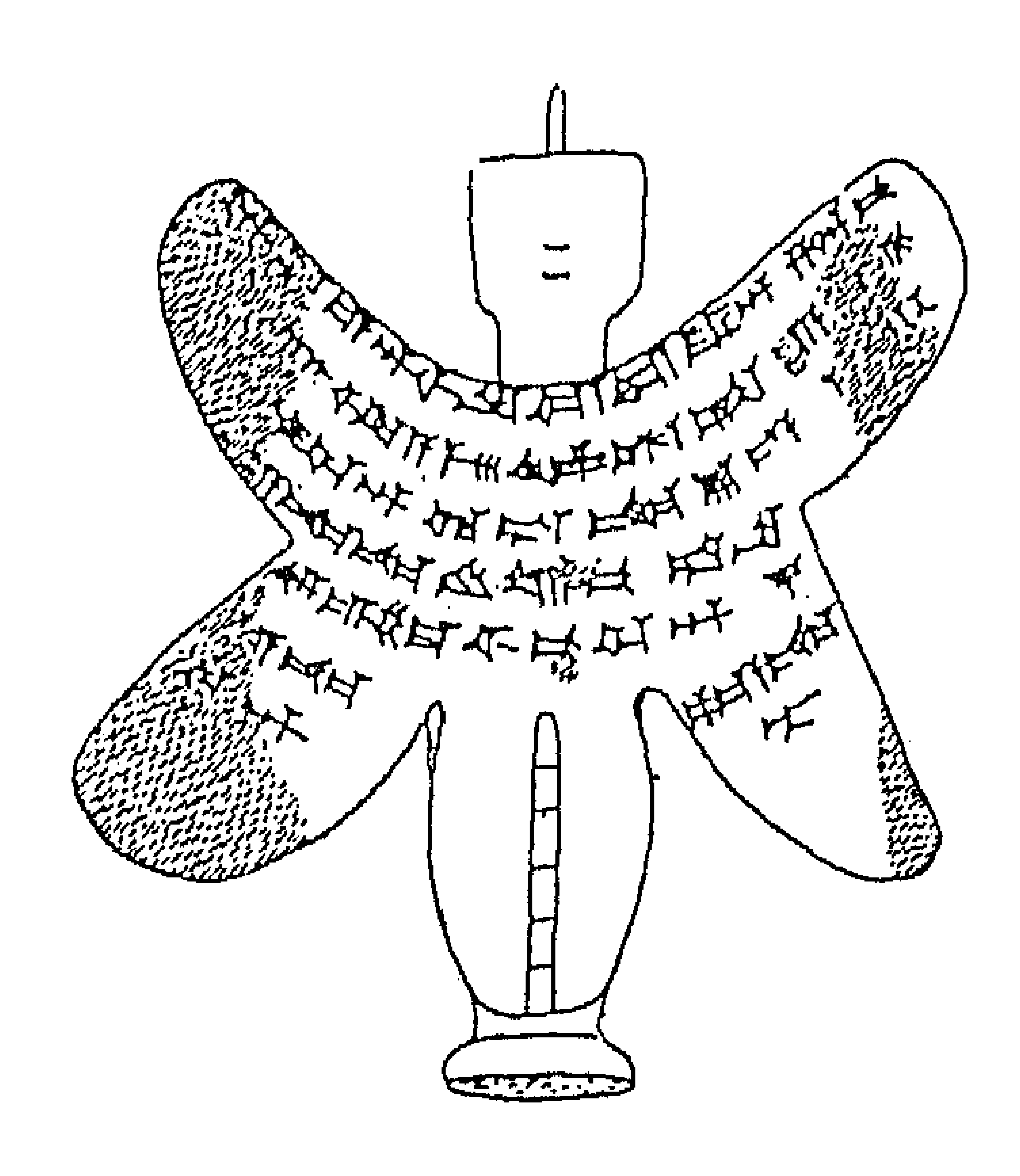
وهي من التمائم الشائعة جداً والتي كانت في البدء تستعمل ضد القلق والريح ثم أصبحت تستعمل لحماية النساء وقت الولادة وكان شكلها يبدو مثل طائر وعليها كتابةٌ تقول :

«أنا الإله بازوزو إبن الإله خابني ملك عفريت الريح الشرير . . أنا الذي يثور بقوة في جبل العالم الأسفل حتى يرتفعوا. أما بالنسبة للرياح التي ترافقهم، فقد وضعت الريح الغريبة أمامهم، الرياح كسرت جناحها»[٤٢] الشكل (٣٢، ٣٣).



شكل (٣٢) : الشيطان بازوزو

النصف الأول من الألف الأولى ق.م)

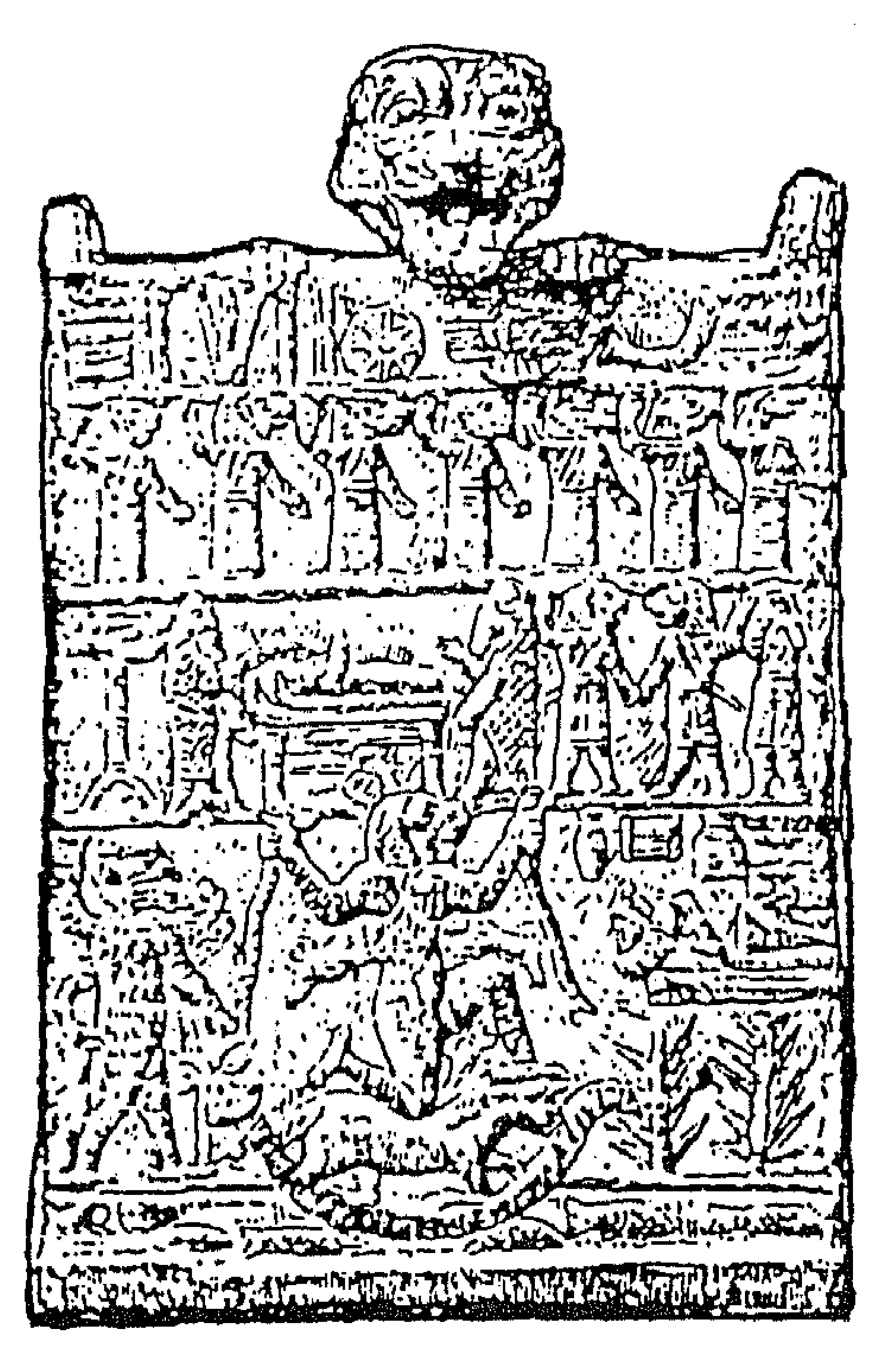


شكل (٣٣)

تميمة بازوزو عليها نص التعويذة

تميمة لاماشتو

الشيطانة لاماشتو يهاجم النساء الحوامل ساعات الولادة والامهات المرضعات فلذلك كانت تصنع لها تميمة عليها رسم مكون من «وحش برأس أسد وجسم امرأة ويظهر الوحش وهو على حمار يركبُ في قارب النهر ويرضع حيوانيين ولعله لاماشتو نفسها وقد طردت بهذا الاسلوب السحري» (٤٣).





شكل (٣٤)

الشيطانة لامشتو على تميمة برونزية

أ. القفا : يظهر أجنحتها وذيلها وأقدامها ذات المخالف

ب. الوجه : يظهر مراحل طرد الشيطانة من جسد المريض



شكل (٣٥)

لاماشتو يرضع من ثدييها حيوانين (ربما خنزيرين) وتمتطي حماراً وتمسك حيّتين

تعويذة البصلة

وكانت تستعمل بعض المواد (كالبصلة والتمر والفتيلة . . . الصوف وشعر الماعز) للتعاويذ ونرى مثلاً لذلك هذه التعويذة (٤٤) .

«تعويذة كهذه البصلة التي يقشرها ويرميها في النار، فتلتهمها النيران تماماً ولن تمسك جذورها في التربة، ولن تتفتح براعمها، حتى لا تستعمل الطعام اله أو ملك، ولعل القسم واللعنة والمرض والتعب والذنب والخطيئة والشر والاثم والمرض الذي في جسمي أو في لحمي أو اطرافي ينتشر كهذه البصلة لتلتهمها النار تماماً، اليوم، لتبتعد اللعنة بعيداً حتى أرى النور» (٤٥) .



شكل (٣٦)

أحد شياطين العالم الأسفل برأس أسد

(شيطان أمراض)

تعويذة اتِمُّو

اذا استولى أتمو على إنسان، وصرخ قلبه، وعليك أن تتطهر في يوم سعد، وتغتسل بماء الحوض. تلج الصحراء وتكنس الأرض بغصن نخيل. وتصنع للمريض تمثالاً من طين يكون بدلاً منه، تكسوه ثيابه اليومية، وتقدم لطعامه سبعة أرغفة مرتين، وتقرن إلى رأسه مغزلاً وغطاءً ومسماراً. ثم تضعه فوق المذبح أمام شمشً وتنثر عليه تمراً وطعاماً شهياً، وتضع أمامه مجمرة من عطر السرو، ومجمرة بخور صغيرة والتمثال أمام شمش. بعد هذا تتلو هذه التعويذة (أيها الأب إيا، أيها المضيء، أيها الأب إيا، يا من تهب القوة لتعويذة مردوك ابن اريدو. مردوك رآه.. ضابط السماء والأرض، ان الذي وجد جميع الاشياء وهو الذي يثر المريض.

عليك ان تتلو هذه التعويذة ثلاثاً. ثم تقطع نياط ملابسه وتقدم إليه طعاماً من

كعك مخبوز بالرماد وقدحين من منقوع الملت. ثم تأخذ التمثال وتقرنه الى غصن من شجر الطرفاء، وتتلو عليه التعويذة ثم نضعه في مكانه الصحيح (٤٦).

تعويذة اسارلوخي

«لقد عملت الساحرة سحرها الشرير، لقد جعلتني آكل روحها غير الطيبة لقد جعلتني أشرب شرابها لتأخذ روحي، لقد غسلتني بماء غسيل قذر لأن وجودي هو وجود رجل ميت، لقد مسحتني بزيتها الرديء لتدميري، لقد جعلتني أمرض بمرض سيء هو قبضة اللعنة، لقد عينني لشبح غريب بتجول وليس له عشيرة.

اسارلوحي ابن أيا يقول لابيه: أبي الذي خلق البشرية بيديه لقد ذهبت الساحرة لتأخذ روحه» (٤٧).

السحر الأسود (الكشفو): صناعة المرض سحرياً

السحرُ الاسود هو سحر مضاد، سحرٌ شرير ولا يسعى إلى أهداف نبيلة فغاياته تدميرية وكانت القوانين العراقية القديمة مثل قوانين حمورابي تعاقب بقسوة ممارسي السحر الأسود وكان بعضُ كهنة (الاشيفو) يمارسون هذا السحر عندما يتفقُ بعض هؤلاء الكهنة مع الشياطين لإيقاع الأذى ببعض الناس فكان مثل هؤلاء الكهنة يسمون (كشفو) أي الكاشفون وهذا السحر الاسود يسمى (السحر الكشفي).

ولأن إله (إيا) هو الرب الاعلى للطب فقد كان الماء هو وسيلة الشفاء الأساسية في حين تقف النار في مقابله سبباً للأمراض والعلل ولذلك نجد إله النار (كيرا أو كيرو) هو ابن آنو وأحياناً نرى (نسكو) وزير إنليل هو إله النار وهو المسؤول عن السحر الاسود ولذلك تسمى النصوص المضادة السحر الأسود بـ (نصوص النار).

وقد ترك لنا البابليون مجموعة كبيرة من نصوص النار هذه اسمها (الشوربو والمقلو Shurpu , Maglu) وكان يؤذيها ساحرٌ مشعوذ يلبسُ رداءً أحمر ويمسك بيد زاغاً وباليد الاخرى نسراً وهو يقرأ التعاويذ قرب رأس الشخص المعوّذ.

الشربو والمقلو كلماتان كلاهما تعينان (الحرق) وكانت تضاف لهاتين المجموعتين الناريتين مجموعة نارية اخرى تسمى (اتوكّي لمنوتي Utukki limnuti) وتعني (الارواح الشريرة) وفيما يلي نبذة مختصرة عن كل نوع من هذه التعاويذ المضادة للسحر الاسود النارية هذه:

١. **تعاويذ المقلو**: كانت تهدف بشكل رئيسي لإحباط كيد العرافين والسحرة من البشر. وكانت ترافق السحر الأسود وكانت تتلى وكان شكل الساحر الذي صنع الشر والمصنوع من الشمع أو الخشب أو البرونز أو القماش يحرق بالنار (٤٨) ويبدو أن الكاهن المعوذ كان يقوم بحرق دمية الساحر المشعوذ. ومن نصوص هذه التعاويذ هذه التعويذة: هي التي في قلبها تسكن كلمة شقائي، التي على لسانها يولد خرابي، التي على شفتيها ينشأ زعامي، التي في خطواتها يقف الموت» (٤٩).

وهناك تعويذة أخرى لإبطال السحر تختم بهذه الكلمات: عقدتها انفكت، سحرها قد بطل، وملأت جميع رفاها الصحراء (٥٠).

٢. **تعاويذ الشربو**: كانت وسيلة للتخلص من الذنوب سواء كانت ذنوب المصاب أو مخالفات الشعائر أو انتهاك المحرمات التي اغضبت الإله وبذا جلبت المرض على المصاب، وكانت تتم على بعض المواد التي كانت تحرق بعد ذلك (٥١)

٣. **تعاويذ أتّوكي لمنوتي**: كانت مكرسة لطرد الارواح الشريرة.

وكانت هناك تفاصيل دقيقة في هذه التعاويذ لعلاج الصداع وألم الاسنان وفك اللعنات وحسد العين وعلاج لسعات العقرب والثعبان وغيرها. إن عمليات سحر الكشفو (الاسود) كانت تقابلها عمليات (طرد الارواح) التي حفلت بها التعاويذ السابقة ايضاً. وعمليات طرد الارواح طقوس سحرية كانت بمثابة مضادات للسحر الاسود أو تجنباً له.

نماذج من تعاويذ السحر الاسود ومضاداته

١. تعويذة كَيرا

«تعويذة كيرا المتوهج إبن آنو البطل أنت الأقوى بين اخوتك انت الذي يحكم

القضايا كاله سن والاله شمش، احكم في قضيتي واتخذ قراراً بشأني : احرق عرّافي وساحري، ايه كيرا التهم عرّافي وساحري، إيه كيرا احرقهم : إيه كيرا التهمهم، إيه كيرا . . إربطهم، إيه كيرا إمحقهم : إيه كيرا إرسلهم بعيداً» (٥٢).

٢ . تعويذة باوا . اخ . ادّينا

ايه ننورتا، السيد العظيم، مزّق قلب وإنه حياة واقتل زوجة وامحق أولاد واقرباء ومعارف واسم وبذور ونسل باوا ـ اخ ـ ادينا (٥٣).

٣ . تعويذة طرد الكابوس

ذا ظهر شبح ميت على شخص وإذا عرفه هذا الشخص أو لم يعرفه فلأجل إبعاد ظهور هذا الشبح تصنع دمية تشبه وتمثل هذا الميت ويجب وضعها فوق فراش المريض.

في اليوم الثالث عند الظهيرة يجب كنس الأرض من امام الاله شمش ورشها بالماء النقي ويوضع مذبحٌ صغير وفوق المذبح توضع كمية من الشمر وتنثر كمية من الطحين ثم تشعل مبخرة فيها عصير شجرة السرو، ويسكب بيرة من النوع الجيد، بعد ذلك تلعن الدمية بالتعابير التالية (شمش، انت دليل هذا الميت في العالم السفلي وفي العالم العلوي فامنحني حلاً كالتي، انه مرعب، قبيح المنظر جاسوسٌ بغيضٌ ومخيف ليلاً، انني أنحني واتضرع واطلب جعله بمكاني. بحياة شمش ليبعد عني) وتكرر هذه الصيغة ثلاث مرات ثم تكفن الدمية وتدفن في ظلال شجرة نبق ذات أشواك (٥٤).

ان الجوهر الذي تقوم عليه أسس السحر الأسود ومضاداته (طرد الارواح) يتركز في (التسخير) أي جعل الأفراد تحت سيطرة الساحر السحرية والإسهام في حالات مؤذية من السحر، وتذكر لنا الأدبيات المكتوبة باللغة المسمارية النتائج السيئة جداً المتأتية من خلال ممارسة هؤلاء لهذا الضرب من التبشير علماً بأن دقائق ممارسة هؤلاء لهذا العمل كانت سريةً للغاية، ولم نعرف تفاصيلها عدا ما تذكره الاقوال الخاصة بطرد الأرواح الشريرة والتعابير التي تضم مفاهيماً سحرية والتي عثرنا على العديد منها ويقصد منها محاربة ما يسمونه (بالسحر الاسود) بمساعدة وبدفع معنوي من الآلهة، ولهذا نجد تعبير (طرد الأرواح الشريرة) اكثر ملائمة للمفهوم (٥٥).

٤ . تعويذة نسكو

رغم ان كيرا إله النار لكن الإله نسكو وزير إنليل يتخذ أحياناً صفة إله النار وأحياناً مضاداً للسحر الناري (الاسود) كما في تعويذة نسكو هذه «إيه نسكو . . يا ابن آنو العظيم يا صورة أبيه ، وأول من ولدته بيل ، ان الساحر فتنني بالسحر الذي استخدمه فأسحر بسحره . ان الساحر فتنني بالسحر ، فاغوه بسحره ، أولئك الذين صنعوا صوراً عني وأعادو نقل أعمالي وجردوني من التنفس ، إنزع شعرهم أولئك الذين مزقوا ثيابي ومنعوا أقدامي من ان تدوس علّى الغبار ، فليحطم إله النار الجبار سحرهم . ارفع مشعلي واحرق صورهم من أتوكو ، وشيدو ، من ربيتو وايميدو ومن كل شرٍّ يصيب الإنسان . فليرتعدوا ولينهاروا وليختفوا وليرتفع دخانك حتى السماء وليقطع ساماس اعضاءكم وليحطم نسكو ابن ايا الساحر العظيم قوتكم» (٥٦) .

السحر والطب النفسي والعقلي

إذا كان الطب قد ارتبط بالسحر هذا الارتباط الوثيق فلا شك أن ذروة تجليات السحر في الطب تكون في الطب النفسي والعقلي لما لهما من علاقة شديدة بوظيفة كاهن الأشيبو (الساحر). والى يومنا هذا نرى ان الطب النفسي ما زال شديد العلاقة بالعلاج الروحي وما زال الطب الروحي ناجحاً الى حد كبير في التعامل مع بعض الامراض النفسية خصوصاً اذا اعتقد المريضُ بها.

اهتم العراقيون القدماء بالطب النفسي وخصوصاً بعض نصوص (مقلو) التي ذكرناها لمعالجة الحالات النفسية وخصوصاً تلك النصوص التي تحتوي على عنصر الإيهام.

١. وجود العنصر الايهامي

لنقرأ هذا النص المقلوي: يا قحف يا جرة الطريق لماذا انت ناصبٌ العداء لي - وهذا حول ساحر الكشفو (الاسود)، فيجاوبه المريض - أنا شوكة الشوك لا تطئني، انا ذنب العقرب فلا تمسكني، أنا جبل وعز فاحذريني لأن السحر وأعمال الشر والتعاويذ لا تقرب مني - فهنا شجع المريض بأن يعتقد بأن الساحرة التي استخدمها عدوه ضده سوف تخاف من الآن ثم ياخذ المريض يخاطب الساحرة التي سحرته: ان الساحرات جعلنني أتناول طعاماً مسحوراً، إن الساحرات جعلنني أشرب ماء مسحوراً، ان الساحرات غسلنني في ماءٍ قذر، إن الساحرات ذهنني برحيق من أدويةٍ شريرة [٥٧].

٢. الشعور بالاضطهاد

يشعر المريض أحياناً بالإضطهاد وبأن الإله أو الملك أو أصحاب السلطة غاضبون

عليه وأن من حوله لا عمل لهم سوى إشاعة الأخبار الرديئة وهناك نصٌ يؤكد ان المريض (مزدرى من قبل مجتمعه وان ربه وربته غاضبان عليه وتراه خائفاً على الدوام وينجر احياناً في نوبات شديدة من الغضب ضد ربه أو ربته ومن ان عائلته لا تحسن معاملته وان الاله والملك وكبار البلد لا يحسنون معاملته ولا ينصفوه، ثم يذهب النص الى الكلام عن حالته الجسمانية وكيف ان مرضه . . . . وتغير عفياه لونهما من أحمر الى أصفر واسود وليس لديه اية رغبة نحو الجنس. وهذه اشارة صريحة الى الصرع والعلاج النفسي لها) (٥٨).

أما أهم الامراض العقلية أو الذهنية التي ترد مرتبطة بالسحر فهو الصرع حيث يوصف سببه فإنه بسبب عفاريت الگالا (الگالو) وجاءت أسماء هذا المرض معبرة عن اسماء شياطين مثل (نيديتو، اطممو، مورتا، بيدو).

أما التشنجات العصبية الهستيرية فكانوا يطلقون عليها اسماً سحرياً هو (قبضة الشياطين).

والجنُ والعفاريت إذن هم أسباب مثل هذه الامراض وتعامل كغيرها من الأمراض سحرياً وكانت العين الحسودة واحدة من الأمراض النفسية التي كانوا يعتقدون بها حيث يقول لابات «ان هؤلاء الأطباء كانوا يؤمنون كغيرهم في ذلك العصر بالعين الحسودة والشعوذة)، واعتقد الطبيب ايضاً بأن عالماً بدون آلهة غير ممكن ادراكه وكان في بعض الأحيان يشكر هذه الآلهة لشفائها أحد مرضاه. وكان كذلك يعتبر طبيعياً أن يرسل الملك مع الطبيب أحد رجال الدين الذي يقوم بوظيفة إخراج الجن من الجسم» (٥٩).

مراجع الفصل الرابع/ من الباب الثاني

١ ـ الشنتناوي، أحمد : التنبؤ بالغيب قديماً وحديثاً، سلسلة إقرأ (٢٠١) دار المعارف بمصر (ب. ت) ص ٥ .

٢ ـ المرجع نفسه ص ٤٤ .

٣ ـ المرجع نفسه ص ٤٤ ـ ٤٥ .

٤ ـ الجميلي، قحطان محمد : التنبؤ وقراءة المستقبل حقائق أم أوهام، منشورات الدار القومية، بغداد، ١٩٨٦ ص ٢٧,

٥ ـ الشنتناوي، أحمد : المرجع السابق ص ٤٥,

٦ ـ المرجع نفسه ص ٥٥ .

٧ ـ بوتيرو، جان : بلاد الرافدين (الكتابة، العقل، الآلهة) ترجمة البير أبونا، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ١٩٩٠ ص ١٦٧,

٨ ـ المرجع نفسه ص ١٦٨ .

٩ ـ المرجع نفسه ص ١٤٤ .

١٠ ـ المرجع نفسه ص ١٧٥ .

١١ ـ روثن، مارغريت : علوم البابليين، تعريب وايضاحات د. يوسف حبّي، وزارة الثقافة والاعلام، بغداد ١٩٨٠ ص ٢٨ .

١٢ ـ ساكز، هاري : عظمة بابل، ترجمة د. عامر سليمان ابراهيم، جامعة الموصل، الموصل، ١٩٧٩ ص ٤٠١ ـ ٤٠٢,

١٣ ـ لابات، رينيه : الطب البابلي والآشوري، ترجمة د. وليد الجادر، مجلة سومر المجلد (٢٤) مديرية الآثار العامة، بغداد ١٩٦٨ ص ٢٩٤,

١٤ ـ المرجع نفسه .

١٥ ـ روثن، مارغريت : المرجع السابق ص ٦٠ .

١٦ ـ المرجع نفسه .

١٧ ـ الراوي، د. فاروق ناصر : «العلوم الطبية» كتاب حضارة العراق جـ٢، دار الحرية للطباعة، بغداد ص ٣٣٨,

١٨ ـ بوتيرو، جان : المرجع السابق ص ,١٧٢
١٩ ـ المرجع نفسه.
٢٠ ـ روثن، مارغريت : المرجع السابق ص ,٦٠
٢١ ـ ساكز، هاري : المرجع السابق ص ٥٣٠ ـ ,٥٣١
٢٢ ـ الراوي. د. فاروق ناصر : المرجع السابق ص ,٣٣٨
٢٣ ـ روثن، مارغريت : المرجع السابق ص ,٥٨
٢٤ ـ بوتيرو، جان : المرجع السابق ص ,١٤٥
٢٥ ـ روثن، مارغريت : المرجع السابق ص ,٥٩
٢٦ ـ بوتيرو، جان : المرجع السابق ص ,١٥١
٢٧ ـ المرجع نفسه ص ٥٤ ـ ١٥٨.
٢٨ ـ فريزر، سير جيمس : الغصن الذهبي، ترجمة د. أحمد أبو زيد جـ١ الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، القاهرة ١٩٧١ ص ,١٠٩
٢٩ ـ رشيد، د. فوزي : الفكر في العراق القديم (مخطوطة)، بغداد، ١٩٩٥، ص,٢٦
٣٠ ـ فريزر، سير جيمس : المرجع السابق ص ,١٠٩
٣١ ـ المرجع نفسه ص ١٣٢.
٣٢ ـ هوك، س. هـ : ديانة بابل وآشور. ترجمة نهاد خياطة، العربي للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، ١٩٨٧، ص٨٥.
٣٣ ـ كونتينو، جون : الحياة اليومية في بلاد آشور، ترجمة سليم طه التكريتي وبرهان عبد التكريتي، دار الرشيد للنشر، بغداد، ١٩٧٩ ص ,٤٨٨
٣٤ ـ هوك، س. هـ : المرجع السابق ص ,٨٣
٣٥ ـ حنون، نائل : عقائد ما بعد الموت في حضارة وادي الرافدين القديمة. دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد ١٩٨٦ ص ,١٩٢
٣٦ ـ المرجع نفسه.
٣٧ ـ المرجع نفسه ص (٢٠٦ ـ ٢٠٧).
٣٨ ـ المرجع نفسه ص ٢١٦.

٣٩ـ المرجع نفسه ص ٢١٧ .

٤٠ ـ شمّار، جورج بويية : المسؤولية الجزائية في الآداب الآشورية والبابلية، ترجمة سليم الصويص، منشورات وزارة الثقافة والاعلام، بغداد، ١٩٨١، ص ,٥٤

٤١ ـ لابات، رينيه : المرجع نفسه ص ,٣٤٠

٤٢ ـ المرجع نفسه ص ٣٤١ .

٤٣ ـ المرجع نفسه ص ٣٤٢ .

٤٤ ـ المرجع نفسه ص ٣٤٣ .

٤٥ ـ المرجع نفسه ص ٣٤٥ .

٤٦ ـ هوك، س. هـ : المرجع نفسه ص ,١٨٣

٤٧ ـ ساكز، هاري : المرجع نفسه ص ٣٤٠ـ ,٣٤٥

٤٨ ـ المرجع نفسه .

٤٩ ـ المرجع نفسه .

٥٠ ـ المرجع نفسه .

٥١ ـ المرجع نفسه ص ٣٤٦ .

٥٢ ـ المرجع نفسه ص ٣٤٢ .

٥٣ ـ المرجع نفسه ص ٣٥٦ .

٥٤ ـ بوتيرو، جان : الديانة عند البابليين، ترجمة د. وليد الجادر، جامعة بغداد، بغداد ١٩٧٠ ص ,١٥٩

٥٥ ـ المرجع نفسه ص ١٦٠ .

٥٦ ـ شمار، جورج بويية : المرجع السابق ص ٨٥ـ ,٨٦

٥٧ ـ الأحمد، سامي سعيد : «الطب العراقي القديم» مجلة سومر، مديرية الآثار العامة، بغداد المجلد ٣٠، ١٩٧٤ ص .

٥٨ ـ المرجع نفسه ص .

٥٩ ـ لابات، رينيه، المرجع السابق ص.

الفهارس

فهرس المراجع

١ - الأحمد، د. سامي سعيد : الطب العراقي القديم، **مجلة سومر**. مديرية الآثار العامة، بغداد، المجلد ٣٠، (١٩٧٤).

٢ - أوبنهايم، ليو : **بلاد ما بين النهرين**، ترجمة سعدي فيضي عبدالرزاق، دار الرشيد للنشر، بغداد، (١٩٨١).

٣ - إيمار، أندريه وجانين أبواويه : **الشرق واليونان القديم**، ترجمة فريد. م. داغر وفؤاد ج. أبو ريحان، ط٢، منشورات عويدات، بيروت - باريس، (١٩٨١).

٤ - باقر، طه : **مقدمة في أدب العراق القديم**. جامعة بغداد، بغداد (١٩٨٦).

٥ - باقر، طه : **ملحمة جلجامش**، ط٤، وزارة الثقافة والإعلام، بغداد، (١٩٨٠).

٦ - بدج، والاس : **آلهة المصريين**، ترجمة محمد حسين يونس، مكتبة مدبولي، القاهرة، (١٩٩٤).

٧ - البدري، د. عبد اللطيف : **الطب عند العرب**، الموسوعة الصغيرة، وزارة الثقافة والفنون، بغداد، (١٩٨٢).

٨ - بشور، د. وديع : **الميثولوجيا السومرية** (أساطير آرام)، ط٢، (١٩٧٤).

٩ - بوتيرو، جان : **الديانة عند البابليين**. ترجمة د. وليد الجادر، جامعة بغداد، بغداد، (١٩٧٠).

١٠ - بوتيرو، جان : **بلاد الرافدين (الكتابة . العقل . الآلهة)** ترجمة ألبير أبونا، دائرة الشؤون الثقافية العامة، بغداد، (١٩٩٠).

١١ - بوزنر، جورج وجماعته : **معجم الحضارة المصرية القديمة**، ترجمة أمين سلامة. مراجعة د. سيد توفيق، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، (١٩٩٣).

١٢ ـ تاجر، علي محمد آل : **الرؤية التشكيلية المعاصرة لملحمة الخليقة البابلية** (رسالة ماجستير)، كلية الفنون الجميلة، جامعة بغداد، (١٩٩١).

١٣ ـ توكاريف، سيرغي أ : **الأديان في تاريخ شعوب العالم**، ترجمة د. أحمد. م. فاضل. دار الأهالي للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، (١٩٩٨).

١٤ ـ الجميلي، قحطان محمد صالح : **التنبؤات وقراءة المستقبل** (حقائق أم أوهام) منشورات مكتبة الدار القومية، بغداد، (١٩٨٦).

١٥ ـ حنون، نائل : **عقائد ما بعد الموت في حضارة وادي الرافدين القديمة**. دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد (١٩٧٨).

١٦ ـ الحوراني، يوسف : **البنية الذهنية الحضارية في الشرق المتوسطي الآسيوي القديم**، دار النهار للنشر، بيروت، ١٩٧٨.

١٧ ـ الراوي، د. فاروق ناصر : «العلوم الطبية» كتاب **حضارة العراق** جـ٢. دار الحرية للطباعة، بغداد.

١٨ ـ رشيد، د. فوزي : **الفكر في العراق القديم** (مخطوطة) بغداد، ١٩٩٥.

١٩ ـ روثن، مارغريت : **علوم البابليين**. ترجمة د. يوسف حبّي. دار الرشيد للنشر، بغداد، (١٩٨٠).

٢٠ ـ ساكز، هاري : **عظمة بابل**. ترجمة د. عامر سليمان ابراهيم. جامعة الموصل، الموصل، (١٩٧٩).

٢١ ـ سعيد، خليل : **معالم من حضارة وادي الرافدين**. منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الدار البيضاء، (١٩٨٤).

٢٢ ـ السواح، فراس : **مغامرة العقل الأولى**، ط٢، دار الكلمة للنشر، بيروت، (ب.ت).

٢٣ ـ السواح، فراس : **لغز عشتار**، ط٥، دار علاء الدين للتوزيع، دمشق، (١٩٩٣).

٢٤ ـ شمّار، جورج بوبيه : **المسؤولية الجزائية في الآداب الآشورية والبابلية** ترجمة سليم الصويصي، دار الرشيد للنشر، بغداد، (١٩٨١).

٢٥ـ الشنتناوي، أحمد : **التنبؤ بالغيب قديماً وحديثاً**. سلسلة إقرأ (٢٢٠١) دار المعارف بمصر، القاهرة، (ب.ت).

٢٦ـ الشواف، قاسم : **ديوان الأساطير** (سومر وأكاد وآشور). الكتاب الأول، تقديم وإشراف أدونيس، دار الساقي، لندن، (١٩٩٦).

٢٧ـ الشوك، علي : **من روائع الشعر السومري**، منشورات الجمل، ألمانيا، (١٩٩٢).

٢٨ـ علي، د. فاضل عبد الواحد : **عشتار ومأساة تموز**، منشورات وزارة الاعلام بغداد، (١٩٧٣).

٢٩ـ علي، د. فاضل عبد الواحد : **من ألواح سومر الى التوراة**، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، (١٩٨٩).

٣٠ـ عويس، سيد : **الخلود في التراث الثقافي المصري**، دار المعارف بمصر، القاهرة، (١٩٩٦).

٣١ـ فريحة، أنيس : **ملاحم وأساطير من الأدب السامي**، دار النهار للنشر، بيروت، (١٩٧٩).

٣٢ـ فريزر، سير جيمس : **الغصن الذهبي (دراسة في السحر والدين)**، ترجمة أحمد أبو زيد ج١، الهيئة المصرية للتأليف والنشر، القاهرة، (١٩٧١).

٣٣ـ فرويليش، ج.س : **ديانات الأرواح الوثنية في إفريقيا السوداء**، ترجمة يوسف شلب الشام، دار المنارة للدراسات والترجمة والنشر، اللاذقية، (١٩٨٨).

٣٤ـ كريمر، صموئيل نوح : **من ألواح سومر، ترجمة طه باقر**، تقديم ومراجعة أحمد فخري، مكتبة المثنى، بغداد، مؤسسة الخانجي، القاهرة، مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر، القاهرة، (١٩٥٦).

٣٥ـ كريمر، صموئيل نوح : **الأساطير السومرية**، ترجمة يوسف داود عبد القادر، جمعية المترجمين العراقيين، بغداد، (١٩٧١).

٣٦ـ كريمر، صموئيل نوح : **طقوس الجنس المقدس عند السومريين (إينانا ودموزي)**، ترجمة نهاد خيّاطة، دار الغربال، دمشق، (١٩٨٦).

٣٧ـ كونتينو، جورج : **الحياة اليومية في بلاد بابل وآشور**، ترجمة وتعليق سليم طه التكريتي وبرهان التكريتي، دار الرشيد للنشر، بغداد، (١٩٧٩).

٣٨ـ لابات، رينيه : «**الطب البابلي والآشوري**». ترجمة د. وليد الجادر، مجلة سومر، مديرية الآثار العامة، بغداد المجلد (٢٤) (١٩٦٨).

٣٩ـ لابات، رينيه : **المعتقدات الدينية في بلاد وادي الرافدين** (مختارات) من النصوص البابلية، ترجمة الأب ألبير أبونا ود. وليد الجادر، جامعة بغداد، بغداد، (١٩٨٨).

٤٠ـ الماجدي، خزعل : **سفر سومر**، دار عشتار للتوزيع والنشر، بغداد، (١٩٩٠).

٤١ـ الماجدي، خزعل : **الفلك والتنجيم في العراق القديم** (مخطوطة)، معهد التاريخ العربي والتراث العلمي، بغداد، (١٩٩٥).

٤٢ـ الماجدي، خزعل : **الدين المصري**، دار الشروق للنشر والتوزيع، عمّان، (١٩٩٩).

٤٣ـ هوك، س. هـ : **ديانة بابل وآشور**، ترجمة نهاد خياطة، العربي للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، (١٩٨٧).

٢. فهرس المخططات والجداول

٣. فهرس الصور والأشكال

الفصل الثاني/ الباب الأول : الملك متوجاً كأوزيريس وتحميه من الخلف الإلهة إيزيس .

١ ـ محاكمة الميت حيث يظهر أوزيريس كقاضي قضاة محكمة الموتى .

٢ ـ حقول النعيم (القرابين، البوص) حيث يمارس الموتى حياتهم العادية .

الفصل الأول/ الباب الثاني : جلجامش وأنكيدو

٣ ـ رمزا الإله (إيا)، الأول في القرن ١٢ ق . م، والثاني نهاية الألف الثاني ق . م .

٤ ـ رموز الإله إذليل .

٥ ـ الإله مردوخ يمتطي حيوانه (موش خوش) ورموزه من العصرين الأكدي والبابلي القديم .

٦ ـ إنانا إلهة الجنس، ختم اسطواني من أور .

٧ ـ عشتار كإلهة للحرب .

٨ ـ دموزي بصورة الإنسان الثور حيث تظهر لحيته الطويلة .

٩ ـ إنانا ودموزي .

١٠ ـ رمز آشور في القرن التاسع ق . م .

١١ ـ صعود إيتانا إلى السماء .

١٢ ـ جلجامش يصارع الثورين .

١٣ ـ خمبابا على ركيزة باب كلسية مزخرفة .

١٤ ـ جلجامش يقف على جثة خمبابا .

الفصل الثاني/ الباب الثاني : إمرأة في حالة ولادة ماسكة ثدييها وتحيط بها الحيوانات والنباتات.

١٥ ـ الإله إذليل يستقبل الهدايا والخمور .

١٦ ـ لوح طيني عثر عليه في موقع تلّو في جنوب العراق،

١٧ ـ إناء مرمري مرسوم عليه أرشيكجال وإنانا .

١٨ ـ أرشكيجال تقف على لبوتين .

١٩ ـ أرشكيجال تقف على عنزتين .

الفصل الثالث/ الباب الثاني : الكاديكيوس السومري (شعار الطب).

٢٠ ـ الإله إيا ويبدو بلباس سمكة يشبه الوحش أوائنيس .

٢١ ـ ختم اسطواني يعود الى الطبيب السومري أور لوكَال أدنا .

٢٢ ـ الإله إنكي إله الطب .

٢٣ ـ الإلهة باو إلهة الطب والزراعة عند السومريين .

٢٤ ـ رموز الإله ننكشزيدا .

٢٥ ـ الكاديكيوس السومري .

٢٦ ـ الكاديكيوس اليوناني والروماني .

٢٧ ـ رمز الصيدلة الكريتي .

٢٨ ـ رقيم طيني يوضح شخصي ربما كانا إنكي وننخرساج وربما آدم وحواء .

٢٩ ـ الإله نركَال (إله الامراض) .

٣٠ ـ رمز الإله نركَال .

الفصل الرابع/ الباب الثاني : الإله شمش (إله العرافة).

٣١ ـ نموذج طبي لكبد يستعمل في العرافة .

٣٢ ـ الشيطان بازوزو .

٣٣ ـ تميمة بازوزو .

٣٤ ـ تميمة الشيطانة لامشتو .

٣٥ ـ لاماشتو يرضع من ثدييها حيوانيين .

٣٦ ـ أحد شياطين العالم الأسفل برأس أسد .

فهرس المحتويات

صدر للمؤلف

أ. حقل المثولوجيا والأديان القديمة

١ ـ سفر سومر ـ دار عشتار. بغداد ١٩٩٠.

٢ ـ حكايات سومرية ـ وزارة الإعلام. بغداد ١٩٩٥.

٣ ـ مثولوجيا الأردن القديم ـ وزارة السياحة والآثار. عمان ١٩٩٧.

٤ ـ أديان ومعتقدات ما قبل التاريخ ـ دار الشروق . عمان ١٩٩٧.

٥ ـ جذور الديانة المندائية ـ مكتبة المنصور. بغداد ١٩٩٧.

٦ ـ الدين السومري ـ دار الشروق. عمان ١٩٩٧.

٧ ـ بخور الآلهة (دراسة في الطب والسحر والأسطورة والدين) الدار الأهلية ١٩٩٨.

٨ ـ متون سومر (التاريخ. المثولوجيا. اللاهوت. الطقوس) الدار الأهلية . عمان ١٩٩٨ .

٩ ـ إنجيل سومر ـ الدار الأهلية. عمان ١٩٩٨.

١٠ ـ إنجيل بابل ـ الدار الأهلية. عمان ١٩٩٨.

١١ ـ الدين المصري ـ دار الشروق. عمان ١٩٩٩.

١٢ ـ الآلهة الكنعانية ـ دار أزمنة. عمان ١٩٩٩.

١٣ ـ المعتقدات الآرامية ـ دار الشروق. عمان ١٩٩٩.

١٤ ـ المعتقدات الكنعانية ـ دار الشروق. عمان ٢٠٠١.

١٥ ـ أدب الكالا .. أدب النار. المؤسسة العربية للدراسات والنشر. عمان ٢٠٠١.

١٦. موسوعة الفلك (الفلك عبر التاريخ) . دار أسامة ، عمان ٢٠٠١ .

ب. في حقل الشعر

١ ـ يقظة دلمون/ وزارة الأعلام. بغداد ١٩٨٠.

٢ ـ أناشيد إسرافيل/ وزارة الأعلام. بغداد ١٩٨٤.

٣ ـ خزائيل/ وزارة الأعلام. بغداد ١٩٨٩.

٤ ـ عكازة رامبو/ دار الأمد. بغداد ١٩٩٣.

٥ ـ فيزياء مضادة/ مكتبة المنصور. بغداد ١٩٩٧.

جـ. في حقل المسرح (المسرحيات المعروضة)

١ ـ عزلة في الكريستال ١٩٩٠.

٢ ـ حفلة الماس ١٩٩١.

٣ ـ هاملت بلا هاملت ١٩٩٢.

٤ ـ قمر من دم ١٩٩٢.

٥ ـ الغراب ١٩٩٢.

٦ ـ مسرحيات قصيرة جداً ١٩٩٣.

٧ ـ تموز في الأعالي ١٩٩٣.

٨ ـ قيامة شهرزاد ١٩٩٤.

٩ ـ نزول عشتار إلى ملجأ العامرية ١٩٩٤.

١٠ ـ أكيتو (الليالي البابلية) ١٩٩٥.

١١ ـ مفتاح بغداد ١٩٩٦.

١٢ ـ أنيما ١٩٩٧.

١٣ ـ سدرا ١٩٩٩.

هذا الكتاب

لماذا بحث الإنسان عن الخلود؟

ولماذا عندما لم يجده اقترح له صيغاً بديلة؟

كيف تطلع الإنسان إلى حياة ما بعد الموت ورأى نفسه خالداً فيها بجسده وروحه أو بأحدهما؟

كيف صنع الإنسان من كل هذا الدأب الأساطير وخطط السيناريوهات الإسكاتولوجية.

هذا الكتاب يحاول الإجابة عن كل هذه الأسئلة ويحاول معالجة الخلود مثولوجياً ويبحث في الإغواءات الكبرى للخلود قبل وبعد الموت، وفي الإغواءات الصغرى البديلة والكامنة في البطولة والحكمة والجنس والتكاثر والطب والشفاء والكلمة والمعرفة.

أساطير الخلود تجذب أرواحنا، في هذا الكتاب، وتجعلنا كما لو كنا قادرين على فهم وتمثل هذه المعجزة، إنه كتاب روحي بقدر ما هو كتاب علمي دقيق.

الناشر

ميثولوجيا الخلود

دراسة في أسطورة الخلود قبل الموت وبعده في الحضارات القديمة



المملكة الأردنية الهاشمية - عمان / وسط البلد
خلف مطعم القدس / ص.ب ٧٧٧٢ - هاتف ٤٦٣٨٦٨٨
فاكس ٤٦٥٧٤٤٥ ● منشورات في العام ٢٠٠٢م
● الغلاف: زهير أبو شايب . سحكسيم ®